الدكتور عمر بن قينة
أستاذ بجامعتي الجزائر و قطر

المشكلة الثقافية في الجزائر

التفاعلات والنتائج

دار أسامة للنشر والتوزيع - الأردن



الدكتور: عمر بن قينة
(BENGUINA OMAR)

يخطىء

من يعتقد أن أزمة (الجزائر) اليوم سياسية بل هي ثقافية في جذورها وتفاعلاتها، هي كحصاد تراكمي لبذور زرعها الاحتلال الفرنسي عبر مراحل مختلفة، فلم تعرف الجزائر عبر تاريخها الطويل (مشكلة ثقافية) حتى جاء الاحتلال الفرنسي (١٨٣٠) وأوغل في وعيده بعد رحيله المادي (١٩٦٢) ليكون هذا الحصاد المرّ الذي رصده هنا في هذا الكتاب الدكتور (عمر بن قينة).

والمؤلف باحث جزائري، متخصص في الأدب العربي الحديث، عمل في جامعة (الجزائر) من ١٩٧٨ حتى ١٩٩٧ حين انتدب الى كلية الانسانيات بجامعة قطر، ابتداء من السنة الدراسية ١٩٩٧ - ١٩٩٨ حتى الآن.

له أكثر من عشرين كتابا، في الدراسات والبحوث الاكاديمية، من بينها أربع مجاميع قصصية، وروايتان اثنتان.

وهو فضلا عن ذلك كاتب مقالة أدبية وفكرية وسياسية، في الصحافة العربية عموما، والجزائرية والخليجية خصوصا، فضلا عن صحافة (المهجر) منذ الثمانينات.

له في ذلك كله: باحثا وقاصا وروائيا، وكاتب مقالة: أسلوبه الخاص المتميز في لغته: بحثا، وقصة، ورواية، ومقالة.

أما الباقي: رؤى مختلفة حسب الافكار، ومواقف عديدة حسب القضايا: فسيدركه القارىء أو يلحظه، من خلال قضايا هذا الكتاب، ومسائله، عبر أقسامه الثلاثة التي يجمعها خيط رفيع مسك به الكاتب مشيرا إلى (صناع الازمة) الجزائرية: وهي جنين، حتى باتت في أخر القرن العشرين مشوهة، تستدعي المواجهة والحسم!

دار أسامة للنشر والتوزيع
عمان ـ الأردن
تلفاكس ٤٦٤٧٤٤٧ ـ فاكس ٥٨٦٢٦٢٣

الدكـتـور
عمـر بن قينـة
أستاذ بجامعتي (الجزائر) و (قطر)

المشكلة الثقافية في الجزائر

(التفاعلات والنتائج)

الناشر

دار أسامة للنشر والتوزيع

الأردن ـ عمّان

تلفاكس : ٤٦٤٧٤٤٧- فاكس ٥٨٦٢٦٢٣

ص. ١٤١٧٨١

الطبعة الأولى

٢٠٠٠م

إلى ..

الجزائر الجريحة ..

الجزائر المخدوعة النازفة ..

ثقافياً وسياسياً واقتصادياً واجتماعياً ،

بخناجر الخيانة والغدر .. والعمالة ..

إليها : معذبة .. تعاني !

وتبقى بإذن الله رغم الجراح .. قلعة شموخ وإباء !

مع ألف تحية .. في البعد مثل القرب !

عمر بن قينة – الدوحه .

٢٢ رمضان ١٤٢٠ هـ

٣٠ ديسمبر ١٩٩٩م

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

لا أزعم في أقسام هذا البحث أنني أقدم اكتشافا بقدر ما اجتهدت في عرض بعض المعطيات لإثارة بعض التساؤلات حول (المشكلة الثقافية) بالجزائر ، رغم أن المحنة الجزائرية ، برمتها جوهرها ثقافي ، نجمت عن (تغييب الثقافة) الجادة ، ثقافة الوحدة والتوحيد ، ثقافة الفعل والتفعيل في الحياة العامة ، وتهميش (المثقفين الجادين) والاستعاضة عنهم بالأشباه الانتهازيين لملء الفراغ وسيادة منطق (السياسي الأمي) على (السياسي المثقف) مما أفسح المجال لخطاب (العبث) و (الإثارة) و (التهريج) الحزبي ، وفتح الباب في النهاية على مصراعيه لكل اللّاهين والعابثين والطامعين والطامحين ليمارسوا (الدجل السياسي) و (الثقافي) وتصبح (الهوية الثقافية) التي تكرست عبر ثلاثة عشر قرنا موضع مراجعة ، بل موضع مزايدة في الحياة السياسية والاجتماعية ، ومطية مآرب لجماعاتِ (ضغط) وقوى استعمارية توعدتنا بالانتقام حين افتككنا استقلالنا بالتي هي أعنف في (١٩٦٢ م) .

من هنا تبرز عوامل (المشكلة الثقافية) في الجزائر متعددة ، مختلفة، داخلية وخارجية ، بل إن العوامل الداخلية نفسها فبركة خارجية بدأت منذ عرفت (الجزائر) ألعن استعمار على وجه الأرض ، فصب الاستعمار الفرنسي كل طاقته عليها دون سواها تشويها وتدميرا ، تفتيتا وإثارة نعرات لغوية وعرقية ، مع الاتكاء على عملاء نصّرهم وأدمجهم ، واشترى ذممهم وضمائرهم ،فكانت (الجزائر) أكبر ضحية في الوطن العربي افترسها الاستعمار الفرنسي افتراسا ، فقد احتل الاستعمار الفرنسي (مصر) سنة (١٧٩٨) وهو طفل وديع ، ثم انسحب في أقل من أربع سنوات ، لينقض على (الجزائر) في عنفوان شبابه وجبروته سنة (١٨٣٠) ليلحق بها (تونس) سنة ١٨٨١ ثم (المغرب الأقصى) سنة (١٩١٢) ثم ليفرط في هذين القطرين معا سنة (١٩٥٦) ببساطة ، بينما شدّ على الجزائر بنواجذه الأسطورية رغم ثورتها الملتهبة سبع سنوات ونصف ، ولم يستسلم الاستعمار إلا بعد أن فخخ حاضرنا ومستقبلنا ، ليس بالمضمون السياسي والثقافي في (اتفاقيات ايفيان)

١٩ مارس (١٩١٢) فحسب ، بل أيضا بالرجال الذين أعدهم في (مخابره) الثقافية لينسجوا (محنة الجزائر) على مراحل ويبدعوا مشكلتها الثقافية ، فلم يصب التشوه الثقافي الاستعماري قطرا عربيا كما أصاب الجزائر

فرغم الازدواجية اللغوية في القطرين (تونس - المغرب) فالأذى بقي محدودا جدا ، بينما بقي التشوه كبيرا في الجزائر ، أحدث شروخا وطنية في الشعب ثقافيا ، واجتماعيا ، وسياسيا بالضرورة ، وبقي الدين الملاذ الوحيد لأمة استهدفت في كيانها كله ، وهو آخر ملاذ تسند إليها ظهرها اليوم .

وأجدني هنا مضطرا للانسحاب من الجانب التاريخي حتى لا يجرفنا بعيدا عن الموضوع الثقافي والمشكلة الثقافية في الجزائر كقضية اليوم يحز في نفوسنا أنها تنجز بأيد جزائرية تفتيتية ، لصالح عدو توعدنا حين تعاونا على إلحاق الهزيمة به ، بثقافة الوحدة والتوحيد ، سياسيا ، واجتماعيا ولغويا ، ودينيا .

وإذا جنحنا للاختصار يمكن القول أن محور المشكلة اليوم لغوي ، هو صراع تاريخي بين رافدين حضاريين متصادمين ، اللغة العربية مَغزوّةٌ في عقر دارها ، والفرنسية غازية طاغية متجبرة . فاللغتان المتصارعتان تحملان إيديولوجيتين مختلفتين بمضمون سياسي وديني ، فالعربية لغة القرآن والشعائر الدينية ولسان حال الهوية الوطنية ، والفرنسية حضرت على فوهة البندقية وتحت راية الصليب .

حين فشلت إيديولوجية الهيمنة الفرنسية هرع العاملون لحسابها للاستنجاد بخادم طيعة تنهض بدور (الدركي) أو (الحركي) لحمايتها ، هذه الخادم هي (الأمازيغية) .

بقي المضمون الديني للثقافة الذي جعل الثقافة المغزوة تصمد بقوة والغازية لاتقوى على التوغل الشعبي ، فعمل التيار الاندماجي اللائكي للترويج لفكره اللائكي العلماني لفصل الدين عن اللغة وعن السياسة من أجل التمكين للهيمنة الفرنسية في النهاية .

فالمشكلة الثقافية اليوم التي تبرز إذن في صورة صراع بين العربية والأمازيغية هي في أساسها صراع بين العربية وبتراثها الديني والاجتماعي في جبهة والفرنسية بمضمونها السياسي والتنصيري والإيديولوجي في الجبهة

المقابلة .

فإن كانت العربية إيديولوجية التحرير والتحرر والانتماء لفضاء حضاري عربي إسلامي ، فالأمازيغية واجهة للتمويه عن الفرنسية إيديولوجية هيمنة ، وتبعية سياسية ، واجتماعية ، وثقافية ، هنا بؤرة الصراع اليوم رغم الامتدادات المختلفة ذات الوجوه العديدة .

هذه المقدمة التي خيل لي أنها ضرورية تسلمني إلى جوهر الموضوع (الثقافي) وقد سمحت لنفسي بوصف (المشكلة) بالثقافية .

وقد باتت (المشكلة الثقافية) حقيقة ننام على وقعها ونصحو !

القسم الأول

المشكلة الثقافية في الجزائر

(التفاعلات والنتائج)

المشكلة الثقافية في الجزائر
(التفاعلات والنتائج)

تمهيـــد :

باتت كلمة (الثقافة) من الكلمات التي يستعصي تعريفها عن الحصر الدقيق ، فهي لم تبق في عربيتنا مفردة جامدة أسيرة تعريف من الاشتقاق اللغوي لدينا من نوع (ثقف الرمح)، فتجاوزته لما هو أرحب فكريا وعقديا وحضاريا ، فتغدو وعاء للسياسة والاقتصاد والتاريخ والدين والعادات والتقاليد والاجتماع ، لأنها « طريق مميز لحياة الجماعة ، ونمط متكامل لحياة أفرادها »(١) ، فهي مركب من عناصر عديدة مختلفة ، تمتص القوانين ، والأعراف الاجتماعية ، وأشكال التفكير والسلوك والعادات، لأنها حياة الأمة في كل وجوهها ، وهي معبر أصيل « عن الخصوصية التاريخية لأمة من الأمم، عن نظرة هذه الأمة إلى الكون والحياة والموت ، والإنسان ومهامه ، وقدراته وحدوده ... ففي الثقافة وبالثقافة يدخل الفرد البشري حقا في البعد الإنساني للحياة ... فهي التي تعطيه الجذور ، وهي التي تموضعه في المكان والزمان ، وتجعله حاملا لتراث ، وهي التي تفتح أمامه إمكانيات وآفاق خاصة يستطيع بها التعرف إلى العالم والإحتفاء به »(٢) .

ولاتخرج الثقافة العربية عن هذا الإطار ، فهي الوعاء الذي تمتزج فيه شتى العناصر ، كما تمتزج المعادن في قارورة ماء طبيعي (معدني) بنسب مختلفة ، مكونة عناصرها ، فهي : اللغة والدين والتاريخ والسياسة والاقتصاد والعادات كما سبق ، كما أنها الماضي الحاضر ، بما في ذلك من قيم إنسانية عامرة بالمضامين المختلفة ثراء وفقرا ، مما لا تشذ عنه الثقافة العربية ذات الشكل المتميز على رقعة جغرافية ذات امتداد واسع ، صارت لها وظيفة توحيدية : فكريا وروحيا ، وكلما اهتزت هذه الوظيفة أسفرت عن خلل وخسران ، مما يوجب عملية اللحم المستمر والحيلولة دون التمزيق للعلاقات القائمة بين عناصر الثقافة المختلفة ، وفي مقدمتها (العقيدة) ولغة (التعبير) غير المفصولة عن التفكير ، مما لاتحيد عنه الثقافة العربية بالمكونات السابقة ، ولواحقها : من أشكال هندسة البناء لبيت وتأثيثه ، وكذا أشكال لباس وتربية أطفال وتوجيههم ، مما يمكن أن يعكس في النهاية صورة مجتمع ، هنا تتناسق

فئاته رغم الفروق الجزئية وتتكامل وتتعاون من دون أن يتحول الأفراد إلى نسخ مكررة ، ولا أن تتنافر هذه الفئات وتتنابز وتتناحر ، فكلما ضمن المجتمع لنفسه إذن إطارا ثقافيا واحدا كان ذلك مصدر انسجام وعامل قوة ، وكلما اختلفت الأطر أو أقحمت في الوعاء الثقافي العام : عناصر متباينة متنافرة : كان ذلك مصدر خلل ، وعامل ضعف وتخلف .

وتحتل اللغة : كأداة تعبير وتفكير الدرجة الثانية في تصوري بعد الدين كمنهج حياة روحية واجتماعية ، فمثلما أنَّ الدين وسيلة (توحيد) و (جمع) بمستوى عال على المستوى الروحي والوجداني ، فكذلك اللغة ، أعني هنا خصوصا : لغة التفكير بالضرورة التي تتجاوز اللغة الوظيفية الحيادية ، أي اللغة التي يتشبع بها صاحبها منذ نشأته ، وهي غير اللغة التي نكتسبها وسيلة معرفية خالصة ، وأداة وظيفية باردة .

وهنا تبدو الفروق واضحة كما نشهدها في حياتنا اليومية عربيا ، حيث نلاحظ (مظاهر الانسجام) في مجتمع توحدت (لغة الحياة) فيه ومظاهر الصدع أو (التصدع) في مجتمع اختلفت لغته هذه ، التي يكبر عليها المرء ، ويتكون فكريا وعقليا ووجدانيا ، فتتحدد بذلك هويته الثقافية بمضمون انتمائي لا وظيفي .

فاللغة والدين من هذه الزاوية روح الثقافة التي هي وعاء حياة الأمة، فتغدو الثقافة بمضمونها الديني كوعاء إذن من زاوية أخرى في موقع (الوتد) و (القنطاس) معا في (الخيمة) والركائز الأخرى لواحق ، لاغنى عنها في ارتفاع الخيمة : كصورة للتاريخ والجغرافيا والسياسة والاقتصاد والاجتماع بكل أبعاده وزواياه ؛ فتلوح تبعا لهذا : الهوية الثقافية المتميزة بين شعب وآخر ، ومن هنا كانت (الهوية الثقافية) للأمة العربية ، وهي الهوية التي نهضت بشكل متميز على (الدين) و (اللغة) كقطبي تناغم ، فإن أحالتنا اللغة إلى القوم ؛ فهؤلاء القوم لم يكن لهم شأن إلا بالإسلام ، وهو الإطار نفسه الذي تحددت فيه لأول مرة في التاريخ هوية (الشعب الجزائري) واستقرت ، بعدما قاوم جميع المحتلين ، ثم احتضن الإسلام ، وحمل رايته ، وقد نضجت هويته بمضمونيها : (العربية) لغة جامعة بين سائر أفراده ، و(الإسلام) عقيدة توحيد ونظام ، ووحدة وتعاون، فثبت الشعب متكاتفا في وجه كل (الغزاة)

مايقرب من ثلاثة عشر قرنا ، مستندا إلى هاتين الدعامتين الأساسيتين : اللغة العربية لسانا ، والدين الإسلامي عقيدة ، ولم تنل من ذلك قيد أنملة عبر القرون الثلاثة عشر بعض الخلافات الطبيعية ، والفروق القبلية ذات الطابع السياسي المحلي جدا التي لاتكاد تختلف عن الفروق بين أبناء الأسرة الواحدة ، أو بين أسرة وأخرى في قبيلة واحدة ، حتى كان الابتلاء بالاحتلال الأوروبي (الفرنسي) ذي الطابع التدميري الذي كان فعله عنيفا ، أكثر حقدا في الجزائر من أي بلد احتلته (فرنسا) في العالم بما في ذلك أقطار الوطن العربي ، ابتداء بمصر التي انتهى إليها (١٧٩٨) طفلا يحبو ، بينما انقض على (الجزائر) شابا عربيدا متهورا (١٨٣٠) مرنا قليلا بعد ذلك مع جارتيها (تونس) في (١٨٨١) و (المغرب الأقصى) في (١٩١٢) .

الواقع الاحتلالي في الجزائر أنجز مشكلة ثقافية ، ذات طابع تمزيقي ، سياسيا ، وفكريا واجتماعيا ، شرعت تتفاعل عناصرها لتتعقد بعد - الاستقلال - كما أرادها ، مع نهاية القرن العشرين ، تحديدا في آخر عشرية منه ، وعند الله العلم ، في الألفية الثالثة .

فإذا كانت (المشكلة الثقافية) في (الجزائر) بدأت تعبِّر عن نفسها - وطنيا - منذ الثلاثينيات من هذا القرن وأربعينياته في شكل (مناوشات) ذات طابع (عرقي) و (إيديولوجي) فقد صارت اليوم وباء وطنيا ، لذا فإن وصفها بالمشكلة ، بل المشكلة المتأزمة يأتي من واقع معاناتنا اليومية النتائج التدميرية ، خصوصا بعدما شرع يختفي من فضاء هذا الواقع (البطل - المثل) الكاريزمي .

ولم يأت ذلك مصادفة ، ولا نزل من السماء بقدر مانبع من الإرث الاستعماري الذي وجد سنده في الانحراف الذي بدأ منذ الساعات الأولى للاستقلال ، في تهميش (العربية) و (الإسلام) رغم أن العربية والدين الإسلامي ركيزتا الثقافة في الجزائر ، أوجناحاها ، هما العنصران اللذان كان يجري احترامهما (في الخطاب السياسي) للاستهلاك الشعبي ، ويدفعان إلى الخلف في السلوك اليومي ، بفعل اللوبيات ، التي شرعت منذئذ تتموقع وراء (الرؤساء) و (الوزراء) وهي (لوبيات) ذات ولاء أعمى للغرب وثقافته ، باختلاف نسبي حسب الفترات .

بدأت (المشكلة الثقافية) في (الجزائر) إذن تأخذ لها أبعادا جديدة بعد الاستقلال السياسي (١٩٦٢ م) بعدما رُحِّل المحتل ، لكنه قبل الرحيل أناب عنه أتباعا ينجزون مشاريعه في السر وفي العلانية ، حسب طبيعة المشروع والظروف مستغلين شيئا من مرونة في مواثيقنا وقوانيننا الفقير معظمها فقرا مدقعا ذات العموميات أحيانا مع انعدام الحزم والصرامة في تطبيق مافيها من إيجابيات ، ومن دون صرامة كاملة في تأكيد (العمق الثقافي) المحمي بقوة القانون الذي لا يقبل التأويل ، كصمام أمان في وجه التلاعب والانحراف الذي مارس الإبادة لتراث الأمة النضالي ، وعمل للحيلولة دون التطور الثقافي الوطني المنشود ، فانتهى إلى محاولة جادة لمسخ الأمة في تاريخها ، وفي لسانها وفكرها وروحها ، وامتد ذلك للدين نفسه ، حتى وقفنا اليوم على مشارف القرن الواحد والعشرين والمواطن في حيرة من أمره ، وقد اختفى تماما (السياسي المثل) من (الرجال) في زمن تحزبي ملوث بالأنانية والأحقاد ، وحضر (أشباه الرجال) الأنانيون يمارسون لعبة (القط) و (الفأر) ويزايدون على تاريخ أمة ولغتها ، وقيمها ، ودينها ، وأوجه الحياة السياسية التي تريدها ، مما أفضى إلى أزمة عنيفة ، أنجبت (المشكلة الثقافية) فطرحت لأول مرة رسميا أفكار تشكيكية في تاريخنا وانتمائنا ، لإعادة النظر في (الهوية) بمضامينها المختلفة التي ما استطعنا أن نكون شيئا ذا بال إلا بها ، بما فيها (الدين) الذي كان طاقة فعل ، فبات (اللائكيون) يستهدفونه ، كما يتمسح به المنحرفون ويستغلونه ، فيشوهونه ، ومواثيقنا القانونية نفسها على (الرف) محنطة ، لا تجد الإرادة الفولاذية التي تمتشقها سيفا يطيح برؤوس الإفك والضلال والتضليل .

فما تعانيه (الجزائر) اليوم إذن بؤرته (المشكلة الثقافية) بكل تراكماتها المترسبة والطافحة ، منذ رحيل الاحتلال الفرنسي - ماديا - سنة (١٩٦٢) فأناب عنه فيالق مدججة بإيديولوجية اللغة والفكر الفرنسيين المستعملين بذكاء استعماري دقيق ، وقد تشربته هذه الفيالق لقابلية فيها للاستعباد الأوربي (الغالب) بالأمس عسكريا ، واليوم اقتصاديا وتقانيا وفكريا ، مستغلة في أول يوم من (استقلالنا) مناخ (الطلقاء) بمنطق «عفا الله عما سلف » ليكون هذا الحصاد الذي يجمع الوطن اليوم شوكه وزواه .

لكن المؤكد أن جذور (المشكلة الثقافية) في (الجزائر) مرتبطة ببداية التجذر للاحتلال الفرنسي ، منذ انقضت جيوشه على (الجزائر) كالكواسر النهمة (١٨٣٠) ثم اطّرد تشابك خيوطها على أيدي جزائريين من (الطلقاء) وأشباههم ، وأنصارهم وحواشيهم ، من مستغلي بطاقة (الهوية الوطنية) لينتهوا اليوم إلى تشكيك الأجيال في تاريخها وانتمائها الحضاري القومي ، من أجل تمزيقها : سياسيا ، واجتماعيا ، ولغويا ، ودينيا ، وترابيا في النهاية، ولم لا ؟ فلا مستحيل في سياسة الاحتلال مع إرادته ، منذ شرع يصر على أن (الجزائر) فرنسية : أرضا ، وإنسانا ، رغم مياه البحر الأبيض المتوسط الفاصلة [!!] ورغم أنف التاريخ واللغة والدين المتغلغل في نفوس كل الجزائريين، مما عمل الاستعمار على إلغائه ، وصولا إلى (الجزائر الفرنسية) قلبا وقالبا . وبعدما فشلت كل محاولاته عبر قرن وثلث : غير منهجه بعد (رحيله) المادي، للوصول إلى الهدف نفسه على أكتاف جزائريين ببطاقة هوية (ورقية) محنطة ، لاروح فيها ، ليحقق له على أيديهم وبإمكانياته : الظاهرة والمستترة المسخرة لهم ماعجزت عنه ترسانته العسكرية والفكرية إبان الاحتلال المباشر على ظهر الحصان (الكهفي) نفسه (البربر) و (البربرية) كمشكلة لغوية مصطنعة ، على شكل واجهة لخدمة (الفرنسية) و (التنصير) لغة وسياسة وفكرا .

وحين نجنح إلى الحصر ، نستطيع أن نتساءل تحديدا : من صناع هذه (الأزمة - المحنة) ذات البؤرة الثقافية التي غدت مشكلة حقيقية اليوم ، لها ظاهر للعيان ، وخفي لايكاد يبين ، لكنه الحبل المتين لإبداع (الأزمة - المشكلة) هذا مع التكرار : أن أساس (الأزمة) في جوهرها وشموليتها ثقافي، من منظور الوعاء الذي ذكرته سابقا ، ساعد عليها غياب الرؤية الوطنية الجادة الصائبة ، والإخلاص في العمل ، مع استحواذ الانتهازيين وذوي المآرب من محترفي السياسة و (الديماغوجية) على مقاليد الأمور الثقافية نفسها ، وتهميش الثقافة الجادة الفاعلة ذاتها ، وانعدام برامج لها ، فضلا عن تهميش المثقفين أنفسهم ، خصوصا ذوي الرأي ، في الاتجاه الوطني الواضح الصارم الذين بقوا موضع حذر في سياسة النظام ، كما أنهم عقبة كؤود رغم ضعف الإمكانيات في عدسة (اللوبي) الفاعل ، القابع وراء الواجهات

السياسية ، من (رؤساء) و (وزراء) و (خفراء) أيضا .

فهل يمكن أن نحدد بشكل تقريبي إذن صانعي (المحنة الجزائرية) ، وبؤرتها (المشكلة الثقافية) خصوصا ، وفي آخر عشرية من القرن العشرين بشكل أخص ؟ صانعوها بعد الاحتلال الفرنسي قطبان أساسيان ، وربما ثلاثة ، من زاوية النظر للصراع الذي أفضى اليوم إلى هذا التمزق العام في المجتمع ، والتيه الثقافي والأيديولوجي ، والتفكك الاجتماعي الحاد ، والصراع الذي نمّى لأول مرة بشكل مقصود (ثقافة الحقد) بعدما تكرست لدينا (ثقافة النسيان) وكذا (الثقافة الجهوية) فضلا عن (ثقافة التهميش) .

أولا

هل عرفت (الجزائر) مشكلة ثقافية قبل الاحتلال الفرنسي ؟

لم تعرف (الجزائر) مايسمى (المشكلة الثقافية) منذ الفتح الإسلامي، وإن عرفت مشاكل سياسية لاحصر لها ، فقاومت الذوبان في الموجات الاحتلالية ، فرفضت لذلك (الرومنة) لكنها قبلت بالإسلام ولغته عن طواعية، واحتضنته عقيدة ومنهج حياة ، فتبنته حياة فكرية ودينية ولغوية واجتماعية وسياسية ، ونهض أبناؤه لنشره ونشر لغة القرآن في أوروبا نفسها منذ أواخر القرن الأول الهجري ، ومن أبنائها هنا (طارق بن زياد) المتوفى سنة (١٠١ هـ - ٧١٩ م) فاتح (أسبانيا) الذي أجاد العربية وأبدع خطبته الشهيرة بها التي تعتبر « من عيون أدب الحرب ، بكل ظلالها وثوريتها ، وقيمها الطبيعية ، والشخصية ، والإنسانية »[٣]. بل كتب شعرا يصف فيه عبور البحر مع جنده على السفن ، وهو قوله :

ركبنا سفينا بالمجاز مقيرا ... عسى أن يكون الله منا قد اشترى
نفوسا وأموالا وأهلا بجنة ... إذا ما اشتهينا الشيء فيها تيسرا
ولسنا نبالي كيف سالت نفوسنا ... إذا نحن أدركنا الذي كان أجدرا

وهي أبيات « مما يكتب لمراعاة قائلها ومكانته لا لعلو طبقتها »[٤] كما ورد في (نفح الطيب) نقلا عن (ابن سعيد) بإشارة (أحمد المقري) .

فانطلق أبناء (الجزائر) يعضدون الإسلام ، وينشرونه ، ويبدعون بلغة القرآن ، في الوقت الذي شرعت - فيه - الملامح الثابتة للهوية الجزائرية : تتحدد بوجهها (العربي - الإسلامي) فآي الذكر الحكيم حببت في لغة القرآن (العربية) التي لم تناهض (البربرية) ولا (البربرية) أبدت ضيقا بها، بل من كتاب (البربرية) من مارس الكتابة باللغتين بربرية (التيفيناغ) وعربية (القرآن) قبل أن ينصرف للكتابة بالعربية وحدها طواعية ، وحبا ، اقتناعا تاما بأنها اللغة الحديثة الأكثر قوة وثراء ودقة في التعبير عن النفس ، وعن العلم ، ومقاصد الشرع ، وإدارة السياسة ، وطموح الرسالة المحمدية ، فضلا على أنها لغة القرآن ، وهو ما عبر عنه الشيخ محمد البشير الإبراهيمي (١٨٨٩ - ١٩٦٥) ذات يوم بقوله :

« اللغة العربيـة في القطر الجزائري ليست دخيلة ولا غـريبة ، بل هي في دارها وبين حماتها وأنصارها ، وهي ممتدة الجذور مع الماضي ، طويلة الأفنان في المستقبل ، ممتـدة مع الماضي لأنهـا دخلت هذا الوطن مع الإسـلام على ألسنة الفـاتحين ترحل برحيلهم وتقيم بإقامتـهم ، فلما أقام الإسلام بهذا الشمال الإفريقي إقامة الأبد وضرب بجرانه فيـه أقامت معـه العربيـة لاتريم ولا تبرح ، مادام الإسلام مقيما لا يتزحزح ، ومن ذلك الحين بدأت تتغلغل في النفوس ، وتنساغ في الألسنة واللهوات، وتنسـاب بين الشـفـاه والأفـواه ، يزيدها طيبـا وعذوبة أن القـرآن بهـا يتلى ، وأن الصلوات بها تبدأ وتختم ، فما مضى عليها جيل أو جيلان حتى اتسعت دائرتها ، وخـالطت الحـواس والمـشـاعـر ، وجاوزت الإبانة عن الدين إلى الإبانة عن الدنيـا ، فأصبحت لغة دين ودنيـا معـا ، وجاء دور التدوين فدونت بها علوم الإسلام وآدابه وفلسفته وروحانياته ، وعرف البربر على طريقها مالم يكونوا يعرفون ، وسعت إليها حكمة اليونان ، تستـجديهـا البيـان ، وتستعديها على الزمان ، فأجادت وأعدت ، وطار إلى البربر منها قبس لم تكن لتطيره لغة الرومان ، وأزاحت البربرية على ألسنة البربر فغلبت وبزت ، وسلطت سحرها على النفوس البربرية فأحالتـهـا عربيـة ، كل ذلك باختيار لا أثر فيـه للجبر ، واقتناع لا يد فيه للقهر ، وديمقراطية لا شبح فيها للاستعمار ، وكذب وفجر كل من يسمي الفتح الإسلامي استعمارا ، وإنما هو راحة من الهم الناصب ، ورحمة من العذاب الواصب ، وإنصاف للبربر من الجور الروماني البغيض .

من قال إن البربر دخلوا الإسلام طواعيـة فقد لزمه القول بأنهم قبلوا العربيـة عـفوا ، لأنـهـما شيئان متلازمان حقيـقة وواقعـا ، لايمكن الفصل بينهما، ومحاول الفصل بينهما كمحاول الفصل بين الفرقدين .

ومن شـهد أن البربرية ما زالت قائمة الذات في بعض الجهات ، فقد شهد للعربيـة بحسن الجوار ، وشهد للإسلام بالعدل والإحسان ، إذ لو كان الإسلام دين جبرية وتسلط لمحا البربرية في بعض قرن ، فإن تسامح ففي قرن.

إذا رضي البربري لنفسه الإسلام طوعا بلا إكراه ، ورضي للسانه العربية عفوا بلا استكراه ، فأضيع شيء ماتقول العواذل ، واللغة البربرية إذا تنازلت عن موضعها من ألسنة ذويها للعربية لأنها لسان العلم وآلة المصلحة ، فإن مايزعمه كل المبطلين بعد ذلك فضول .

إن العربي الفاتح لهذا الوطن جاء بالإسلام ومعه العدل ، وجاء بالعربية ومعها العلم ، فالعدل هو الذي أخضع البربر للعرب ، ولكنه خضوع الأخوة ، لا خضوع القوة، وتسليم الاحترام ، لا تسليم الاجترام ، والعلم هو الذي طوع البربرية للعربية ، ولكنه تطويع البهرج للجيدة ، لا طاعة الأمة للسيدة .

لتلك الروحانية في الإسلام ، ولذلك الجمال في اللغة العربية ، أصبح الإسلام في عهد قريب صبغة الوطن التي لا تنصل ولا تحول ، وأصبحت العربية عقيلة حرة ، ليس لها بهذا الوطن ضرة » .(٥)

تخلت بربرية (الكتابة) عن موقعها ، مفسحة المكان لأخت عزيزة غنية في العطاء العلمي ، والأداء الفكري ، مع حوار ودي ، وتلاقح حميمي في الحياة اليومية ، تعبيرا ، وسلوكا ، كجزء من الثقافة : فأبدع هذا المسلم الجزائري بلغة القرآن في كل ميدان ، وفي المقدمة مجال (الشعر) حيث تألق في أول (دولة جزائرية إسلامية) أي الدولة الرستمية (١٤٤ - ٢٩٦) اسم (بكر بن حماد التيهرتي) الذي عاش نحو ست وتسعين سنة (٢٠٠ - ٢٩٦هـ / ٨١٥ - ٩٠٨ م) الذي حمل لقب (شاعر إفريقيا) مجسدا اللقب بشعره، وبحياته ، مادحا أمراء (الجزائر) و (المغرب) و (تونس) التي حل بها أستاذا بعد عودته من (بغداد) التي مدح فيها (المعتصم بالله) ودخل في صراع مرير مع شعراء بلاطه وسواهم .

هذا من الشعراء نموذجا ، أما في النثر : فقها ونقدا ولغة فالقوائم طويلة، تكبر مع العصور وتستعصي تماما على الحصر ، حتى درجة الاستحالة ، لكن من أشهرهم في النحو (ابن آجروم الصنهاجي) المتوفى سنة (٧٢٣ هـ / ١٣٢٣ م) صاحب (الآجرومية) في النحو التي بقيت حتى العصر الحاضر : أحد المقررات في المعاهد العلمية والدينية ، وقبله (ابن معطي الزواوي) في القرنين السادس والسابع الهجريين (٥٦٤ - ٦٢٨ هـ) صاحب (الألفية) في النحو التي سبق بها خلفه (ابن مالك) وقد أشار إليها (ابن مالك) نفسه باعتزاز في مطلع ألفيته ، مشيدا بفضل السبق لابن معطي ، قائلا عن منظومته الألفية في مطلعها :

وتقتضي رضى بغير سخط فائقة ألفية ابن معطي
وهو بسبق حائز تفضيلا مستوجبا ثنائيا الجميلا

ومن رجال التاريخ والأدب والفكر ، أبو العباس الغبريني (٦٤٤ - ٧٠٤ هـ / ... - ١٣٠٤ م) من أبناء القرنين السابع والثامن الهجريين الذي عرف بعدة آثار فكرية ، منها « عنوان الدراية في من عرف من علماء المئة السابعة في بجاية » الذي اهتم به المستشرقون ، وقد رصد فيه عشرات الأسماء، من رجال العلم والفكر والأدب السابقين عنه قليلا ، والمعاصرين له ، وهو من علماء بجاية نفسها .

وقد مارس التأليف كما مارس كتابة الشعر رجالات الإمارات الإسلامية أنفسهم في (الجزائر) وفي مقدمتهم أبو حمو موسى الزياني (٧٢٣ - ٧٩١ هـ / ١٣٢٣ - ١٣٨٩ م) ، من أسرة (بني عبد الوادي) التي تولت السلطة (الزيانية) في (تلمسان) أكثر من ثلاثة قرون (٦٣٣-٩٥٧ هـ / ١٢٣٦ - ١٥٥٠ م) فقد ترك مؤلفات علمية وأدبية ، وعشرات المنظومات والقصائد التي تتقدمها المدائح النبوية ، ووصف الطبيعة الجزائرية .

إلى جانب رجال اللغة والفكر والأدب والتاريخ والسياسة : امتلأت الساحة بعلماء البلاغة والفقه والإصلاح على مر التاريخ القديم ، منهم الشيخ عبد الرحمن الأخضري ، من أبناء (القرن العاشر الهجري) الذي لقيت أعماله اهتمام الباحثين المسلمين والأوربيين ، ومن بين أعماله : «الجوهر المكنون » في البديع و « السلم المرونق في علم المنطق » و «المختصر في العبادات » على المذهب المالكي .

وقد باتت كتبه مقررات تعليمية ، في معظم المؤسسات التعليمية التقليدية ، في البلدان العربية والإسلامية عموما ، كالزوايا الشعبية (الأهلية) و (القرويين) و (الزيتونة) و (الأزهر) وغيرها .

كل هذا يقوم به من يطلق عليهم اسم (البربر) أو من في حكمهم ، من دون أن تطل يوما مشكلة ، تسمى (المشكلة الثقافية) ذات الصلة بالهوية حتى العصر الحديث الذي شرعت فيه جحافل الاحتلال الأوروبي تجتاح العالم الإسلامي ، وفي مقدمته (الجزائر) حين استمرت فيه الحركة الثقافية على نفس الوتيرة بأقلام جزائرية صميمة ، ومن أصحابها من يسمون (برابرة) كالشيخ طاهر الجزائري (١٢٦٨ - ١٣٣٨ هـ / ١٨٥٢ - ١٩٢٠ م) أبو النهضة العلمية في الشام أو رائدها ، بتعبير الدكتور (عدنان الخطيب)[٦] ،

والمصلح : (صالح بن مهنا) القلي القسنطيني ، المتوفى سنة (١٣٥١ هـ - ١٩١٣ م) وخلفه الشيخ (عبد الحميد بن باديس) (١٨٨٩ - ١٩٤٠ م) من أعرق قبيلة بربرية أصيلة هي قبيلة (صنهاجة) التي تولت الحكم في (الجزائر) أو (المغرب الأوسط) بعد العبيديين الفاطميين .

لكنه المنافح عن عروبته الإسلامية ، وإسلامه العربي الذي مكّن لأجداده ليسودوا ويحكموا ، وقد نهض وطن جديد بات جزءا من الأمة العربية والإسلامية ، ولم يعرف مشكلة ثقافية رغم المشاكل السياسية الجمة، حتى جاء (الاحتلال الأوربي) فكوّن عملاء له طرحوا لأول مرة (المشكلة الثقافية) من منظور عرقي لغوي ، فرد (ابن باديس) هذا عن بعض الناعقين في إحدى خطبه بنادي الترقي في العاصمة (١٣٥٤ هـ -١٩٣٦ م) قائلا : « إن أبناء يعرب وأبناء مازيغ قد جمع بينهم الإسلام منذ بضع عشرة قرنا ، ثم دأبت تلك القرون تمزج مابينهم في الشدة والرخاء ، وتؤلف بينهم في العسر واليسر ، وتوحدهم في السراء والضراء ، حتى كونت منهم منذ أحقاب بعيدة عنصرا مسلما جزائريا : أمه الجزائر وأبوه الإسلام .

وقد كتب أبناء يعرب وأبناء مازيغ آيات اتحادهم على صفحات هذه القرون بما أراقوا من دمائهم في ميادين الشرف لإعلاء كلمة الله ، وما أسالوا من محابرهم في مجالس الدرس لخدمة العلم .

فأي قوة بعد هذا - يقول عاقل - تستطيع أن تفرقهم لولا الظنون الكواذب والأماني الخوادع ؟ ياعجبا ! لم يفترقوا وهم الأقوياء ، فكيف يفترقون وغيرهم القوي ، كلا والله ، بل لاتزيد كل محاولة للتفريق بينهم إلا شدة في اتحادهم وقوة لرابطتهم .. » . (٧)

صدع الرجل بهذا ، والمؤامرة في أشواطها الأولى الحذرة لخلق (المشكلة الثقافية) في (الجزائر) خصوصا ، وفي المغرب العربي عموما : مستهدفة التشتيت والتفتيت وصولا إلى الهيمنة الفرنسية التامة الشاملة : سياسيا ، وثقافيا ، بخلفية لغوية (بربرية) كغطاء تمويهي لضرب (العربية) والتمكين للغة المحتل (الفرنسية) .

زُرعت بذور المشكلة الثقافية زراعة فرنسية خالصة على أساس لغوي عرقي ، بعد نحو ثلاثة عشر قرنا ، صارت فيها العربية لغة علم وتعليم ،

وبقيت البربرية على الشفاه حرة طليقة تتلون باختلاف جهات الوطن ، كاختلاف العاميات العربية نفسها في الجزائر ذاتها ، والوطن العربي كله ، أما حين اصطنعت هذه المشكلة فقد انجذب إليها كل (المرتزقة) و (الانتهازيين) و (الوصوليين) في برك السياسة العكرة ، وفي حَمأة الصراع المصلحي الشخصي الذي اتخذ له طابعا جهويا قبليا .

برعاية (الاحتلال الفرنسي) زرعت (المشكلة الثقافية) فأخذت تمد جذورها في الأرض ، لتورق بشكل مشوه أغصانا وفروعا ، قد تذوي هذه أو تموت تلك ، حسب المراحل ، إبان الاحتلال وبعد رحيله ، لكن الاحتلال الفرنسي بقي في كل الظروف ساهرا يتعهدها بالتسميد والسقي ، والتهوية، والتشذيب، مصارعا مسببات موتها في تربة اصطناعية ، في عالم تغيرت مناخاته عبر ثلاثة عشر قرنا ، أصبحت (الجزائر) فيها جزءا من الوطن العربي والعالم الإسلامي ، بفضل الإسلام نفسه .

مع ذلك أفلح الاحتلال الفرنسي بمثابرته وجديته في خلق بيئة هجينة ، كما خلق بيادق أو (روبوات) تملأ تلك البيئة منذ شرع في سياسة (الفرنسة) والتمزيق الوطني : لغويا وعرقيا ، مستهدفا في الأساس ضرب العلاقة بين العربية والإسلام كخطوة أولى لتحييد هذا ، وتهميش تلك لإخلاء الساحة لثقافة التدمير ، بالفرنسية أداة تعبير ، وأسلوب تفكير ، ونموذج حياة اجتماعية في كل المناحي : في زواج وطلاق ، وفي بناء بيت وتأثيثه ، واقتناء سيارة ، مثل تربية الأطفال ، والتوجه السياسي ليكون الغرب كله نموذج حياة منشودة ، مما كان موضع صراع بين المحتل الفرنسي مدعوما برجاله وترساناته العسكرية والفكرية وحركة المقاومة الجزائرية : والفكرية المسلحة منذ أول يوم حط فيه هذا المحتل رحاله في الجزائر العربية المسلمة ، فكيف دارت المواجهة ؟ وما هي مجرياتها من (١٨٣٠) إلى (١٩٥٤) خصوصا ؟

ثانياً
تفاعلات المشكلة الثقافية إبان الاحتلال الفرنسي

بدأت عناصر المشكلة الثقافية في الجزائر تتفاعل منذ شرع الاحتلال الفرنسي يوطد دعائمه المادية والمعنوية فيها ، فأنجبت سياسته مناخا أفرز الأعوان والتُبَع الذين عبر عنهم في النهاية (التيار الاندماجي) بعدما سلخ الاستعمار الفرنسي في الجزائر نحو قرن ، من الجهود المكثفة : للمسخ والتشويه السياسي والعقدي واللغوي والتاريخي ، فانطلق الفعل الاستعماري ورد الفعل الوطني جنبا إلى جنب ، لينتج ذلك كله ركاما من القضايا والمشاكل ، خلاصتها المشكلة الثقافية بكل وجوهها التي نمت ثم أورقت ، ونوّرت كنوار (الدفلى) مع آخر عشرية في القرن العشرين .

في الفعل الدؤوب للاحتلال ، ورد الفعل المحلي تبرز خيوط واضحة في حياكة المشكلة الثقافية بالجزائر منذ حط الاحتلال الفرنسي رحاله في المغرب العربي عموما ، وفي الجزائر أولا وأخيرا .

أولاً : الفعل الاستعماري النافذ

لقد انقض الاحتلال الفرنسي على الجزائر في (جوان / يونيو ١٨٣٠ م) وباتت العاصمة في قبضته رسميا يوم (٥ جويلية / يوليو ١٨٣٠) والداي التركي يسلمها لقمة سائغة لأبشع احتلال حديث، كان في عز شبابه، وطغيانه ، تمور جوانحه بالحقد على وطن أذلّ أوروبا كلها وأمريكا معها في البحر الأبيض المتوسط نحو ثلاثة قرون ، وتحتدم أعماقه بشراهة لابتلاع كل ما على الأرض ومن عليها ، كوحش جائع طالت مراوغاته لفريسته .

ثم ينطلق هذا الاحتلال في مشاريعه السياسية والعسكرية وغيرها ، ومن هذا الغير أساسا المشاريع الثقافية بكل وجوهها ذات الطابع التدميري، تاريخيا ، ولغويا ودينيا واجتماعيا ، مهما تلونت في بعض مراحلها بألوان زاهية ذات طابع إنساني تملقي مسموم ، فكانت الجبهة التعليمية والتبشيرية أحد المنافذ للتوغّل والابتزاز والهيمنة ، وشراء الذمم .

الفعل الاستعماري على الجبهة التعليمية والدينية :

من مزاعم الاحتلال الفرنسي التي سعى لإخفاء نياته بها ، أنه جاء لدفع

ظلم الأتراك عن الجزائريين ورفع الأمية عنهم ، ورغم مساوئ الحكم التركي ، فهو حكم إسلامي ، قائم على الشرعية التامة بمعيار ذلك الزمان ، وهو إن لم يشجع رسميا الحركة التعليمية فإنه لم يعرقل جهود المواطنين في تشييد المؤسسات على عكس ما فعل الاحتلال الفرنسي بعدُ ، حيث كانت تلك المؤسسات معاقل للمعرفة : مدارس وكتاتيب ، وزوايا ، ومساجد ، وغيرها تقترب من ألفي مؤسسة تعليمية عشية الاحتلال ، يتعلم فيها ويدرس نحو خمس وعشرين ألف تلميذ وطالب في مختلف المراحل والمستويات ، وجدت نفسها في مواجهة سياسة الاحتلال الخاصة بالفرنسة ، والتنصير ، وهي الخطوة المصاحبة لسياسة الحرق لقرى بأكملها ، وإبادة عشائر برمتها ، لفرض الأمر الواقع بالقتل والحرق والتشريد .

انطلقت سياسة الفرنسة والتنصير تحت دعوى رفع الجهل ونشر الثقافة والحضارة كجسر للاستحواذ على العقول والنفوس ، بينما كانت شهادات المؤرخين والرحالة المعاصرين تؤكد أن الجزائر كانت أكثر تعليما شعبيا من فرنسا ذات التعليم النخبوي ، حتى إن أحد الرحالين الألمان فيلهلم شيمبر (١٨٠٤ - ١٨٧٨) قال حين مر بالجزائر سنة ١٨٣١ « لقد بحثت قصدا عن عربي واحد في الجزائر يجهل القراءة والكتابة غير أني لم أعثر عليه ، في حين وجدت ذلك في بلدان جنوب أوروبا »[٨] وعلى رأسها فرنسا نفسها . وهو ما أكده الرحالون والمؤرخون الفرنسيون أنفسهم الذين لا يمكن اتّهامهم بالتحيز لنا ، سواء القدماء منهم أو المحدثون ، ومن هؤلاء كما يشير (الطاهر زرهوني) مارسال إميريت (Marcel Emirit) في حوليات (Annales) ١٩٦٠ م . وكذا دوماس (Dumas) ، و تورين (Turrin) وغيرهم ، لكن مصيبة الجزائر يومئذ أن الذين حكموها جهلة ، وهم الذين وفروا العوامل السياسية والعسكرية ، وحتى الاجتماعية لسقوطها بين براثن احتلال مشحون بروح صليبية ، فإن كان الشعب الفرنسي أقل تعليما من الشعب الجزائري في (١٨٣٠) ، فإن الحكام الفرنسيين كانوا أكثر علما ووعيا وحنكة وخبرة برجال الرأي والتدبير لديهم من حكام الجزائر الأتراك الذين يؤثرون القرابة والمصاهرة على الكفاءة ، كما يؤثرون المصالح الشخصية على المصالح الوطنية في حضور جهلهم وغفلتهم .

بموازاة العمل العسكري إذن كان النشاط الاستعماري يجري حثيثا من أجل فرنسة الجزائر لغة ، وتنصيرها عقيدة ، فعمل على تأسيس مايسمى بالمدارس العربية الفرنسية في سنوات (١٨٣٦ - ١٨٥٠)لاستقطاب الجزائريين بتعليم مزدوج (عربي - فرنسي) ولم تكن هذه المدارس في واقعها سوى قسم واحد فقير بتلاميذه وبمستوى معلميهم الفرنسي والعربي الذي وضع للزينة ولم يغير هذه الحقيقة المرسوم الفرنسي الصادر في (١٨٥٠/٧/١٤) الذي أعلن فشل المدارس العربية وأمر بإنشاء مدارس أخرى بنظام جديد ، لكنّها بدأت تعرف الإغلاق بثورة (المقراني وبلحداد) سنة (١٨٧١ م)، لينتهي أمرها بالإلغاء سنة (١٨٨٣ م)، لا لعدم رغبة من لدن الاستعمار في إتاحة سبل التعليم فحسب بشكل صحي ، مبرإ عن الأغراض بل للعزوف الوطني عن التعليم في المدارس الفرنسية الرسمية ذات الطابع التنصيري غير المعلن ، وهو ما اطرد حين عوضت هذه المدارس في السنة نفسها (١٨٨٣) بنموذج آخر تعليمي سنّتْه القوانين الفرنسية المتعلقة بإجبارية التعليم العمومي [٩] الفرنسي مما جعل بعض الأسر تهرب بأبنائها منها إلى الكتاتيب القرانية ، فشرعوا يتحايلون على قانون (١٨٨٣) الخاص بإجبارية التعليم بعدم تسجيل أبنائهم في مصالح الحالة المدنية ، وهي الحيلة التي وجدها الجزائريون مجدية في النهاية لتجنيب أبنائهم أيضا التجنيد الإجباري للخدمة العسكرية في الجيش الفرنسي ، حين سن قانون التجنيد العسكري الإجباري سنة (١٩١٢ م) ، على كل شاب جزائري بلغ الثامنة عشرة ، لكن السياسة التعليمية استمرت لإفراغ المواطن الجزائري من انتمائه القومي ، فإجبارية التعليم - نظريا - كانت محاطة بتحفظات أخرى ، يجري الحرص فيها على ألا يتاح التعليم الجاد بعد المرحلة الابتدائية ، إلا لمن لاحت فيه بوادر استعداد لحب فرنسا ونبذ مجتمعه العربي المسلم ، ووطنه بتاريخه العربي الإسلامي ، وهذا موضوع آخر في السياسة الفرنسية يبعدنا عن موضوع هذا البحث .

في سياق الاحتلال الفرنسي لفرنسة اللسان والفكر والشعور على الجبهة التعليمية والاجتماعية ينبغي ألا نسهو عن جسر آخر دشّنه المحتل على هذه الجبهة لا لمجرد التعليم فحسب ، بل للتوغل عبر وسائط في حياة الجزائريين ، وهو ما يمثله مشروع المدارس الفرنسية الإسلامية الثلاث ذات الطابع

التخصصي، التي أنشئت بمرسوم صادر في (٣٠/٩/١٨٥٠ م) ، تنحصر مهمتها في إعداد موظفين في الشؤون الدينية والقضائية والإدارية ، يصير المتخرجون منها همزة الوصل بين المحتلين والمواطنين ، ينوبون عن المحتل بإدارة شؤون المواطنين في المنازعات القضائية والدينية .

وقد وزعت هذه المدارس على ثلاث جهات من الوطن ، الأولى في غربه ، ومقرها مدينة تلمسان ، والثانية في وسطه ، بمدينة المدية ، ثم نقل مقرها إلى العاصمة سنة (١٩٥٨ م) بعد تسع سنوات ، أما الثالثة ففي شرق الوطن ، بمدينة قسنطينة ، وفي هذه الأخيرة نفسها درس مالك بن نبي (١٩٠٧ - ١٩٧٣) ومنها تخرج مشروع وطني بفضل بعض أساتذته المسلمين العرب الجزائريين فيها ، واحتكاكه بالمحيط الباديسي في العشرينات ، فمن أساتذة هذه المدارس من كان يجنح في دروسه إلى وطنه لا إلى الاحتلال ، بمناخ المادة التدريسية الدينية والقضائية واللغوية فيها ، فكاد في مثل هذه المدارس أن ينقلب السحر على الساحر ، وهي تخرج من حين إلى آخر وطنيا لا عميلا للاستعمار .

فبينما كان الاستعمار يحسب أنه يكون رجالا يخدمونه بين مواطنيهم أدرك أنه نفخ روح العداء بسياسته في بعضهم : طلبة وأساتذة ممن ليس فيهم قابلية للاستعمار ، عدم القابلية للاستعمار مع التمييز العنصري هي التي حرمت (ابن نبي) نفسه من فرص العمل بعد التخرج من مدرسة قسنطينة ، ليس في القضاء فحسب ، بل في أشغال الطرق ، كما حالت دونه ودون النجاح في مسابقة إلى مدرسة اللغات الشرقية في باريس حين ذهب هنالك ، ولم تجد محاولته لتكرار تجربة الامتحان ، فأبلغه مديرها «بعدم الجدوى في الإصرار على الدخول إلى معهده ، فكان الموقف يجلي لنظري بكل وضوح هذه الحقيقة . إن الدخول لمعهد الدراسات الشرقية لا يخضع بالنسبة لمسلم جزائري لمقياس علمي ، وإنما لمقياس سياسي ، ونزلت كلمات المدير على طموحي نزول سكين المقصلة ، على عنق المعدوم ، فكان هذا الفصل الأول من مأساة خيبة الأمل ، وعدم جدوى العمل وحدى ، وفي ذلك اليوم لم يتحطم فقط أملي ، بل شعرت أن حلم والدي ووالدتي قد تحطم أيضا على صخرة الإرادة المقررة في خفاء الدوائر التي تسهر على المصالح الاستعمارية العليا .

لقد أدركت في تلك اللحظة نفسها ما سيتبع عبارات المدير من نتائج عملية ، دون أن أحللها ، إذ لم أكن بعد قد اكتسبت خبرة هذا التحليل ، الذي يريني اليوم بكل وضوح درجة القرابة بين هذه العبارات وما قاله لي قبل سنة مدير شؤون الطرق بمدينة تبسة ، عندما سألته عن شروط المساهمة في المزايدة التي تجري كل سنة تحت إشرافه لتصليح الطرق ، أو لفتح طرقات جديدة في الناحية ، وقد اهتممت حينئذ باستغلال وسيلة نقل كانت لدي أستطيع بها نقل مواد الطرق من أحجار وغيرها .

ولكن عوض أن يدلي لي بالمعلومات المطلوبة ، أدلى إليّ سيادته بنصيحة :

- ألا تبع ماعندك من وسائل نقل إلى مسيو كانبون أو مسيو سبيتري ، فإن المزايدة بين أيديهما .

واليوم بعد أربعين سنة ، أرى بكل وضوح أن الرجلين ، المدير المتواضع لشؤون الطرق بتبسة ، والمدير المحترم لمعهد الدراسات الشرقية ، إنما كانا يتكلمان بلغة واحدة - لغة الاستعمار - فهذا حرمني من أن أصبح مقاولا في مصلحة الطرق ، وذلك حرمني من فتح مكتب محاماه بتبسة بعد سنوات الدراسة بباريس ».(١٠)

فشل الهدف الاستعماري من (ابن نبي) حرمه فرصة الدراسة للتخرج محاميا كما حرمه قبل ذلك بقليل من العمل مقاولا في أشغال الطرق ، قرب مدينته (تبسة) في الشرق الجزائري ، فانتهى آخر المطاف إلى مدرسة اللاسلكي في باريس ليتخرج مهندسا ، حيث انفتح له عالم الصراع الحضاري ، وهذا موضوع آخر يبعدنا عن سياق موضوعنا الذي هو الاحتلال الفرنسي على الجبهة التعليمية والدينية ، ونتائجه فيها ، كما سنعرض لها لاحقا .

وإن تكلمت قليلا في الجانب التعليمي الخالص كملامح من وجوه المعركة، فإن الجانب (التنصيري) ملمح قوي على هذه الجبهة ، حيث بدأ الاستعمار اختراقاته في صفوف شعب كان آمنا مطمئنا على لغته وعقيدته وقيمه ، فبكر بالضربات الموجعة في الصميم ، وهو يصادر أوقاف المسلمين، ويحوّل المساجد إلى (اصطبلات) و (كنائس) ويغلق المدارس الأهلية والكتاتيب القرآنية ويدمر زوايا لم تنصع لسياسته ، فكانت المواجهة بين (الفعل) الاحتلالي ورد

(الفعل) الوطني على الاحتلال الفرنسي الساعي للتمكين لثقافته وروحها المسيحية بالجزائر ، فكانت المؤسسات الدينية المسيحية ذات أهداف استعمارية بدورها ، بدأت تنتشر بقوة السلاح ، وبالاغراء لضعفاء النفوس ، فركز المحتلون على مناطق معينة ، وقد شهدت سنة (١٨٧٨ م)الانطلاقة القوية لتأسيس المدارس المسيحية ، بإشراف رجال دين مسيحيين وتسييرهم فمضت تكمل مهام المدارس الرسمية ، تمكينا للاحتلال والحضارة الأوربية ، ففتحت «أبوابها للتلاميذ المسلمين في بعض المناطق الجزائرية ، كالقبائل الكبرى ، حيث سجل فيها ٢١ مدرسة مسيرة من طرف الآباء البيض ، يدرس فيها (١٠٣٩) تلميذا ، والبيض ، وأولاد سيدي الشيخ ، وورقلة قصد التمسيح ، وتجريد بعض النواحي من ثوب العربية والدين » .(١١)

وقد انطلقت جهود (الآباء البيض) أي (رجال الدين المسيحي) جنبا إلى جنب مع جنرالات الجيش الفرنسي ، ومن (رجال الدين أولئك) من كانوا ضباطا ، ومنهم من بقوا ضباطا سريين ، في الأديرة والكنائس ، وخارجها ، لتنصير (الجزائر) العربية المسلمة ، ومسخ ثقافتها ، عبر استدراج ذوي النفوس الضعيفة ، والإيمان المهتز ، بل بكر بهدوء رجال (النصرانية) لأن تكون (الجزائر) قاعدة قوية واسعة للتنصير ، ففيها تأسست واحدة من أخطر جمعيات (التبشير) أو (التنصير) في العالم ، بعبارة أوضح وأدق ، حين أسس أسقف الجزائر (الكاردينال لا فيجري) جمعية من الكهنة سنة (١٨٦٨م) التي سرعان ماصارت لها معاهد عديدة، وبرامج ضخمة للانتشار في إفريقيا كلها .

وعمل (الكاردينال لا فيجري) في مواجهة العربية والإسلام يتكامل مع جهود الجنرالات العتاة في جيش الاحتلال ، فخلد الاستعمار ذكرهم بعد وفاتهم بإطلاق أسمائهم جميعا على مدن ، وقرى ، وأحياء ، وشوارع اعترافا بفضلهم في التمكين للفرنسية ، ودورهم التنصيري ، ولا يزال اسم (لافيجري) يتردد كعلَم فـي (الحراش) حيث حمل أحد الأحياء اسمه ، ولم يمحه تماما على الألسنة الاسم الجديد بعد الاستقلال (المحمدية) خصوصا من على شفاه ، في أصحابها قابلية للاستعمار .

جبهة (التنصير) لم تكن في جوهرها إذن مفصولة عن جبهة السياسة

التعليمية ككل ، فتعليم (الفرنسية) كان بالضرورة ينمي الميول المسيحية التي آتت أكلها ، خصوصا في بعض المدن والقرى ، بما كان يسمى (القبائل الكبرى) مثل (عين الحمام) التي كانت تسمى (ميشلي) و (تادمايت) وغيرها ، والصحوة فيها بعد الاستقلال بطيئة تعاني لعدة عوامل .

الجبهة التعليمية الاستعمارية في (الجزائر) توجت بصرح مهم ، هو (جامعة الجزائر) سنة (١٩٠٨ م) لكنها القلعة الحصينة التي لا يصلها الجزائري إلا بعد مروره في (غرابيل) عديدة ، في كل المراحل السابقة ، حيث لا تتاح الفرصة فيها إلا لمن بات مضمونا في (حجر الاستعمار) يجري في دمائه حب (فرنسا) .

ومن هذه الجامعة شرع يتخرج صناع محنتنا بالأمس ، تاركين خلفا لهم حتى اليوم ، ومنهم من انسلخ عن كل تاريخ وطنه ، فأنكر أن تكون (الجزائر) قد عرفت شكل الدولة في أية مرحلة : عربية إسلامية أو سواها ، كما أنكر وجود أمة جزائرية ، فزعم أنه فتش حتى في (المقابر) فلم يهتد إلى أن (الجزائر) كانت دولة أو أمة ، فلا مستقبل لها إذن بهذا المنطق إلا بالارتماء في أحضان السيادة الفرنسية ، والانتماء الفرنسي لغة أساسا ، وحياة سياسية واجتماعية وإدارية ، وسواها .

هذا الجيل هو جيل (فرحات عباس) صاحب الرأي السابق في الثلاثينيات ، و (ابن جلول) تاركا خلفا اليوم هو في حالة احتضار ، من أمثال (رضا مالك) و (مصطفى الأشرف) ثم تلاميذهم من أمثال (صادي) الساهرين اليوم على تنفيذ إرادة المحتل الفرنسي بالأمس ، في صنع معاناة (الجزائر) : وطنا وشعبا أعزل من الرأي ، مجردا من أداة التغيير الحقيقي : تغييرا سلميا ، يؤمن به بعد رحيل الاحتلال الفرنسي ، هم الخلف حقيقة لبئس السلف ، الذين ينتشلون اليوم من (مزابل التاريخ) الدعاوى الاستعمارية العاملة لتفتيت أمة إلى أعراق ، ذات لغات متعددة ، تبعدها عن فضائها الحضاري الشرقي المغاربي .

هذا يعني أنه رغم الجهود الوطنية في الصمود على الجبهة التعليمية ، فإن الاحتلال الفرنسي قد حقق بعض النجاح المذكور إبان وجوده حتى يوم رحيله المادي في (١٩٦٢ م) في صنع أشباه رجال يخدمونه ، لكنه حقق

نجاحاً أعظم غير منتظر بعد رحيله ، بفضل رجاله هؤلاء ، وقد سهر سياسيا واستعماريا قبل رحيله على خطة توزيعهم ، وإسناد الأدوار لهم ، وزرعهم في الأجهزة الإدارية الجزائرية المختلفة ، في كل السلالم ، حتى حول (رئيس الجمهورية) نفسه ، ليعدُّوا على نار هادئة بروية تامة ، وعلى مراحل مدروسة : معاناة (الجزائر) وتحريف نهجها ، وإجهاض مشاريعها الوطنية التي تتقرر على مكتب (رئيس الجمهورية) أو في (الميثاق الوطني) وفي (المجلس الوطني الشعبي) وفي (الدساتير) الأربعة المتلاحقة بسرعة غريبة مذهلة (١٩٦٣ ، ١٩٧٦ ، ١٩٨٩ ، ١٩٩٦) مما يوحي بشيء من الارتجالية ، ومحاولة (التلاعب) بقضايا الأمة ، وحاضرها ومستقبلها .

فكانوا خلفا مثل السلف اللوبي الطاغي ، الفاعل في صناعة محنة (الجزائر) كصناعة فرنسية ، مع حرص أيضا على الاستغلال التام لرعونة محسوبين على الإسلام ، في معسكر آخر ، انحرف بالاسلام عن منهجه القويم: في الخطاب ، ومنهج الحياة ، وأسلوب الحكم بشريعة الله العادلة السمحة : فضاء نماء وازدهار مادي وروحي ، لا ضيم فيه ولا إذلال .

ثانياً : تيار الولاء للاحتلال الفرنسي :

هذا التيار هو خلاصة جهود الاحتلال في شراء الذمم، وتحييد المواقف، كما في عملية الصهر في الفكر الإيديولوجي الاستعماري ، والثقافة الفرنسية شكلا وروحا . يمكن أن نصنف هذا التيار في ثلاثة أجنحة ، أسهمت بنسب مختلفة في التمكين للاحتلال الفرنسي ، بعدما اصطنعها اصطناعا، أو روضها، أو كونها في مؤسساته التعليمية ، فتشبثت به ، لتشبعها بثقافته ، أو طمعا في إنعامه ، وهو الطمع الذي لم يبرح النوازع الشخصية ، إشباعا للأهواء الخاصة للأفراد ، وطموحاتهم السياسية ، والاجتماعية ، حبا في الوجاهة ، وما يترتب عنها من مغانم جمة ، في كنف السيادة الفرنسية ، فكان لهذا التيار إسهامه التدميري ، سواء بمشايعته المعلنة أو المستترة للاحتلال ، أو في صمته على الأذى يلحق لغة الأمة نفسها وعقيدتها .

١ - أول أجنحة هذا التيار تاريخا ونشاطا : النخبة التقليدية ، بموقعها في زمانها ، وثقافتها الدينية التقليدية الجامدة ، سقط هذا التيار مبكرا في أحضان الاحتلال ، مسالما ، ومشايعا ، بل خادما لسيده بالدعاية

للاحتلال بين المواطنين ، وقد استدرج الاستعمار هذه الفئة الخالية من الوازع الوطني ، بمضمونه السياسي ، وكذا الشعور بالصراع بين (غرب) محتل متعجرف ، وعالم إسلامي مستهدف ، بكر الاحتلال باسناد المناصب الدينية لها ، كمادعم ذوي تلك المناصب في مواقعهم لخدمته ، وهو جناح يتكون من رجال بعض الزوايا ، والأعيان ، وأشباه الفقهاء ، ممن أنابهم الاحتلال عنه ، فشرع ينظم لهم الرحلات الموسمية والمناسباتية إلى (فرنسا) عموما ، و(بايس) خصوصا ، وربما أقدم على تسريب الفتيات الفرنسيات زوجات لبعض ، مؤثرات وجاسوسات ، حتى لرجال الزوايا ، كحال شيخ الزاوية (التيجانية) .

من رجال هذا الجناح في المرحلة المبكرة القاضي الشيخ الشاذلي القسنطيني (١٨٠٧ - ١٨٧٧ م) و (سليمان بن صيام) صاحب (الرحلة الصيامية) إلى (باريس) سنة (١٨٥٢) و (أحمد بن فاد) صاحب (الرحلة الفادية في مدح فرنسا وتبصير أهل البادية) سنة (١٨٧٨ م) وقد تمت الرحلتان ، كما تمت رحلة (الشاذلي القسنطيني) غير المدونة على حساب الإدارة العسكرية الفرنسية ، وقد تخدر الأخيران بحب فرنسا بجنون ، وقد طبع هذا الموقف في هذا الجناح الهيام بفرنسا ، وسياستها ، مع التطلع لإلحاق (الجزائر) بها في كل شيء ، بما في ذلك مظاهر الحياة المادية نفسها ، لم يتخلف فيه بعض أئمة المساجد الكبرى ، ممن ماتت ضمائرهم الدينية ، وإلى هذا الجناح نفسه ينتمي (القياد) و (الباشاغاوات) فضلا عن بعض رجال (الزوايا) الدينية التي تحولت (أي البعض) من بوتقة النضال ، وشحن الروح الوطنية بطاقتي : (اللغة) و (الدين) إلى بؤر للتخدير ، والتشويه للدين ، مسالمة للاستعمار ، معتبرة إياه (قضاء وقدرا) فتحولت المعارف الدينية نفسها إلى أقوال مجترة بالية ، والشعائر إلى طقوس لا روح فيها ، حتى تدريس اللغة العربية والفقه الإسلامي وبعض التفسير السطحي في هذه (الزوايا) المحدودة خضع للتجريد والتشويه فباتت الشروح شقشقة لفظية ، والتفسير نفسه تهويمات تجرد كلمة (الجهاد) نفسها من مدلولها الشرعي ، حتى تصريف فعل (جاهد) أو (ناضل) نفسه : لم يعد له معناه الذي وضع له ، فحرّفت دلالته للصبر وحده المأجور عليه ، والمكابدة التي جزاؤها الجنة ، أما تدريس التاريخ فقد بات من المحرمات القطعية ، بمضمونه وأبعاده .

نعم هذا الجناح بهبات المناصب ، و (الوجاهة) و (العقارات) حتى تحول الاحتلال نفسه ممونا لبعض (الزوايا) بالمال ، وبالحبوب ، فصار بعضها مراكز لاستقبال ضباط الاحتلال ، فتتحول ساحاتها تبعا لذلك إلى ميادين للاستعراض ، والموسيقى العسكرية ، حول مساجد الزوايا التي صار يدخلها الفرنسيون (النجسون) سواحا وضباطا وحكاما بأحذيتهم الملوثة على بساط (مميز) لتأمل أشكال من (العمارة الإسلامية) في (المغرب العربي) .

هذه الفئة كان لها أذاها ذو الحسبان ، في فتور الوعي الوطني ، والتراجع في مقاومة الاحتلال ، فقد أفتى البعض بقبول (الاحتلال) كقدر، فتجند (القياد) و (الباشاغاوات) إلى جانب الاحتلال ، كما وقف البعض مبكرا في وجه الجهاد الجزائري ، بما فيه جهاد (الأمير عبد القادر الجزائري : ١٨٠٧ - ١٨٨٣ م) الذي وجد له في الزواية (التيجانية) بعين ماضي (الأغواط) خصما مناوئا ، لكنها فئة ماتت موتا بطيئا في النهاية ، وصمتت إلى الأبد ثم اندثرت أثرا وتأثيرا .

٢ - **الجناح الثاني أو الفئة الثانية** : من تيار الولاء للاحتلال هي تلك التي أخذت من الثقافة العربية حظا معتبرا ، منذ أواخر القرن التاسع عشر، ومن الثقافة الفرنسية حظا يختلف باختلاف الأشخاص ، وهي فئة شرع يتوددلها الاستعمار لتلتزم (الحياد) على مستوى التعبير والسلوك على الأقل ، فأتاح لها فرص النشر للتراث القديم ، ضمن السياسة الفرنسية المتبعة مع أواخر القرن التاسع عشر ، ومطلع القرن العشرين ، ومن هذه الفئة أعلام ، إن لم يخدموا الاحتلال علنا ، فقد خدموه بصمتهم ، ومنهم الشيخ عبد القادر المجاوي (١٨٤٨ - ١٩١٤) ومحمد أبو القاسم الحفناوي (١٨٥٢ - ١٩٤٢) لكن خير من يمثل هذه الفئة كعلم بارز على المستوى العربي والعالمي : محمد بن أبي شنب (١٨٦٩ - ١٩٢٩) الذي « ألف بالعربية والفرنسية ، وأنجز مجموعة كبيرة من البحوث والدراسات ، كما حقق آثار أدبية من أهمها أو أهمها رحلة الورتلاني (نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار) التي حققها وكتب تقديما لها ، وقد نشرتها مطبعة (بيير فونتانه) بالجزائر ، سنة (١٣٢٦ هـ - ١٩٠٨ م) التي شرعت تقوم بدور ذي أهمية في طبع التراث بمؤازرة من (جونار) تطبيقا لسياسته الثقافية »[١٢] ، التي جاء بها كحاكم

عام في الجزائر (١٩٠٣ - ١٩١١) تقربا للأهالي، بالمساعدة على إحياء تراثهم التقليدي الحيادي بطبيعة الحال.

وقد قام (ابن أبي شنب) بنشاط معتبر ، بفضل تكوينه العالي ، المتين جدا بالعربية والفرنسية ، فضلا عن اللغتين التركية والفارسية .

هذه الفئة تجد امتدادا لها في أبناء المدارس الثلاث (العربية الإسلامية) لكن من رجال هذه المدارس (الأساتذة) من بدأ يعود إليه وعيه ، ومنهم من (غم عليه) ولم يعد يدري ماذا عساه يفعل ، كحال الشيخ (ابن سماية) الذي انتهى حاله إلى مقدمات منذرة بأمراض نفسية عاصفة ، وهو مابدا عليه حتى في صحبة الشيخ محمد عبده (١٢٦٦ -١٧٢٣ هـ / ١٨٤٩- ١٩٠٥م) حين زار الجزائر غارقا في شكه من صواب عمله، في كنف الاحتلال ، بل من صواب زيارة (محمد عبده) للجزائر سنة - ١٩٠٤ - التي ربما بدت له زيارة عمالة للاستعمار الفرنسي [*]، الذي كانت تكاليف الدعوة على حسابه، بما فيها الزيارات (الدينية) و (السياحية) ليخدم جميعها الاحتلال ، فتقدم هذا الاحتلال في صورة (الملاك) الذي نزل هينا لينا لخدمة الشعب الجزائري العربي المسلم ، في لغته ، ودينه .

من بعض أساتذة (المدارس الثلاث) شرعت تسري روح وطنية هادئة تشربها الشباب المسلم العربي الجزائري ، خصوصا وهو يدرك من أحداث الحرب العالمية الأولى سياسة الاحتلال الفرنسي العنصرية ، واضطهاده الأمة في أرضها ، وهوانه أمام الأقوياء غيرها ، ولعل من خير من كان يمثل هذا الشباب يومئذ (مالك بن نبي) الذي شرع فؤاده منذ سنته الدراسية الأولى (١٩٢١ - ١٩٢٢) في مدرسة (قسنطينة) يمور بأحاسيس وطنية ، كشأن بعض زملائه المدرسيين ، « ولا سيما عندما أصبح الاحتكاك بين المدرسيين وبعض تلاميذ الشيخ ابن باديس أوثق في قهوة ابن يمينة .. وعلى بعد خطوات من هناك كان مكتب الشيخ عبد الحميد بن باديس .. يستقبل فيه أصدقاءه وتلاميذه ، ويوجه في صورة شركة أسهم الإدارة الصغيرة لمجلة الشهاب التي ظهرت منذ قليل بعد زوال (المنتقد) التي لم تظهر إلا مدة قصيرة ، هي الأمد الذي استغرقته إدارة العمالة في إنشاء مرسوم منعها » [(١٣)] .

هذا المناخ في العشرينيات بعد الحرب العالمية الأولى شرع يصنعه شيء

من الحس الوطني في الحركة الوطنية عموما ، والحركة الإصلاحية التي سرعان ما اشتبكت مع كل الفرق الموالية للاستعمار ، من رجال (الزوايا) الطرقيين و (أشباه علماء الدين) و (الاندماجيين) الصاعدين منذئذ ، وهذه هي النقطة الثالثة .

٣ - **الجناح الثالث** : الأكثر خطرا ، يتمثل في فئة (الاندماجيين) التي كانت وبالا حقا على (الجزائر) بدعوتها ومواقفها ، وقد بدأت ملامحها في البروز مع مطلع القرن العشرين ، وهي الفئة ذات التكوين الفرنسي ، والحياة الاجتماعية الفرنسية ، لغة وفكرا وثقافة عموما ، بدأت التعبير عن نفسها عبر جماعة « الشبان الجزائريين » سنة (١٩١١) التي انحصر طموحها في المساواة بينها وبين الفرنسيين القاطنين أي المقيمين بالجزائر ، مستغلة في ذلك انتماءها الثقافي للغرب ، وولاءها الأيديولوجي له ، ومتكئة أيضا على القوانين الفرنسية ، القائمة واللاحقة ، وفي مقدمتها قانون التجنيد الإجباري أي الخدمة العسكرية في الجيش الفرنسي ، وهو القانون الذي زج بمقتضاه بعشرات الآلاف من الشباب في أتُّون الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ - ١٩١٩) والثانية (١٩٣٩ - ١٩٤٥) وقد رعت (فرنسا) كثيرا مشاعر هذا التيار ، وقربته ، واستجابت لدعاواه ، ومراعاة طموحه فيما يعزز مكانة (فرنسا) في (الجزائر) فسنت القوانين التي تسمح للجزائري بامتلاك الجنسية الفرنسية الفعلية في (١٩١٩) مع شرط التخلي عن شخصيته الدينية (الإسلامية) فاستغل ضعفاء العقيدة قانون الأهالي (les indigene) وهم الثلاثي المتآلف المتكامل : الفرانكفوني الخالص ، والشيوعي التابع ، ودعيّ (النزعة البربرية) وكلها تكون (مادة واحدة) في التيار (الإندماجي) المتشبث بفرنسا : سياسة ولغة وانتماء ، طمعا في مكاسب تخص هذه التركيبة من المجتمع ، المتكونة أساسا من ضباط متقاعدين ، وإداريين ومعلمين وأطباء، وصيادلة ومحامين ، أعِدُّوا إعدادا (أهلهم) للتعلق بفرنسا وحضارتها ، وإدارة الظهر للجزائر المنتمية لمجال آخر عاملين لتدميرها خارج الانصياع لإرادة الاحتلال ، فرأوا أن (الاندماج) في المجتمع الفرنسي مكسب ينبغي الظفر به، فوصل بهم الذوبان في (فرنسا) والجهل بتاريخ (الجزائر) وضعف إيمانهم بها كوطن فيه أمة ذات تاريخ أن قال أحدهم أنه بحث حتى في «المقابر» فلم يجد

ما يدل على ذلك .

وهو موقف يختصر رؤية هذا التيار ، وينسجم مع تكوينه الثقافي ، فقد تربّى في أحضان المؤسسة التعليمية الفرنسية : قلبا وقالبا ، حتى التعليم الجامعي ، فاللغة الفرنسية باتت لغة ثقافة وفكر ، وليست لغة وظيفية فحسب، والقيم والعدادت والتقاليد صارت فرنسية أيضا ، حتى الزوجات في هذا التيار فرنسيات أو متفرنسات ، فصار الولاء أكبر لوطن الأصهار ، وأخوال الأبناء من الولاء للجزائر التي لم تعد سوى رقعة يوجد عليها تيار غريب عن محيطه الجزائرى (الإسلامي العربي) رغم مظاهر تلك العلاقة الشكلية التي تحمل في سماتها ملامح الصراع ، حتى في الأشياء الصغيرة التي جعلت الطفل (صالحا) نفسه محل صراع بين أبيه الجزائري نسبا (الدكتور سعدان) من أقطاب هذا التيار الذي يسميه (صالحا) وبين أمه الفرنسية التي تسميه (موريس) فضاع الطفل ، بين (سعدان) و (فرانسواز) فلا هو (صالح) ولا هو (موريس) في هويته ، فكان ذلك موضع تندر سجله الشعر الجزائري في تلك المرحلة سخرية من مظاهر المسخ التي انتهى إليها هذا التيار ، فقال الشاعر (الأمين العمودي) عن الطفل :

حيّ الطبيب ولا تنسى قرينته ... هو سليمان و (المادام) بلقيس
لـه غـلام أطـال اللـه مدتـه ... تنازع العُرْبُ فيه والفرنسيس
لا تعذلـوه إذا ما خـان أمتـه ... فنصفه صالح والنصف موريس

ومن أهم أقطاب هذا التيار (الدكتور ابن جلول) و (فرحات عباس) الذي عدل عن مواقفه الخاصة ببحوثه في (المقابر) بفضل علاقته بالشيخ (عبد الحميد بن باديس) والحملة الفكرية التي خاضها رجال الفكر الوطني الإصلاحي العرب في وجه هذا التيار ، وهي الحملة التي كانت لها بعض الثمار الطيبة في حماية المجتمع الجزائري الذي أدرك مبكرا ما يحاول هذا التيار بتشجيع فرنسي : أن يجره إليه من التخلي عن هويته الثقافية الإسلامية العربية التي صمد دفاعا عنها نحو ثلاثة عشر قرنا ، كي يحقق (الاندماجيون) مطامحهم ومطامعهم الخاصة التي تسمح لهم بالتوغل في المجتمع الفرنسي ، متذرعين لذلك بما حازه (اليهود) في (الجزائر) من مكاسب سياسية واقتصادية واجتماعية بعد حصولهم على الجنسية الفرنسية، معبرين بذلك عن

جهل فظيع بالفروق الكبيرة جدا بين (الجزائري) و (اليهودي) في النظرة الفرنسية ، بل الجهل المركب بالعلاقة الحميمة بين الاحتلال الفرنسي واليهود الذين خدموا الاحتلال الفرنسي فغدروا بالجزائر سنة (١٨٣٠) التي حمتهم ورعتهم قبلا ، فانقلبوا عليها حين فتحوا الأبواب لجيوش الاحتلال وهي تقتحم الحصون ، فساعدوه وأرشدوه ، ثم تعاونوا معه للنيل من (الجزائر) والجزائريين، تشفيا في أمة احترمتهم وآوتهم ، بل مكنت لهم سياسيا واقتصاديا ، لكن من دون أن تسمح لهم بالتجاوزات التي تتعارض وتقاليد أغلبية من أمة عربية إسلامية ، سمحت لهم بالعيش معها آمنين مطمئنين .(١٤)

ثالثاً : التيار الوطني :

نما التيار الوطني في المواجهة ، في هذا المناخ ، كمناهض للاحتلال الفرنسي ، بكل وجوهه العسكرية ، والسياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية ، هو التيار الذي عبر عن نفسه منذ اليوم الأول الذي سقطت فيه السلطة العثمانية الحاكمة في (الجزائر) وتموقع بكل شرائحه ، منوعا في أدوات المواجهة وأشكالها التي كللت بثورة التحرير الكبرى (١٩٥٤- ١٩٦٢) التي افتكت الاستقلال بقوة السلاح ، وليس بالخطب الرنانة و (العربدة) في (صالونات السياسة) بالقاهرة ، وجنيف ، ونيويورك ، وتونس ، ومدريد .

هذا التيار والوطني ذو أجنحة مختلفة تارة ، ومتكاملة أحيانا من أهمها الجناح العسكري المطعم بالجانب الفكري ، ثم الجناح الفكري بعد الجبهة التعليمية .

- الجناح العسكري :

مثل الجناح (العسكري) منذ البدء (الأمير عبد القادر الجزائري) الذي خاض الجهاد جنديا في صفوف المجاهدين ، بقيادة أبيه الشيخ (محيي الدين) منذ وطئت أقدام الاحتلال (الجزئر) ثم بويع بالإمارة بيعة عامة (سنة ١٨٣٢) في مسجد (معسكر) بالغرب الجزائري بعد اعتذار أبيه وترشيحه له لقيادة الجهاد ، وقد التحق به علم فكري سياسي هو (قدور بن رويلة) المتوفى سنة (١٢٧٢ هـ / ١٨٥٥ م) الذي غادر عاصمة (الجزائر) نحو (معسكر) اقتناعا منه بعدم جواز الإقامة تحت حكم (الكفار) فكان كاتب الأمير عبد

القادر وساعده الذي صاغ القانون الأساسي التنظيمي للجيش الجزائري المجاهد تحت قيادة الأمير ، وهي القيادة التي استماتت حتى سنة (١٨٤٧) لظروف محلية ودولية انتهت بالأمير إلى طريق مسدود ، جعلت ثقته تتلاشى في قومه، وتهتز في أبناء أمته العربية والإسلامية . إلى جانبه في شرق (الوطن) قاد (الجهاد) الوطني (أحمد باي) حتى خذلته الظروف والإمكانيات بدوره ، لكن فشل ثورة (أحمد باي) واستسلام (الأمير) لم يكن نهاية (المقاومة) ، حيث بقيت كل منطقة تجتهد في خوض الحرب في مواجهة الاحتلال بروح دينية عالية ، فكانت ثورة (المقراني وبلحداد) (١٨٧١) وسط البلاد ، ثم ثورة الشيخ (بو عمامة) سنة (١٨٨١) وغيرها .

والملاحظ هنا أن معظم هذه الثورات قادها علماء دين ، ورجال زوايا ، فوالد (الأمير) شيخ زاوية ، وكذلك الحال بالنسبة للشيخ (المقراني) و (بلحداد) مما يؤكد أن (الزوايا) كانت بوتقة نضال جهادي أربكت جهود الاحتلال في (الفرنسة) و (التنصير) فسلط عليها آلته العسكرية فدمر نهائيا بعضها ، واضطر بعضها للمهادنة ملتزما الصمت مكتفيا بتحفيظ القرآن وتعليم العربية ، مع حرص على تجريد ذلك من الروح الجهادية فيهما معا، كما سقطت (زوايا) أخرى في أحضان الاحتلال ، مع اختلاف في مستويات هذا السقوط ، وحسب المستوى يكون (الإنعام) عليها من إدارة الاحتلال الفرنسي بأشكال مختلفة من الهبات العينية والمالية ، وما يتبعها من امتيازات اجتماعية وسياسية نظير جهد هذه الزوايا بنفوذها الروحي لتطويع (المواطنين) للرضى بالاحتلال ، والكف عن مقاومة إرادته في الهيمنة التعليمية والدينية .

- **الجبهة التعليمية :**

في موازاة العمل العسكري كان التشبث قائما بالهوية ، ومستمرا في الاستمساك بالعربية والدين ، والدفاع عن حماها ، في الكتاتيب القرآنية وفي بعض (الزوايا) وقد عكست بعض الإحصائيات مقاومة التجهيل : حرفيا وفكريا ودينيا في مختلف (المعاقل) التي تحصنت بها العربية ، وصمدت فيها الروح الدينية ، مع استمرار الإقبال عليها بشغف على التعلم والتعليم في المؤسسات والمراكز الوطنية الحرة ، فقد احصيت الزوايا وحدها على أيام ثورتي

(المقـراني ١٨٧١) و (بو عـمـامـة ١٨٨١) بألفي زاوية (٢٠٠٠) في (الجزائر) يتلقى فيها التعليم أكثر من ثمانية وعشرين ألف تلميذ (٢٨٠٠٠) دروسهم ، ففي (قسنطينة) وحدها بالجهة الشرقية من الوطن بقيت حتى (١٨٧٣) تنتصب في وجه الاحتلال الفرنسي تسعون مدرسة ، يتلقى فيها التعليم أكثر من ألف وأربع مئة تلميذ (١٤٠٠) وهي ذات الكثافة السكانية المحدودة سنتئذ ، المقدرة بأربع وعشرين ألف نسمة (٢٤٠٠٠) كما أشارت إلى ذلك الاحصائيات الرسمية الفرنسية نفسها التي أكدت أن في نواحي (تلمسان) بالجهة الغربية من الوطن ، بقيت في السنة نفسها (١٨٧٣) نحو أربعين زاوية مرابطة لحماية الإسلام ولغة الضاد ، كما كانت تستميت بل تنتشر في العاصمة الجزائرية نفسها - بوسط البلاد - مئة ألف مؤسسة تعليمية (١٠٠٠٠٠) (لتعليم القراءة والكتابة والحساب) فضلا عن تحفيظ القرآن الكريم .

هذا الاعتصام بالإسلام دينا ولغته العربية لسانا في مواجهة البغي الاستعماري العسكري ، والثقافي والديني عكس حدة الصدام الحضاري بين حضارة (الإسلام) و حضارة (النصرانية) حيث بدت الجبهة التعليمية ، صمام أمان في المجتمع والأمة التي كانت تتعرض لأبشع احتلال وأعنف سياسة للمسخ الثقافي ، فكان ذلك ايذانا بخط الفصل الأول في (المشكلة الثقافية) بالجزائر ، فبينما تستميت القوى الوطنية في حماية الإسلام ولغته، كان عمل (جنرالات الجيش الفرنسي) وسياسييه يمضي جنبا إلى جنب مع جهود (رجال الدين المسيحي) لخلق مناخ غير إسلامي ، ولا عربي، لاستنبات (نماذج بشرية) ذات نسب جزائري ، وولاء فرنسي ، للنيل من القوى الوطنية ، من رجال (الجزائر) نسبا وولاء ، وعلماء دين فيها ، وقد تحول بعضهم إلى رجال سلاح ، يقارعون به جنرالات (فرنسا) ، وما أكثر هزائم (الجنرالات) أمام (علماء الدين) الميامين ، ورجال (الزوايا) المخلصين الذين كان اتباعهم يخوضون مع الشعب الجزائري المعركة على (الجبهة الثقافية) بفتح قنوات جديدة للإبقاء على وميض الحرف العربي ، وإشعاع العقيدة الإسلامية .

فكان لكلا المعسكرين أسلحته وإيديولوجيته وخططه وأساليبه في التعامل مع الواقع الثقافي ، بروحه الدينية ، وإطاره اللغوي . شرع الهجوم

الفرنسي يجري بأساليب مختلفة ، تتنوع ، وتتكيف حسب المرحلة والمعطيات لفرض الثقافة الفرنسية ، ليست كلغة وحضارة فحسب ، بل كحياة يومية وانتماء لمجال سياسي . كما مضى رد الفعل الوطني الذي إن لم يستطع حماية الوطن من السقوط في أيدي الاحتلال ، فقد سهر لتحصين الشعب من الهيمنة، ومده بعناصر (المناعة) التي تقاوم في مواقع ، وتتعرض للتلف في مواقع أخرى ، بمرور الزمن ، حتى بعد ترحيل الاحتلال الذي خلف وراءه من أحسن إعدادهم لينوبوه في الدفاع عن ثقافته وحضارته، بمضمونها (اللغوي والديني والسياسي) .

(فعل الاحتلال) وأتباعه و (رد الفعل الوطني) سرعان ما أنجب مشكلة ثقافية باتت اليوم ذات (ذيول) ورؤوس أفعوانية ، في جبهة الاحتلال ورجاله ، ومنفذا للاختراق أجاد الاستعمار إعداد العدة له ، منذ بادر (بتغييب) رجال الفكر والرأي الفاعلين عند الاحتلال فنفا بعضهم ، وأسكت للأبد من استطاع ، وصمد آخرون صمود الأبطال الميامين .

وهنا نكون قد وصلنا إلى الحديث عن (الجبهة الفكرية) في (المقاومة) عندما عزم الاستعمار على (الاختراق الثقافي) للاحتواء ، والتشويه تزامنا مع عملية (التهجير) لرجال الفكر الفاعلين ، وقمع غيرهم ، أو تغييبهم .

- الجبهة الفكرية :

على الجبهة الفكرية اندفع التيار الوطني في مواجهة سياسة الاحتلال التدميرية داعيا المجتمع الدولي والرأي العام الفرنسي نفسه لكبح جماح عساكر (بورمون) و (كلوزيل) ولاحقيهم ، وهي تبيد مدنا بأكملها ، وتستأصل عشائر عن بكرة أبيها فكان من أعلام هذا التيار الأوائل (محمد بن العنابي ١٧٧٥ - ١٨٥١) الذي دعا للتحديث في الجيوش الإسلامية لردع الاجتياح الأوربي في العالم الإسلامي ، فسجنه الجنرال (كلوزيل) القائد العام للجيوش الفرنسية ، ثم نفاه سنة (١٨٣١) فكانت وجهته (مصر) إبان حكم (محمد علي) .

ثم معاصره (حمدان خوجة ١٧٧٣ - ١٨٤٠) الذي توعد الفرنسيين بألا مستقبل لهم في (الجزائر) غير القابلة للاستعمار ، بتعبيره ؛ فكانت مادة كتابه (المرآة) في (تاريخ الجزائر) سنة (١٨٣٢) مقالات ولوائح :

صورة حية للمقاومة بالقلم والفكر ، وهو يشيد بأصالة (الجزائر) وتقاليدها العريقة في الحكم ، والسيادة ، وتماسك أبنائها بفضل لحمة العقيدة ، ولغة القرآن الجامعة ، مهيبا بالرأي العام الفرنسي للتدخل كي يتوقف جنرالات الجيوش الفرنسية عن ممارسة جرائمهم ، في الإبادة البشرية ، ومصادرة الأوقاف ، وتحويل المساجد إلى (اصطبلات) و (مخازن) و (كنائس) .

وقد تعرض بدوره للنفي فاختار وجهته (باريس) لمواصلة المقاومة بتحريض الرأي العام الفرنسي على حكامه ، وجنرالاته في (الجزائر) الذين باتوا يتاجرون بعظام الجزائريين القتلى في الحرب الإبادية ، وهم يصدرونها في بواخر إلى (مرسيليا) نفسها ، مقدما على ذلك أدلة وشهادات خبرة لأطباء وخبراء ، حددت حتى اسم (الباخرة) المحملة بعظام القتلى إلى ميناء (مرسيليا) بتاريخها ورقمها .

فكان (حمدان خوجة) صوتا قويا في جبهة المقاومة الفكرية ، لمكانته الاجتماعية في (الجزائر) وبلغته العربية القوية انتماء ، فضلا عن (الفرنسية) و (التركية) وظيفة ، ثم بثقافته العامة الجيدة ، وبثقافته القانونية خصوصا المدعومة بخبراته ، في التنقل عبر البلدان الأوربية قبل ذلك بنحو عشرين سنة .

والتزاما بالمبدإ أعد كتابه (المرآة) بالعربية ، للنشر في (باريس) وأسند الترجمة إلى الفرنسية لرفيقه في (الغربة) والهم القومي (حسونة دغيس) الليبي هناك .

هذه المواجهة الفكرية المبكرة تجد امتدادا لها في لاحق ، في كوكبة تابعت المهمة ، حتى (١٩٥٤) رغم الانكسارات الجمة في أواخر (القرن التاسع عشر) فكان من رجال الفكر والرأي الميامين أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين : المفكر الصحفي الشاعر (عمر بن قدور ١٨٨٦ - ١٩٢٩) «وهو من رواد الصحافة العربية في الجزائر عرف أكثر بجريدته الفاروق»[١٤] ، التي كان يضع لها (شعارا) هو بيت شعر له يقول :

قلمي لسان ثلاثة بفؤدي   ديني ووجداني وحب بلادي

لائحا باللائمة في مقالاته على الخلفاء العثمانيين الذين بتقاعسهم وسلبيتهم نوموا الأمة الإسلامية ، وضيعوا (الخلافة) وشأنها ، فقال :

أضيعت فضاع المجد منا ولم نكن   شدادا وقد هم القضاء لقاها

وتابع المهمة بعد جيل (عمر بن قدور) جيل جديد ، جيل (الحركة الوطنية الإصلاحية) مع مطلع العشرينيات ، ومنه (الطيب العقبي) و (توفيق المدني ١٨٨٩ - ١٩٨٣) و (محمد البشير الإبراهيمي ١٨٨٩ - ١٩٦٥) بقيادة (عبد الحميد بن باديس ١٨٨٩ - ١٩٤٠) الذي أعلنها (حملة) شعواء في وجه المحتلين والاندماجيين ، خصوصا في (ثلاثينيات القرن العشرين) وبلغ به العناد درجة في رفض إرادة الاحتلال جعلته يقول : «لو طلبت مني فرنسا أن أقول لا إله إلا الله ما قلتها » ، وهي إشارة في الوقت نفسه إلى فئة من (علماء الدين) أو أشباههم ممن دجنهم الاحتلال إلى جانب التيار (الفرانكفوني) المتلهف على (مساواة) شكلية للإهانة ، تجرد التيار من أقوى عنصر حدّد هوية (الجزائر) و (الجزائرى) وهو (الإسلام) عقيدة ، ومنهج حياة .

ويفعل نضال (ابن باديس) على المستوى الشخصي جعل بعض أعلام (الفرانكفونية) يعدلون عن آرائهم الخاصة بالخضوع للاستعمار - مساومة - نظير (الظفر) بالاندماج لعل أهمهم (فرحات عباس) الذي أدرك على يد (ابن باديس)أن (الجزائر) كانت ولا تزال أمة ، وهي ذات عراقة ، في بناء الدول ، منذ جاهليتها (النوميدية) ، وبعد اعتناقها (الإسلام) وهي تؤسس أول دولة إسلامية لا ظل فيها للعرقية ، دستورها (الإسلام) ولغتها (العربية) لغة القرآن ، هي (الدولة الرستمية) .

ولتأكيد أصالته كوجه متأخر للتيار الفكري الوطني أصر (ابن باديس) على التلميح لأصوله (البربرية) بتوقيعه مقالات عديدة باسم (الصنهاجي) ليؤكد أن (البربري) الأصيل السوي هو الذي اعتنق الإسلام، ودافع عن لغة القرآن ، فعمقا انتماءه الحضاري للشرق لا للغرب ، كما حمياه من قابلية التبعية والذوبان ، زحفا نحو (الاندماج) عبر قوانين الأهالي (les indigene) التي تبقي ابن الوطن في الدرجة الثالثة بعد الفرنسي واليهودي .

البعد السياسي يتبلور كخطاب في رد الفعل الوطني :

من رحم الجبهات النضالية السابقة تبلور البعد السياسي كخطاب مدو مهيكل صريح واضح ، في الحركة الوطنية إطارا ، فبكر هذا البعد بإعلان نفسه بعد نهاية الحرب العالمية الأولى من خلال حركة (الأمير خالد ١٨٧٥ -

١٩٣٦) الواضحة (١٩٢٠ - ١٩٢٢) موازاة بالحركة الفاعلة التي أنجبت (نجم شمال افريقيا) الحزب الذي أسسته جالية (المغرب العربي) في (فرنسا) فأعلنت ميلاده الرسمي في شهر (يونيو / جوان ١٩٢٦) بباريس ، ليضم كما ورد في قانونه الأساسي : « مسلمي المغرب والجزائر وتونس » وإن كان معظم أعضائه جزائريين ، فطالب لأول مرة في تاريخ الجزائر ، أثناء (مؤتمر بروكسل ١٩٢٧) باستقلال (الجزائر) فكانت انطلاقته حيوية جارفة ، ليعاني تسلط الإدارة (الفرنسية) فحلته ثلاث مرات (١٩٢٩ - ١٩٣٤ - ١٩٣٥) ليصبح بعد ذلك جزائريا خالصا باسم جديد ، بعدما أسس الإخوة في (المغرب) حزب (العمل المغربي) وفي (تونس) : (الحزب الحر الدستوري) فكان الاسم الجديد للحزب الجزائري (حزب الشعب الجزائري PPA) الذي أعلن (الجزائريون) تأسيسه في (مارس ١٩٣٦) بضاحية (نانتير) غرب (باريس) طبعا مع فروعه في (الجزائر) فكان من المدارس التي شع فيها الوعي الوطني السياسي ، والبوتقة التي انصهرت فيها النفوس ، فأفرزت الخبيث المدخول النيات والطيب الطاهر السرائر ، ومن هذا الطيب : اندفعت عناصر من جيل ما بعد الحرب العالمية الثانية خصوصا (١٩٣٩ - ١٩٤٥) لإعلان ثورة أول نوفمبر (١٩٥٤) بعد نبذ المتصارعين في حلبة الصراعات الحزبية الشخصية التي غرق فيها الحزب نفسه في نهاية أمره ، ليتلاشى مع (١٩٥٤) نهائيا .

كان (حزب الشعب الجزائري) العمود الفقري السياسي للحركة الوطنية، أما روحها فهي الطرف الآخر (جمعية العلماء المسلمين الجزائريين) التي تأسست رسميا في عاصمة (الجزائر) يوم (١٩٣١/٥/٥) فكان التأسيس الرسمي تتويجا لنضال رجالها الذي شرع يتسع بتميز منذ (١٩٢٠) بالمحاضرات والدروس المسجدية ، وبالتعليم الحر ، وبالصحافة العربية نفسها ، وفي مقدمتها الصحيفتان اللتان أنشأهما (عبد الحميد بن باديس) وهما (المنتقد) في (١٩٢٤) و (الشهاب) في (١٩٢٥) .

جاء إنشاء الجمعية ردا على الاستفزاز الاستعماري الذي مارسته (فرنسا) خلال سنة كاملة باحتفالاتها الصاخبة ، بمناسبة مرور قرن كامل على احتلالها الجزائر (١٨٣٠ - ١٩٣٠) ، وكان الرد هادئا كما عكسته لغة (القانون الأساسي) للجمعية ، بأنها جمعية دينية مسالمة ، لمحاربة (الآفات

الاجتماعية) التي تنضوي تحتها ضمنيا محاربة الروح الاستسلامية للاحتلال ، والتعريض بعملائه ، ونشر اللغة العربية والثقافة الإسلامية الصحيحة الخالية من الشوائب التي ألصقها بها الدجالون ، من أدعياء الدين، من (رجال الزوايا) والأئمة الموظفين لدى الاحتلال وأمثالهم.

فأنجزت هذه الجمعية مئات المدارس في أرجاء الوطن كله ، كما أنشأت جريدة (البصائر) لتكون لسان حالها ، شعارها (العروبة والإسلام) تتويجا لمبدإ الجمعية ، المعلن (الجزائر وطننا ، العربية لغتنا ، الإسلام ديننا) وهو الشعار الذي بكر الشيخ (أحمد توفيق المدني) فحلّى به كتابه التاريخي الجغرافي الاجتماعي الأدبي الموسوم (كتاب الجزائر) .

كان للجمعية دورها السياسي المؤثّر ، فضلا عن الإصلاحي ، وقد تصدّى رجالها لدعاة الفكر (الاندماجي) و (البربري) بالحجة التاريخية ومنطق الواقع وحقيقة الدين ، معرضين بكل المرتدين ، كما عبر عن ذلك الشيخ (ابن باديس) في (نشيد) للشباب الناهض ، ردا على من يشككون في هوية (الجزائر) الإسلامية العربية ، ومن يرومون إدماج الشعب الجزائري في المجتمع الفرنسي :

شعب الجزائر مسلم ... وإلى العروبة ينتسب
من قال حاد عن أصله ... أو قال مات فقد كذب
أو رام إدماجا له ... رام المحال من الطلب

وقد شرعت (الجمعية) تتعرض للمتاعب الجمة من الإدارة الاستعمارية التي سخرت رجالها من (العملاء) بمن فيهم ذوي النزعة الاندماجية ، أمثال (الدكتور ابن جلول) الذي أعلن حربه الكلامية على الجمعية ، بعد رحلة وفد (المؤتمر الإسلامي الجزائرى) إلى (باريس) للمطالبة بالحقوق الجزائرية .

كان مؤتمرا توحدت فيه الآراء حول مسائل أساسية ، جمع مختلف الاتجاهات ، فانعقد في عاصمة (الجزائر) يوم (٧ جوان ١٩٣٦) فحضره ممثلوا (حزب الشعب الجزائرى) وممثلون من (جمعية العلماء المسلمين الجزائريين) وممثلوا التيار الاندماجي ، فكوّن المؤتمر وفدا سافر إلى (باريس) يوم (١٩٣٦/٧/٢٠) للمطالبة بالحقوق الجزائرية : منها كف (فرنسا) عن التدخل في الشؤون الدينية ، وحرية التعليم العربي لأهله ، وإحلال العربية

موقعا تتكافأ فيه مع الفرنسية في المؤسسات التعليمية الحكومية .

وهو ما كان له رد فعل سلبي من الاحتلال ، فصعّد المواجهة بين (جمعية العلماء) والإدارة الاستعمارية الفرنسية التي شرعت تتهم (الجمعية) بتسييس الدين ، فيعلن (محمد البشير الإبراهيمي) قولا بعد الفعل الهادئ الصامت : فلتكن سياسة إذن ، « ولنكن كل ما يخدم وطننا وأمتنا » « فإذا كنت لا تجد عدوك إلا حيث تكره ، فمن العدالة ألا يجدك إلا حيث يكره » فثبتت الجمعية على المبدأ ، حتى إعلان الثورة المسلحة (١٩٥٤) فساندتها عبر مكتبها في (القاهرة) حيث بات يقيم الشيخ الفضيل الورتلاني) ولحق به (الشيخ محمد البشير الإبراهيمي) لتحل (الجمعية) سنة (١٩٥٦) بعد التحاق (أحمد توفيق المدني) بمكتب (جبهة التحرير) في القاهرة ، ثم يخطف أمينها العام بالنيابة (الشيخ العربي التبيسي) من بيته ليلا بأيدي المحتلين ويقتل .

خلاصة :

يبدو واضحا أن لب الصراع الجزائري السياسي الفكري والثقافي مع الاستعمار الفرنسي في الفعل ورد الفعل : تمحور حول شخصية (الجزائر) الدولية الاستقلالية ، وهويتها الثقافية : تاريخا ، ولغة ، وعادات اجتماعية ، احتمى التيار الوطني عموما بوحدة الشعب الجزائري : وحدة توفرت على كل المقومات التاريخية والجغرافية ثم الدينية واللغوية كلحمة وسدى .

وقد تسلل الاحتلال الفرنسي عبر عنصر (اللغة) متكئا على ركائز من (صنائعه) ليفرض رؤيته في وجود شعبين في (الجزائر) مختلفين ، بل قد رأى أنهم شعوب وطوائف تتكلم عدة لغات ، وهو مارردده منظرو الاحتلال منذ أول يوم - حتى أيامنا هذه بعد الاستقلال ، مع نهايات القرن العشرين - وأصر عليه أكبر رئيس (استعماري) معاصر (الجنرال شارل ديغول) حتى وهو يائس من إخماد لهيب الثورة بعدما فشل مخطط (هيرسانت) سنة (١٩٥٧) لتقسيم (الجزائر) إلى ثلاث دويلات فأردا لها سنة (١٩٥٩) استقلالا ذاتيا كمجموعات عرقية « تجد هذه المجموعات المختلفة الفرنسية والعربية ، والقبائلية ، والمزابية التي تتعايش في هذا البلد : ضمانات تتعلق بحياتها الخاصة للتعاون فيما بينها » كما ورد في خطاب له يوم (١٦ سبتمبر ١٩٥٩ م) .

لذا بكر الاحتلال الفرنسي ، فسخر (التيار الاندماجي) ولواحقه ، ليرفعوا شعار (البربرية) مطية تفتيت ، تمكينا لمهيمن هو الاحتلال الفرنسي ، بلغته ، ونصرانيته ، وحضارته ، بل سرعان ما أقدم على رعاية (تيار بربري) أو (متبربر) فركبه البعض لخدمة مصالحهم الخاصة في التقرب من الاستعمار ، أو حيازة مكانة ما لديه ، أو للانتقام لعجزهم عن التكيف مع محيطهم الجزائري الذي بقي عصيًا على الاحتواء ، بفضل رجال آمنوا بربهم ، وأخلصوا لضمائرهم ، وتشبعوا بحب وطنهم ، ووثقوا بانتماء أمتهم ، ففرضوا إرادتها كجزء من الأمة العربية (الإسلامية) لا علاقة لها بفرنسا خارج العلاقة الاستعمارية : علاقة عداء وصراع ، وإن لغتها تبعا لذلك : العربية ، ودينها الإسلام .

هذه الرؤية في هوية (الجزائر) كجزء من الوطن العربي والعالم الإسلامي: لم تلبث حتى حسمتها مواثيق (الحركة الوطنية) بكل فصائلها، وبمواقف كل الشرفاء ذوي الوزن الدولي ، ابتداء من (الأمير عبد القادر) و (ابن العنابي) و (ابن قدور) ثم (الأمير خالد) و (مصالي الحاج) و (ابن باديس) وهو ما ينسجم مع توجه الرأي العام ، وبذلك كانت كفة الاتجاه الوطني دائما راجحة عن كفة الاحتلال وعملائه : خصوصا الداعين للاندماج ، والمتشبثين بالبربرية ، كمظلة لحماية (الفرنسة) وإبعاد المواطنين عن (العربية) التي تعني في النهاية صرفه عن الدين ، للتلازم القائم في (الجزائر) بين (العربية) و (الإسلام) .

نستطيع القول : إن هذا اللغط استمر ونحن على مشارف ثورة التحرير الجزائرية التي أعلنت في (١٩٥٤ م) بأول بيان لها ، وهو أول مواثيق (الجزائر) الوطنية الثورية التي ألقمت اللاغطين حجرا ، معلنة أن طريق التحرير الكفاح المسلح لتمزيق خرافة (الجزائر الفرنسية) وتأكيد هوية (الجزائر) كجزء من الأمة العربية والإسلامية ، ولم تلبث هذه الحركة الثورية حتى حملت اسم (جبهة التحرير الوطني) التي تمت هيكلتها بعد حين ، إلى جناح سياسي هو الاسم نفسه ، أي (ج .ت . و) وجناح عسكري (جيش التحرير الوطني) فناهضها عملاء الاستعمار ، بل أدانوها وفي مقدمتهم (التيار الاندماجي) وبالضرورة (الحزب الشيوعي الفرنسي الجزائري) الذي هر فرنسي في جوهره ، فضلا عن بعض العناصر الأخرى .

فأخمدت ثورة التحرير أنفاس رؤوس الفتنة أو معظمهم على الأقل ، فانتهى بعضهم ممن ملأو الساحة لغطا : نسيا منسيا ، في (فرنسا) نفسها ، كحال الدكتور (ابن جلول) الذي لم يعرف عنه الجزائريون : أين مات في (فرنسا) ولا متى أيضا ، لكن حدسهم يقول إنه مات في (الصقيع) نكرة ، نصرانيا ، لاعلامة على قبره .

حسمت الثورة الجزائرية إذن الموقف لصالح الصيرورة الطبيعية للتاريخ، بمواثيقها وعملها ، فتأكدت من جديد هوية (الجزائر) الدولية ، واستقرت أرضا وفضاء عربيا ، ولغة ، وعقيدة .

غير أن المشكلة الثقافية لم تلبث حتى شرعت تطل من جديد على

استحياء بعد الاستقلال (١٩٦٢) فشرعت الحياة تعود للفكرة (البربرية) كلغة وانتماء للدفاع عن موقع مهدد للفرنسية في الحياة الوطنية ، يريده لها (التيار الفرانكفوني) وقد بعث عربيدا : في حياة دستورية ، وإدارية ، وثقافية ، وهي دعوة في جوهرها لتكريس سيادة (اللغة الفرنسية) في الحياة الإدارية والثقافية ، باعتبار أن (الجزائر) ذات لغات أربع على الأقل ، حسب الفكر الاستعماري الذي حصرها في (الفرنسية ، والعربية ، والقبائلية ، والمزابية) وقد يضيف إليها (الشاوية) .

فمن الأفضل لدى رجال الفكر الاستعماري الذين هيمنوا على مقاليد الحكم بعد الاستقلال التمسك بالفرنسية « أداة توحيد » ثم لم تلبث هذه الفكرة حتى استشرت بالمنهج نفسه الذي سلكه (الاحتلال) الفرنسي ، لكن المستعمر هذه المرة أحكم خطة (التموقع) وراء (التيار الفرانكوفوني) لدعمه فكريا وماديا وسياسيا وإعلاميا ، وقد برز في ثوب جديد ، فاجتهد في إحياء الفكرة (البربرية) مع الحرص على تحييد (الدين) للإجهاز على (العربية) و (الدين) كل على حدة ، بمنطق (الثور الأبيض) وصاحبه في المثل « أكلت يوم أكل الثور الأبيض » فيمكن أن ينسحب هذا على الجانب الديني ، كما يمكن أن ينسحب على اللغة ذاتها ، فأنشئت في خطة السياسة الفرنسية الجديدة (الأكاديمية البربرية) في (باريس) سنة (١٩٦٧) بإدارة (يهود) و (متهودين) لخدمة (الفرنسية) في (الجزائر) على ظهر خادم طيعة لينة تراثية في الوقت نفسه (البربرية) .

لماذا عادت الحياة قوية لفكرة كنا نحسب - أو هكذا صورت لنا أوهامنا - أنها دفنت مع دعاتها ، من عملاء الاستعمار والاندماجيين ، أو تلاشت بتلاشي ظلال المحتلين ، في (الجزائر) ؟

أين الخلل ؟ أفي مواثيقنا ؟ أم في (رجال الدولة) الذين قبضوا على مقاليد الحكم ؟ أم في سلبية (التيار الوطني) وقد اختفى تماما من طريقه العدو السافر بسلاحه وصليبه وقبعته وخلفه ربيب له ؟

المشكلة الثقافية بكل أبعادها : جوهر الصراع الذي تجلى في الممارسة السياسية ، وهذا الصراع إبداع فرنسي خالص ، فلم تعرفه (الجزائر) عبر تاريخها الطويل الذي تكرست فيه هوية (الجزائر) منذ القرن الأول الهجري بعد انتشار (الإسلام) فأضحى فضاء هذه الهوية : عربيا إسلاميا عاما : فتحددت شخصية (الجزائر) بالإسلام دينا ، والعربية لغة جامعة ، بفضل كتاب الله الموحد .

بالانتماء إلى هذا الفضاء وقفت المقاومة الوطنية المسلحة والدينية والفكرية في وجه الاحتلال الفرنسي منذ الساعات الأولى سنة (١٨٣٠) فأكدته مواقف أعلام حركة المقاومة وكتاباتهم وأشعارهم نفسها ، تمسكا بالعربية لسانا والإسلام دينا كجناحي انتماء ، لصمود الوطن ونهوضه بهما معا ، مما حرّض قادة الاحتلال العسكريين والسياسيين معا على ضرب هذه العلاقة بالعمل (للتنصير) و (الفرنسية) في سياسة (تعليمية) تستهدف في النهاية الفئات ذات القابلية للولاء الاستعماري : غير المحصنة عائليا ، وسياسيا ، وفكريا ، فتسقط في سياسة تنصيرية تأخذ لها غالبا لبوسا خيريا ، فتبادر لعمليات اختراق أولا في المناطق ذات القابلية لذلك ، بفعل الجهل والفقر ، وضعف الوازع الديني ، مع تنسيق خفي وصولي أحيانا بين الخطتين : التعليمية والتنصيرية .

الانتماء إلى فضاء إسلامي عبر جناحي (اللغة العربية) و (الإسلام) بقي جوهر الحركة الوطنية في كل مراحلها ، في الفترات اللاحقة ، بما فيها حركة (نجم الشمال الإفريقي) المؤسس سنة (١٩٢٦) ووليده (حزب الشعب الجزائري) سنة (١٩٣٦) و (جمعية العلماء المسلمين الجزائريين) سنة (١٩٣١) فأريك ذلك التيار (الفرانكفوني) نفسه ، فلم يجرؤ على أية مجاهرة بالموقف السلبي من العربية والإسلام ، ، رغم حرصه على الانصهار التام في المجتمع الفرنسي ، وعبر هذا التيار حرص الاستعمار على ضرب تلك العلاقة بين (الإسلام) و (العربية) بإبداع هوية جديدة تخدم سياسته ، ليس في (الجزائر) فحسب ، وإنما في (المغرب العربي) كله ، وهي الهوية

(البربرية) التي شاء لها الاستعمار أن تقوم بدور (العبد) أو (العميل) أو (الدركي) للتمكين للهوية الأكثر جاذبية في النهاية ، هي الهوية (الفرنسية) في فضاء ثقافي عام : يفرض عادات وأخلاقا وقيما جديدة تماما في النهاية خارج الإطار الإسلامي ، كما عبر عن ذلك القادة العسكريون ، في (المغرب) و (الجزائر) معا بشكل أخص ، فقال أحد (المارشالات) بالمغرب سنة (١٩٢١) : « إنه يتحتم علينا أن ننتقل مباشرة من البربرية إلى الفرنسية ، فالعربية تعتبر أهم العوامل لمعرفة الإسلام ، لأنها لغة القرآن ، أما مصلحتنا فتحتم علينا أن نطور البربر خارج إطار الدين الإسلامي » .[١٦]

ورغبة (التطوير البربري) تنبع من استعدائهم على (العرب) لإبعادهم في النهاية عن فضاء لهم فيه (العربية) لسانا ، و (الإسلام) عقيدة ، كما يقول (دي كايكس) ما مضمونه « إن تدريس العربية يعني تدريس الإسلام ، التعريب هو الأسلمة بالذات ، وهذا يعني تعميق نفوذ ديانة من أهم أركانها الجهاد المقدس ، ونشر لغة بإمكانها أن تصبح وسيلة لنشر أفكار معادية » .[١٧]

وفي رأيه « أن عملية تحويل البربر إلى فرنسيين سهلة » [١٨] كما أنهم في رأي زميل له « أكثر انقيادا من العرب ، وذلك لأنهم أضعف حساسية ، وأقل اهتماما بتفوقهم على المسيحيين » .

بمثل هذا انطلقت سياسة الاحتلال الفرنسي المبكرة في (الجزائر) المحتلة عمليا ، وفي (المغرب) في ظل الحماية (١٩١٢) بالظهير (البربري) الصادر في (١٦/٥/ ١٩٣٠) القاضي بإنشاء نظام قضائي خاص بالبربر ، يعتمد (العرف) في حياة (البربر) بالجبال ، وتقاليدهم ، فلا يخضعون في ذلك للحكم بالشريعة الإسلامية في مختلف جوانب حياتهم ، وهو (القانون) الذي لقي الإخفاق التام أمام الرفض الشعبي في (المغرب) كما أخفقت الخطوات المماثلة في (الجزائر) حين حرضت على القضاء بالعرف في منطقة (القبائل) بشمال (الجزائر) ونبذ العمل بالتشريع الإسلامي ، فقوبل ذلك برفض عنيف من رجال (المنطقة) وأعيانها ، بل أرسلوا تنديدا بذلك إلى جريدة (البصائر) التي كانت تصدرها (جمعية العلماء) متبرئين من كل المنحرفين ، فنشره الإبراهيمي (مسؤول التحرير) مع تقديم مقتضب يحيي

أبنـاء المنطـقة الشرفاء الوطنيين .

فعل الاستعمار ذلك لإبداع هويات ثقافيـة مختلفة في (الجزائر) تقـوم على (النعرة العرقية) القديمة ، عبر (البربرية) كإبداع فرنسي يختلق (دينا) للبـربر ، ويحيـي لهم (لغـاتهم) وقـد استـعـمل في بعض المراحل مـصطلح (اللغات الجزائرية) حتى ألف (المبشرون) وأشباه (المستشرقين) كتيبـات بالعـربيـة العـاميـة نفسـها لتعليم أبناء كل منطقـة عـاميـتهـا ، وحين اطلعت شخصيا على نماذج من هذه الكتيبات في (الخمسينيات) تهجيتها بصعوبة : فهي خليط من (عاميات جزائرية) وكلمات (فرنسية) سوقية .

لكن بقي الهم الأكبر للاستعمار هو (البربرية) كمصطلح عام ذي دلالة عرقية جذابة لذوي النفوس المهزوزة : تاريخيا ، وفكريا ، وعقديا ، حسبوا أنهم سينجحون فيـه عـاجلا ، مركزين على منطقـة القبـائل منذ تم إخضاعـهم إياها نهائيـا (١٨٥٧) فلم يقنعـوا بأقـوال شيـوخ المنطقة في كـون أصولـهم عـربيـة عـموما ، مع ظن بأصول فـارسيـة لعشائر فيهـا ، لكنهم جميـعا ومهـما كـانـت الأصول (مـسلمـون) صاروا (عربا) بالعقيدة ولغتها ، وهو المنطق الذي لا يروق لأقطاب الاحتـلال ، فـأصر الاستـعـمـار عـلى المضي في نـشـر (النزعـة العرقيـة) مركزا كثيرا على منطقة (القبائل) ، ومع الوقت بدأت بعض ثمـار جهده تؤتي أكلها لدي بعض النفوس الضعـيـفةحتى في أعـضاء مـهزوزين من (جمعية العلماء) نفسها حين أقدم أحدهم فيها على استعمال (القبائلية) في لقاء عـام بنادي الترقي ، مما أثـار (ابن باديس) وقد شعر ببعض الثمار لجهود المحتل ، فنهض في الاجتماع نفسه يرتجل كلمة تدين هذا الانحراف الذي يهجر لغـة جامعـة للأمة ، ويجنح إلى ما يفرق قـائلا في كلمته الخطابيـة التي نشرت لاحقـا تحت عنوان « مـاجـمعـتـه يد الله لا تفرقـه يد الشيطان » في مـجلة (الشهاب) بالجزء الحادي عشر (غرة ذي القعدة ١٣٥٤ هـ . فيفري ١٩٣٦م):

« إن أبناء يعـرب وأبناء مـازيغ قـد جمع بينهم الإسلام منذ بضع عـشرة قرنا ، ثم دأبت تلك القرون تمزج مابينهم في الشدة والرخـاء ، وتؤلف بينهم في العسر واليسر ، وتوحّدهم في السراء والضراء ، حتى كونت منهـم منذ أحقاب بعيدة عنصرا مسلما جزائريا : أمه الجزائر وأبوه الإسلام .

وقـد كـتب أبناء يعرب وأبناء مـازيغ آيات اتحـادهم على صـفحـات هذه

القرون بما أراقوا من دمائهم في ميادين الشرف لإعلاء كلمة الله ، وما أسالوا من محابرهم في مجالس الدرس لخدمة العلم.

فأي قوة بعد هذا - يقول عاقل - تستطيع أن تفرقهم لولا الظنون الكواذب والأماني الخوادع ؟ ياعجبا لم يفترقوا وهم الأقوياء ، فكيف يفترقون وغيرهم القوي ، كلا والله ، بل لاتزيد كل محاولة للتفريق بينهم إلا شدة في اتحادهم وقوة لرابطتهم ، ذمتي بما أقول رهينة وأنا به زعيم ، والإسلام له حارس ، والله عليه وكيل . نعم إننا نتحد لننفع أنفسنا ، وننفع إذا استطعنا غيرنا ، ومعاذ الله والإسلام أن نتحد على أحد ، أو نتفق على باطل ، أو نتعاون على إثم أو عدوان » .[١٩]

غير أن هذه الثمار كانت أكثر وفرة في صفوف (الفرانكفونيين) ، أي (الاندماجيين) بالضرورة ، وهم بطبيعة تكوينهم من ذوي الجهل بالحضارة العربية الإسلامية ، كما عكست ذلك (الحركة البربرية) نفسها في صفوف المهاجرين الجزائريين بفرنسا ، حيث كونت جماعة من هذه الحركة (لوبيا) بين المهاجرين ، داخل تنظيمي (حزب الشعب الجزائري PPA) المحظور ، و (الحركة من أجل انتصار الحريات الديمقراطية MTLD) مما صعد الصراع حول الهوية ، بمنطق هذا (اللوبي) ذي النزعة (البربرية) المتطرفة ، فانتهى بعض أفراده (مثل بناي واعلي) إلى فكرة « توحيد المنطقة التي يتحدث سكانها اللهجة البربرية »[٢٠] وقد عملت عناصر هذا اللوبي في (فرنسا) (محند علي يحي المدعو رشيد ، وبناي واعلي ، وعمار ولد حمو) سنة (١٩٤٨) لتأسيس حركة لافتة للنظر ، مما أفضى إلى أزمة في ربيع (١٩٤٩) عرفت بأزمة (القضية البربرية) التي اصطنعها هذا اللوبي المهيمن في منظمتي (ح . ش . ج) و (ح . إ . ح . د) حيث توصل حينئذ التيار السابق إلى افتكاك لائحة من اللجنة المديرة « تدين خرافة الجزائر العربية المسلمة »[٢١] الأمر الذي دفع القاعدة النضالية للمنظمتين إلى التمرد على قيادتها ، وإعلان احتجاجها على من تصفهم « بالعناصر الملحدة التي تحارب الإسلام والعروبة »[٢٢] فقاومت العناصر الوطنية الشريفة « بصفة فعالة ضربات أنصار الحركة البربرية » للحركة الوطنية ، بفضل قياديين ومناضلين ، مما انتهى ببعض الأعضاء في (الحركة البربرية) إلى انعزالية مقيتة ، فاندفعوا « إلى الإنضمام

إلى الحزب الشيوعي الجزائري ، والحزب الشيوعي الفرنسي »[٢٣]. من باب العودة إلى الأصل، خصوصا أن فرنسا ، كما يؤكد السيد (يوسف بن خدة) (الرئيس الثاني والأخير للحكومة الجزائرية المؤقتة) في المهجر ، أنها كانت دائما المكان الصالح لأنصار القضية البربرية ، الذين بدأوا نشاطهم هناك ، ففي ربيع (١٩٤٨) التقى بناي ببودع رئيس المنظمة الوطنية لـ (ح.ش.ج ـ ح.ا.ح.د) ، وتحدث معه عن طالب « بصدد البحث عنه » من طرف الشرطة ، ويرغب الالتجاء إلى فرنسا قصد متابعة دروسه ، وهو بحاجة إلى أن يوصي به قيادة الفيدرالية .

وفي الحقيقة فإن هذا الطالب ما هو إلا (محند علي يحيى) الذي سوف يكتشف لاحقا ، بصفته محرضا للقضية البربرية في فرنسا .

وبحسن نية ، أعطى السيد (بودع) موافقة لبناي (وقد كان هذا الأخير مناضلا في الحزب ويخفي نزعته البربرية) وبهذا الشكل التحق (محند علي يحي) الملقب برشيد بفرنسا ، حيث ادرج في المنظمة ، والمعروف عليه أنه يتسم بالنشاط والجرأة ، إذ توصل إلى ارتقاء مراتب المسؤولية ، حتى أصبح طرفا في اللجنة المديرة لفيدرالية فرنسا لـ (ح.ش.ج ـ ح.ا.ح.د) وعندما انفجرت أزمة القضية البربرية في ربيع (١٩٤٩) توصل إلى دفع اللجنة المديرة إلى انتخاب لائحة تدين ، « خرافة الجزائر العربية الإسلامية »[٢٤]

(الأزمة البربرية) كشفت جانبا مهما من معاول الهدم من الداخل ، المتمثلة في (الخونة) والمتآمرين ، والوصوليين التواقين إلى السلطة بالطرق غير الشرعية ، مما زج (بحزب الشعب - انتصار الحريات الديمقراطية) في أزمة سياسية ، خصوصا بين (اللجنة المركزية) للحزب ، ورئيسه (مصالي الحاج) حيث انتهى الموقف بفعل الصراع إلى الانسداد والتعفن ، فدفع ذلك مجموعة من الشباب التي كانت نواتها أربعة أشخاص (حسين الأحول ، سيد علي عبد الحميد ، محمد دخلي ، محمد بو ضياف) إلى التعبير عن موقف ثالث آمن بالكفاح المسلح ، فكان تأسيس « اللجنة الثورية للوحدة والعمل » التي بادرت بإعلان نفسها في منشور مطبوع على الآلة الكاتبة ، ثم اجتمع اثنان وعشرون من أعضائها في بيت الثالث والعشرين منها بحي (clos salembier) بالجزائر العاصمة، الذي صار يحمل اسم (الناضور) في

حي (المدنية) للاتفاق على إعلان الكفاح المسلح ، فكونو لهذا الغرض (لجنة الستة) التي اتخذت في سرية تامة قرار إعلان الثورة في (١٩٥٤/١١/١) وهي تتكون من (مصطفى بن بولعيد ، محمد العربي بن مهيدي ، رابح بيطاط، محمد بو ضياف ، مراد ديدوش ، كريم بلقاسم) لقيادة حركة جهادية، سرعان ما صار لها اسم (جبهة التحرير سياسيا) ، و (جيش التحرير عسكريا) فكان الموقف الحاسم الذي استقطب الأمة التي ضجت من الصراعات الشخصية والحزبية ذات المطامح والمطامع الأنانية فحسمت هذه الحركة الثورية في أول بيان لها قضية الهوية السياسية والثقافية ، من منطلق المسيرة نفسها للحركة الوطنية التي كانت تصر على الانتماء لفضاء عربي ضمن الفضاء الأعم (الإسلامي) : بالعربية لغة ، والإسلام دينا ، فضلا عن العلاقة التاريخية والجغرافية : مغاربيا خصوصا ، وعربيا عموما ، وإسلاميا بشكل أعم .

فما هذه الهوية انطلاقا من المرحلة الجديدة ؟

من هنا تبدأ مرحلة جديدة من التفاعل في مسار النضال الجزائري ، نتتبع فيها عناصر الهوية كما وردت في مواثيق (الحركة الوطنية) ثم فيما بعد الاستقلال ، حتى المتغيرات التي أفضت إلى دستور (١٩٧٦) ثم دستور (١٩٨٩) فدستور (١٩٩٦) .

أولاً : الهوية بشكل عام :

الهوية فضاء عام ، يتضمن بالضرورة العادات والقيم العامة ، فضلا عن اللغة والدين ، لكنني اقتصر في البداية على هذا الفضاء ، أول تحديد لهذا الفضاء ورد في بيان (أول نوفمبر ١٩٥٤) الذي حددت المادة الأولى منه هذه الهوية بكونها « ضمن إطار المبادئ الإسلامية »[٢٥] و « ضمن وحدة شمال افريقيا في داخل إطارها الطبيعي العربي الإسلامي » وكما أكدها بعد ذلك بنحو سنة ونصف (منهاج الصومام) في (١٩٥٦/٨/٢٠) بالصيغة التالية : « إن افريقيا الشمالية هي مجموعة كلية تؤلفها الجغرافيا والتاريخ واللغة والحضارة والمصير ، ومن ثم يجب أن يسفر هذا التضامن بالطبع عن تأسيس اتحاد لدول شمال افريقيا الثلاث » .[٢٦]

وحين تأسست أول حكومة مؤقتة للجمهورية الجزائرية في(١٩٥٨/٩/١٩) ورد في أول تصريح لها ، يوم (١٩٥٨/٩/٢٦) أن « الجزائر جزء لايتجزأ من المغرب العربي » وتراثها هو « التراث الرائع للحضارة العربية الإسلامية ، فالشعب الجزائري المتعلق بحضارته ينتمي إلى العالم العربي » .[٢٧]

وعبر عن هذا الانتماء بعدة صيغ (برنامج طرابلس) الصادر في (جوان / حزيران ١٩٦٢) عن (المجلس الوطني للثورة الجزائرية) الذي انعقد في العاصمة الليبية (طرابلس) بالتاريخ أعلاه ، قبل إعلان الاستقلال في (٥جويلية ١٩٦٢) بقليل ، وكذا دستور (١٩٦٣) وقد تكشفت الرؤية في الانتماء لفضاء حضاري عربي إسلامي في (الميثاق الوطني) الذي صُوِّت عنه شعبيا بعد نقاش طويل ساخن في مهرجانات عبر أنحاء الوطن بحرية تامة ، سنة (١٩٧٦) أعطى لمحة عن الدولة الجزائرية في العهد النوميدي ، لكن المقومات الكبرى الأساسية للشعب الجزائري ، أخذت تتجلى تدريجيا منذ القرن الأول الهجري / السابع الميلادي متمثلة في الوحدة الثقافية واللغوية والقيم الروحية » [٢٨]. معلنا من مطلع الديباجة : « إن الشعب الجزائري مرتبط بالوطن العربي ، وهو جزء لا يتجزأ منه ولا ينفصم عنه» فيعطي (هذا الميثاق) كلمتي (الأمة) و (الشعب) معنى واحدا ، فيرى أن « الأمة ليست تجميعا

لشعوب شتى أو خليطا من أعراق متنافرة » بل « إن الأمة هي الشعب نفسه باعتباره كيانا تاريخيا واحدا » .

ولم تشذ عن ذلك - نظريا - المواثيق اللاحقة ، بإلحاحها على فضاء هذه الهوية العربية الإسلامية ، بشكل خاص التي يحظر بمقتضاها حتى على المؤسسات أن تأتي من الأفعال ما يناقض ذلك ، مثل « السلوك المخالف للخلق الإسلامي » كما نصت على ذلك المادة التاسعة من دستور (١٩٨٩) وكذلك الدستور المعدل في (١٩٩٦) وقد ورد في تمهيد دستور (١٩٨٩) والديباجة في دستور (١٩٩٦) المعدل : « أن الجزائر أرض الإسلام ، وجزء لا يتجزأ من المغرب العربي ، وأرض عربية » ، وكلا الدستورين تم الاستفتاء عليهما .

وفي هذا الإطار كانت الإشارة إلى وحدة الأمة العربية التي تعتبر الجزائر جزءاً منها ، مما يقتضي بالضرورة (وحدة المغرب العربي) كلبنة أولى في تشييدها .

كل المواثيق الوطنية تحصر فضاء الانتماء (الحضاري) في بعده (العربي الإسلامي) بتبلور (الشخصية الوطنية) فيه ، لكن (المساومات) الحزبية ، والضغوط التآمرية التي مارستها قوى حزبية وسياسية أدرجت في ديباجة التعديل الجديد للدستور سنة (١٩٩٦) بعدا جديدا ، هو (البعد الأمازيغي) حيث ورد في أول صفحة من النص حرفيا أن « المكونات الأساسية » لهوية (الجزائر) : « هي الإسلام والعروبة والأمازيغية » ، فجماعات الضغط تلك استغلت ضعف النظام فأدرجت هذا (البعد) الذي بعث من (الردم) ، لكن يبقى المكونان الأساسيان : الدين (الإسلامي) و (اللغة العربية) .

هذا عن الفضاء العام للهوية . فماذا عن مكونيه الأساسيين : (الدين) و (اللغة) ؟

هذا ماأحاول أن أعرض إليه بإيجاز شديد ، مجتهدا في الاقتصار على ما هو أهم من دون مهم موضعه التفاصيل ، في إطار آخر .

*** الدين :**

إذا كان بناء الدولة في إطار (الدين الإسلامي) في مقدمة الأهداف الداخلية والخارجية في بيان (أول نوفمبر ١٩٥٤) فإن الحرص على الانتماء لهذا الدين اقتضى في (منهاج الصومام) المعلن يوم (١٩٥٦/٨/٢٠)

حمايته من الدخلاء والدجالين ، وعملاء الاستعمار معا ، لأن الدين روح الأمة التي ينبغي أن تبقى نقية طاهرة ، فجرى الإلحاح على إعادة الألق للعقيدة الإسلامية التي انتهكت « حرمتها ومسخ وجهها السمح بتسخير القائمين عليها .. من طرف الإدارة الاستعمارية » مما ينبغي أن يكون موضع حرص في بناء دولة « ديمقراطية اجتماعية لا تكون متناقضة مع المبادئ الإسلامية ».[٢٩]

كما يعلن دستور (١٩٧٦) في مادته الثانية من الفصل الأول ، بالباب الأول : أن « الإسلام دين الدولة » وتتكرر الصيغة نفسها في التعديلين اللاحقين للدستور (١٩٨٩) و (١٩٩٦) مع إشارة ذات أهمية في المادة التاسعة بالفصل الثاني ، من الباب نفسه بمختلف الدساتير على نبذ « السلوك المخالف للدين الإسلامي » .

*** اللغة :**

كل المواثيق الوطنية الجزائرية نظرت إلى قضية (اللغة العربية) نظرة تكاد تكون تقديسية ، فأحلتها المكانة الثانية مباشرة بعد الدين ، والمواثيق الجزائرية من هذه الزاوية واقعية من دون شك ، كالحال في الدين : تحت الضغط الشعبي الذي لا يجادل فيها ، مما يعكسه حتى التراث الشعبي (رؤية وسلوكا) في إحلال الكلمة ذات الحروف العربية ، خصوصا حين تكون مكتوبة .

حظي موضوع (العربية) كمقوم ثان باهتمام كبير ، لما يثيره من مشاعر، وفي مقدمة (المواثيق) التي تحدثت عن (العربية) (منهاج الصومام) (١٩٥٦) الذي نص حرفيا على أن « اللغة العربية هي اللغة القومية ، لغة الأغلبية الساحقة من السكان »[٣٠] كما رأى برنامج (طرابلس) (١٩٦٢) أن دور اللغة العربية « كثقافة وطنية يتمثل في مرحلة أولى ، في إعطاء اللغة العربية المعبرة الحقيقية عن القيم الثقافية لبلادنا كرامتها ونجاعتها كلغة حضارة ، لذلك فإنها ستعيد بناء التراث الوطني وتقييمه ، والتعريف بإنسانيته المزدوجة القديمة والحديثة لإدخالها في الحياة الفكرية ، وتربية الشعور الوطني ، فهي ستحارب هكذا الهيمنة الثقافية والتأثير الغربي اللذين ساهما في تلقين الكثير من الجزائريين احتقار لغتهم ، وقيمهم الوطنية »[٣١]. « وقد تأخرت باعتبارها وسيلة ثقافية علمية عصرية ، تجب ترقيتها ، حتى تقوم

بدورها في المستقبل بأساليب علمية » .

غير أن اللغة العربية تدخل رحلة (المعاناة) بعد الاستقلال (١٩٦٢) مباشرة ، مع (بقايا) من (رجال الاستعمار) في (السلطة) وهي بقايا أخطبوطية ، في الإدارة الجزائرية ، فرغم أن (دستور ١٩٦٣) نفسه ينص في مادته الخامسة على « أن اللغة العربية هي اللغة الوطنية والرسمية للدولة » كما أكدها (ميثاق الجزائر) في (١٩٦٤) وما تبع ذلك من (مواثيق) فقد شهدت عملية التمكين للغة العربية مقاومة عنيفة منذ البدء في السر كثيرا ، في مرحلتي (الستينيات) و (السبعينيات) مما دفع (هواري بو مدين) رئيس مجلس الثورة ، في الخامس من شهر فبراير (١٩٦٩) بأن يكون الفاتح من (جانفي ١٩٧١) البداية الجدية الشاملة للتعريب في الإدارة ، متوعدا كل المقصرين بسوء الجزاء ، لكن (القرار) أجهض بفعل اللوبي (الفرانكوفوني) حول (بومدين) نفسه .

مع ذلك لم تكف (المواثيق) الوطنية بعد ذلك عن الإصرار على أهمية اللغة العربية في الحياة الوطنية فاعتبرها (الميثاق الوطني) في (١٩٧٦) عنصرا جوهريا في (الوحدة الوطنية) .

وإن جاء في دستور (١٩٦٣) أن اللغة العربية هي « اللغة الوطنية والرسمية للدولة » فقد حذفت كلمة (الدولة) الأخيرة في دستور (١٩٧٦) بالمادة الثالثة منه ، في الفصل الأول ليصبح الأمر ملزما - فيما يبدو - لما هو غير حكومي أيضا لكنه أضيف في هذه المادة نفسها بهذا الدستور بعد كلمة (الرسمية) ما يلي : « تعمل الدولة على تعميم استعمال اللغة الوطنية في المجالات الرسمية » . لكن هذه العبارة حذفت من دستور (١٩٨٩) وكذا الدستور المعدل في (١٩٩٦) ربما - عند حسن الظن - أنها من باب تحصيل حاصل ، وعند سوء الظن : فتح كوة لتملص السياسيين الجدد ذوي الواجهات من التزامات دستورية قد تكلفهم عناء في فرض لغة الأمة ، كما يفعل السياسيون ذوو المهام السامية في أوطانهم ، الذين يسنون القوانين الرادعة لحماية لغتهم . غير أن الرأي العام الوطني بقي يمارس ضغوطه على النظام منذ تكثف صداه القوي جدا في (المجلس الوطني الشعبي) ، أي (البرلمان) المنتخب - وطنيا - الذي أصدر سنة (١٩٩١) القانون الخاص باللغة العربية ،

الذي وقعه رئيس الجمهورية (الشاذلي بن جديد) ونصت مادته الأولى في الفصل الأول من (أحكام عامة) على أن هذا القانون « يحدد ... القواعد العامة لاستعمال اللغة العربية في مختلف ميادين الحياة الوطنية ، وترقيتها وحمايتها » ، مؤرخا في (٣٠ جمادي الثانية ١٤١١ هـ - ١٦ يناير١٩٩١م) ونشر في التاريخ نفسه بالعدد الثالث من الجريدة الرسمية للسنة نفسها .

وقد ورد في مادته الثانية من الفصل الأول مايلي : « اللغة العربية مقوم من مقومات الشخصية الوطنية الراسخة ، وثابت من ثوابت الأمة ، يجسد العمل بها مظهرا من مظاهر الحياة العلمية والعملية ، بما فيها المرافق الإدارية» كما تشير إلى ذلك المادة الرابعة في الفصل الثاني التي يقول نصها : « تلزم جميع الإدارات العمومية والهيئات والمؤسسات والجمعيات على اختلاف أنواعها باستعمال اللغة العربية وحدها في كل أعمالها ، من اتصال وتسيير إداري ومالي وتقني وفني » . وتضيف المادة الخامسة مايلي : « تحرر كل الوثائق الرسمية والتقارير ، ومحاضر الإدارات العمومية والهيئات والمؤسسات والجمعيات باللغة العربية » .

حظي هذا القانون بنقاش طويل وصل حد المواجهة اللفظية ليصدر بتصويت ساحق لعلو الأغلبية الوطنية في (المجلس) وقد ضيق الخناق على المتلاعبين بالآجال في التنفيذ ، وبالمواثيق نفسها ، كما ألزم هذا القانون (الأحزاب) نفسها التي كانت تسمى بنص دستور (١٩٨٩) : « جمعيات ذات طابع سياسي » بتعريب وثائقها التزاما بالمادة الرابعة والثلاثين التي تعاقب على الإخلال بذلك ، فيقول نصها : « تعاقب الجمعية ذات الطابع السياسي التي تخالف أحكام هذا القانون بغرامة مالية تتراوح بين (١٠,٠٠٠) و (١٠٠,٠٠٠) د.ج ، وفي حالة العودة تطبق عليها أحكام المادة الثالثة والثلاثين ، من القانون رقم (١١) لسنة (١٩٨٩) المؤرخ في (٥ يوليو سنة ١٩٨٩) ، والمتعلق بالجمعيات ذات الطابع السياسي » .

وقد حُدّد في هذا القانون أجل التعريب التام ، في المجالات المختلفة ، الإدارية والسياسية والاقتصادية والعلمية والتعليمية ، بما فيها (جامعة العلوم التكنولوجية) بباب الزوار ، و (كلية العلوم الطبية) فتحدد أقصى أجل للتعريب في الذكرى الخامسة والثلاثين للاستقلال (٥ جويلية ١٩٩٢) كما

تنص على ذلك معظم المواد بما فيها المادة السابعة والثلاثون حصرا من الفصل الخامس : « يتم التدريس باللغة العربية وحدها في كل مؤسسات التعليم العالي ، والمعاهد العليا ، ابتداء من السنة الأولى الجامعية : ١٩٩٢/٩١ على أن تتواصل العملية التعليمية حتى التعريب الشامل والنهائي في أجل أقصاه ، ٥ يوليو ، سنة ١٩٩٧ م » .

لكن هذا القانون الشرعي الذي سنه (مجلس وطني) شرعي منتخب ، ووقعه رئيس شرعي منتخب ، عطله (مجلس استشاري) غير شرعي اختلقه وعين أعضاءه رئيس غير شرعي (محمد بو ضياف) الذي وصل السلطة بعد الحركة (الانقلابية) التي ألغت الانتخابات (البرلمانية) الشرعية ، تم تعطيلـــه تزامنا مع اغتيـــال (بو ضيـاف) في (جوان / يونيو ١٩٩٢) عشية دخول الأجل المضروب للتعريب - بما في ذلك السنة الأولى للعلوم الطبية - حدث التعطيل في عهد هذا (المجلس الاستشاري) بقيادة (رضا مالك) رئيسه قبل دخوله (الإلزامي) حيز التطبيق ، بيوم واحد ، فصدر مرسوم التعطيل يوم (٤ يوليو سنة ١٩٩٢) في شكل (تمديد تمويهي) بالأسلوب نفسه الذي اعتاده (اللوبي الفرانكفوني) لدفن المشاريع الوطنية الكبرى ، بهذه الصيغة المضللة : « إلى غاية توفير الظروف الضرورية » التي لن تتوفر أبدا ، كما لم تتوفر قط بفعل هذا (اللوبي) وهو ما أساء الرأي العام الوطني، وندد بالإجراء البعض من الرجال ، وصمت (أشباه الرجال) ، كما ندد به صحفيون ذوو شجاعة في الصحافة المعربة ، بعدما استغل (اللوبي الفرانكفوني) للتعطيل الارتباك الحاصل باغتيال (بو ضياف) الذي وافق على أمر التعطيل ، ولم يمهله الأجل للتوقيع فوجده خلفه (علي كافي) جاهزا فوقع ، والناس تحت عويل إعلامي وموسيقى حزينة مع تصاعد موجة العنف ، عنف الدولة وعنف المعارضة .

وهو خطأ تاريخي ارتكبه صانعو محنة (الجزئر) بكل وجوهها ، وفي مقدمتها (التيه) وعدم الحسم في قضايا مصيرية .

هذا التعطيل الذي أخذ صفة (الإلغاء) بقي موضوع إدانة وطنية أصرت في كل المناسبات (لإلغاء الإلغاء) أو رفع (التجميد) أو (التعطيل) ، وهو ما استجاب له الرئيس الجديد المنتخب شعبيا (اليمين زروال) في ذكرى

الاستقلال الرابعة والثلاثين ، مع بعض التعديلات التي اقتضاها الظرف الزماني المتغير ، فكان المرسوم الرئاسي (٣ يوليو ١٩٩٦) مع أجل جديد في التطبيق التدريجي ابتداء من يوم الإثنين (٦ جويلية / يوليو ١٩٩٨) في أول يوم عمل بعد يوم ذكرى الاستقلال (١٩٩٨/٧/٥) ، وخوفا من هذا اليوم كأحد الفواصل بين (الغموض) و (الوضوح) : انطلقت (جماعات الضغط) بمختلف أجنحتها حول المحور (اللائكي - الشيوعي - البربري) تمارس ضغطها على الأجهزة ، وتعمل للالتفاف حول رئيس الجمهورية نفسه ، فاندفعت تجاهر بالمطالبة مرة أخرى بوقف مشروع التعريب وتأجيله ، بل إن رئيس حزب (لائكي) جمهوي لم يتردد في أن يطالب بصفاقة متناهية رئيس الجمهورية بتحمل « مسؤولياته » للإقدام على تعطيل القانون الذي وقعه بل إلغائه ، مع المطالبة في الوقت نفسه باعتبار « الأمازيغية لغة رسمية » .

فلم يكتف (اللوبي) المذكور بما حصل عليه من ابتزاز في دستور (١٩٩٦) من إضافة (الأمازيغية) مقوما ثالثا للهوية الجزائرية ، ، حين فشل في الإبقاء على الفرنسية لغة رسمية ، نظريا بعد كونها رسمية عمليا في أهم المواقع ، بينما العربية لغة رسمية نظريا على الورق - دستوريا - محاربة في معظم المواقع باستثناء تلك المواقع التي فتحتها عنوة بفضل رجال أشداء مروا في السلطة التنفيذية ، في وزارة العدل والداخلية والتعليم .

وهنا ينبغي أن نسجل تحية التقدير للدكتور (بو علام بن حموده) الذي عرب وزارة العدل حين وصل هناك ، بعدما عرب الحالة المدنية وبطاقات الهوية وغيرها أيضا حين تولى وزارة الداخلية ، ويبدو أنه وقف أمام معاناة معينة حين وصل إلى وزارة المالية والاقتصاد في الميدان ، ومع رئيس الجمهورية ورئيس الحكومة وكلاهما له كلمته .

وبقدر ما يعني موقف هذا الوزير دور الرجال كأفراد في الفعل ، في مواقع القرار التنفيذي ، والتشريعي أيضا ، فإنه يعني من زاوية أخرى دور الصرامة في سياسة الدولة لتطبيق القانون بقوته الرادعة : ماديا وقانونيا ، وحين تغيب هذه السياسة تبدأ نذر الاستهتار بالدولة وقوانينها ، وهذا واحد من عوامل التفاعل والتيه في (المشكلة الثقافية) في (الجزائر) التي حسمت دستوريا ، وفي القوانين التطبيقية ، ولكن من دون جدوى على مستوى

(الالتزام) و (الإلزام) لدى السلطة في كل (السلالم) التي تسن قوانين ، وتنساها ، أو (تتناساها) بفعل غرباء عن ميادين التطبيق ، ومناهضين له : ممن تتعارض مصالحهم (الإيديولوجية) مع ذلك . وهم الأغلبية في الإدارة ، الذين هم أسباب الفساد والإفساد ، ومن صناع المشكلة الثقافية التي تكاد تكون مزمنة اليوم .

مهما تعددت الرؤى في موضوع (المشكلة الثقافية) حديثا بالجزائر ، أو اختلفت زوايا الرؤية إلى الخلفيات المتناقضة المتداخلة : فإن الحقيقة القائمة هي أنها نبعت من تسيّب سياسي ، وفراغ فكري روحي في سياسة الدولة ، في موازاة تناقضات سياسية واجتماعية وايديولوجية ، وفروق اقتصادية واجتماعية حادة جدا ، أسهم النظام نفسه إلى أبعد حد في صنعها : جهلا وعمدا في الوقت نفسه ، بفعل القوى العاملة في الظل وراء الواجهات السياسية في النظام الذي أفسح المجال لقوى داخلية وخارجية لتمد الحياة الوطنية بمختلف المواد السامة ، في نسيج أزمتنا وإبداع في صنع (المشكلة الثقافية) لدينا التي بدأت تنمو بذرة هجينة في ظل الاحتلال الفرنسي منذ (١٨٣٠) ثم شرعت تنمو حتى تبلغ هذا الأوج في آخر عشرية من القرن العشرين ، ابتداء من (١٩٩١) بإدانة أجنحة سياسية و حزبية (الديمقراطية) نفسها التي أتاحت لها هذه الديمقراطية الحركة والحياة فأقدمت على إعلان العصيان المدني ، وإعراب أجنحة أخرى عداءها لثوابت الأمة : لغة ودينا (العربية والإسلام) بشكل استفزازي لمشاعر الشعب .

صانعو الأزمة في شكلها الثقافي يمكن تصنيفهم في ثلاثة أطراف ، هي الأثافي الثلاث التي أنجزت مهمتها في مراحل : على مهل ، حين غُيِّبت الإرادة الشعبية في سياسات عرجاء ، رغم حضور الحس الوطني الطاهر الذي كثيرا ما وضع ثقته فيمن لا يستحقونها ، في السلطة أو في المعارضة المستترة والمعلنة في النهاية .

أولاً :

أولى الأثافي الثلاث التي نصبت عليها (قدر) المشكلة الثقافية في (الجزائر) هي (السلطة) بهيمنتها على كل شيء ، حتى انتهينا في آخر عشرية القرن العشرين إلى وضع لا نحسد عليه ، وقد اهتز كل شيء : سياسيا ، واقتصاديا ، واجتماعيا ، وفكريا ، ونفسيا ، فتجسد ذلك كله في روحه ،

وخلاصته (المشكلة الثقافية) التي لم تعرفها (الجزائر) قط في تاريخها الطويل ، بهذا الشكل العدائي السافر لتماسك أمة : لغة وعقيدة ، منذ أكثر من ثلاثة عشر قرنا ، حين اندفع ابن هذا الوطن نفسه يرفع راية الإسلام فاتحا ، وينشر العقيدة مبشرا بلغة القرآن ، منافحا عنها ، بل إماما وحجة في الإسلام، ورائد فكر ورأي في التأليف بلغة ا لقرآن : نحوا ، ودينا ، وشعرا ، وتاريخا.

بدأ الانحراف بتطرف (الدولة) وقد خيل (لرجالها) أنهم وحدهم يملكون ناصية الحقيقة ، كما يملكون وحاشيتهم السياسة والمال ، وهذه ليست حالة جزائرية ، بقدر ما هي حالة عربية إسلامية تتجسد في « تطرف قائم في الوضع الاقتصادي والسياسي الجاثم على العالم العربي والإسلامي ، والذي يتحمل الغرب كامبريالية واستعمار ، وكمساند لمؤسسات الظلم والقهر جزءا أساسيا من المسؤولية في ما يطبعه من تدهور ، وما يستشري فيه من أزمات » . (٣٢)

وقد نصّبت قوى الغرب هنا وهناك وهنالك وصيا على أمة كوصية قاصر على راشد ، فحتى الدين بات حكوميا ، ينفذ (أشباه العلماء) فيه أوامر إدارية ، مما انجر عنه سحب الثقة الشعبية من (العلماء الحكوميين) الذين يدعمون حكاما غير شرعيين ، ربما كانت في (الجزائر) شرعيتهم (كاريزمية) مؤقتة ، قائمة على الإعجاب وعلى الثورية ، وهي شرعية سطحية ، كما مثلها (أحمد بن بلة) و (هواري بو مدين) بعد انتقال (الهالة) من (الأول) إلى (الثاني) الذي دعم شرعيته الثورية بالتي هي أعنف حتى خيل لنا أنه مثل في الحزم والحسم ، وقدوة للشباب في االشجاعة والجرأة والإقدام ، وتحدي الأعداء ، وفي مقدمتهم (فرنسا) وهو يقصّر من أجَلِ القاعدة العسكرية في (المرسى الكبير) ويؤمم البترول ، ويقتلع الكروم الخاصة بإنتاج الخمور ، مما جعل وفاته صدمة لهؤلاء الشباب، فأحسوا كأنه كان سقفا يحميهم من (الحر) و (القر) قد عصفت به الأنواء .

هي شرعية قائمة على ضروب من التقديس تشبثا وطنيا شعبيا بمُثُل لم يكن النظام في جوهره يتوفر عليها ، كما يتوق إليها الحس الشعبي الوطني الطاهر ، ذو الذهن الخالي مما يدور في بؤر الصراع السلطوي .

ومهما كانت وطنية المسؤول الأول على رأس النظام فإن الإنحراف

الإيديولوجي في السلطة كان ينتشر بشكل وبائي ، أو كخلايا سرطانية تتناسل، متفاعلة بهدوء في مختلف الاتجاهات ، فانقلب المسؤول الأول إلى مجرد واجهة ذات شرعية كاريزمية ثورية ، تقبع خلفها قوى إجرامية مستغلة مواقعها لما هو غير شرعي قلبا وقالبا ، حيث كانت تصنع معاناة (الجزائر) وتحاك خيوط التآمر عليها : سياسيا وإيديولوجيا وثقافيا في البداية والنهاية ، مما كانت تتسرب رائحته من حين إلى آخر خارج الستار ، فتدفع المواطن إلى التساؤل وربما الاحتجاج بمستوى أضعف الإيمان ، فيمكن ذلك لتوجّس الحكام من الشعب بدل التوجس من الحاشية الفاسدة وراء الواجهة (العجائبية) الخادعة والمضللة .

وإذا كنا نعرف أن مَنْ وراء تلك الواجهة معظمهم (صناعة فرنسية) هوى وفكرا ولغة وايديولوجيا وانتماء حضاريا : أدركنا فداحة ماكان يخطط الأعداء للوصول إلى أهدافهم عبر رجالهم وراء الواجهة التي تخدّر المواطن بمهابتها الثورية ، وعجائبيتها الكاريزمية ، فنزهها حتى عن شرور قاتلة كانت تنجز باسمها ، حيث كانت المشاريع الوطنية تلقى مصارعها ، وقد أعدّ القابعون خلف الواجهة المبررات لتلك المصارع ربحا للوقت ، كما كانت الخطط التآمرية تتوالى كي ينجزها (اللوبي) العميل ، مرحليا ، للمدى البعيد ، للوصول إلى سنة (١٩٩١) وحتى (١٩٩٨) والآن ، وقد يكون القادم أسوأ إن لم يجد الله برحمته ولطفه .

النظام بمواقفه المتذبذبة والمتناقضة ثقافيا ، وتطرفه سياسيا واقتصاديا واجتماعيا وحتى في إملاء قرارات عشوائية بفعل رجال الخفاء وراء الواجهة: أسهم بشكل جوهري في صنع الأزمة ابتداء من (ابن بلة) الذي انطلق يتشدق بالاشتراكية ، ويهدد ذوي الثراء بمصادرة ثرواتهم بتعبيره «تذويب الشحمة » لتنمو تلك « الشحمة » على أرداف أتباعه وبطونهم ، كما تشدق بالعمل على فرض التعريب ، بينما حوله في قصر الشعب ترسانة فرنسية : فكرا ولغة ووطنا أيضا ، ومستشاره الشيوعي الأمي يتقاضى راتبا يفوق رواتب عشرة أساتذة جامعيين مجتمعين ، مع إعفائه من رسوم الهاتف والكهرباء والماء ، والتوفر على سيارة حكومية مما لا يحلم به الأستاذ الجامعي الأكاديمي المثقف ، وينعم به مستشار يساري شبه أمي ، صار هو الدولة ، وله الرأي النافذ في الوزراء ،

وفي سائر المسؤولين والمجاهدين أنفسهم ، وفي مقدمتهم (العقيد الهواري بو مدين نفسه) الذي كان نائبا لرئيس الجمهورية ، ووزيرا للدفاع .

الإرادة الثقافية المصرح بها في عهد (بن بلة) لم تشرع في التبلور بشكل ما إلا في الجانب التعليمي مراعاة للحس الشعبي المتحمس لإحلال الثقافة العربية الإسلامية الحديثة محل ثقافة فرنسية دخيلة ، غير أن هذه مضت تقاوم بعنف ، فهيمنت على الإدارة الجزائرية ، ولم تكتف بالدفاع عن مواقعها ، بل اقتحمت مواقع جديدة بفعل رجال ما وراء الواجهة ، اقتحمت مواقع من تشييد (الاستقلال) من بينها قلعة علمية هي (المدرسة الوطنية للإدارة) التي شيدت في السنة الأولى من الاستقلال ، كمؤسسة جامعية متخصصة راقية ، فهي جزائرية شكلا فقط ، كما قرر رجال الخفاء لتكون فرنسية لغة ومضمونا ، فلم تتضمن لا شعبة عربية بسيطة ، ولا حتى (العربية) كمادة ثانوية ، باستثناء الفرع الدبلوماسي فيها ، وهو استفزاز صارخ لأمة ثارت من أجل هويتها ، لكن رجال الخفاء اتفقوا على أن التعريب « لن يدخل الإدارة الجزائرية في يوم من الأيام ... » .(٣٣)

أشكال الانحراف هذه مما استغله (بو مدين) للإطاحة (بابن بلة) سنة (١٩٦٥) مدينا في خطابه (الحكم الفردي) مما جعل رجال التربية والتعليم المعرّبين أول من بارك (الانقلاب) في بيان لهم ، غير أن (بو مدين) لم يكد يمسك مقاليد الأمور بقبضته الحديدية حتى سقط فيما آخذ عليه سلفه ، ولم تكد هالة الإعجاب والتمجيد تلفه حتى غدا بدوره واجهة تستغلها القوى التدميرية ، عليها يعتمد ، وبها يحتمي في مختلف المواقع المؤثرة ، وهي قوى ذات ولاء في معظمها للغرب ، يحتفل رجالها بالمناسبات الفرنسية (كأعياد الميلاد) ولا يعنون بالمناسبات الجزائرية إلا من باب الاستفادة مما تمنحه من راحة في عطلة مدفوعة الأجر .

في هذا المناخ نفسه الملوث بكل الآفات التي تتفاعل في هدوء كانت خطب (بو مدين) تدوّي ابتداء من عزمه المعلن ، وصرامته في فرض اختيارات الأمة ، كالتعريب بمضمونه الحضاري ، معلنا في صخب إعلامي متشنج ميلاد الثورات الثلاث (الصناعية) بقيادة (مركب الحجار) في (عنابة) و (الثورة الزراعية) القائمة على تأميم الأراضي من أصحابها المالكين الشرعيين ،

وإعطائها لمن (يزعمون) خدمتها ، ثم (الثورة الثقافية) التي هلل لها (الانتهازيون) من دون وعي ، بمن فيهم المسؤولون الكبا ، حتى اقتصر فهمهم للثورة الثقافية على « مجانية التعليم وإجباريته» . جرى ذلك غير بعيد على أجواء (الثورة الثقافية) في (الصين) التي أعلنها (ماوتسي تونج) دقيقة: لغة ورؤية وفكرا ، وإن كادت تأتي على الأخضر واليابس هنالك ، وكان أول ضحاياها المسلمين الصينيين .

أما ضحايا الثورات الثلاث في (الجزائر)فهو الوطن والشعب المخدر بالخطب الرنانة لرئيسه المغرر به ، المخدوع بفرق مدججة حوله ذات ولاء فرنسي، كانت تنسج بدقة مشكلة (الجزائر) وتحفر لها الخنادق ، فكان إصغاؤه لها من دون سواها ، وهذا (السوى) هم الوطنيون المخلصون ، فمن (الحجار) أخرج من أسماهم (بذوي العمائم) وحين همَّ بتطبيق (الثورة الزراعية) كان رأيه هو (النافذ) ولم يصغ للنصح الصادق ، كان يصغي للدجالين ، وعندما (توعّد) أعداء التعريب بتاريخ (١ جانفي ١٩٧١) زين له اللوبي (الفرانكفوني) بمختلف امتداداته صرف النظر عن الأجل المضروب ، فكانت الطعنة التي أحسسناها موجعة ، في عهد (حاكم) توسم الشعب فيه خيرا لتكوينه العربي الإسلامي الأساسي أولا، ولأنه على عكس سلفه قضى معظم (سنوات الجمر) على خطوط النار ، وفي الخنادق والجبال ، بينما لم يعش سلفه (المعركة الجهادية) إلا على شاشات (التلفازات) .

قدر (بو مدين) الحس الوطني ، ثم انقلب عليه بفعل (اللوبي) نفسه الذي كان حول سلفه في الحكم ، مع اختلاف محدود في الوجوه فقط ، وبعض المواقع ، المتكون معظمه في الأساس من إطارات مشبوهة، من أعوان (فرنسا): لغة وفكرا ، وتكوينا ، على حساب المواطنين ، والمجاهدين الشرفاء ، مما هيأ لانحراف (أشباه المجاهدين) أو (أدعياء الجهاد) كأشباه (المعربين) ، فاللغة العربية التي كانت لغة العمل السياسي والعسكري نفسه في الجبال إبان الثورة ، تتراجع في الثكنات لصالح الفرنسية ، وكلمة (الله أكبر) الجهادية التي كانت إيذانا ببدء المعركة في قمم الجبال وسفوحها صارت مصدر تهمة ، و (المجاهد) الضعيف الإيمان خصوصا ، الذي كان يؤدي صلاة (الخطر) أو (الخوف) في الجبل ويده على الزناد تحت لعلعة الرصاص ودوي القنابل ، صار

(سكيرا) بعد (الاستقلال) يطلب رخصا لفتح (الحانات) ، تصرف الناس عن الصلوات ، فنمت شريحة ممن يصدق عليهم تعبير (خَلْف) لقوله تبارك وتعالى : « فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات » . (سورة مريم : الآية : ٥٩)

ومضى النظام في الانحراف (المتطرف) بالتنكر لتضحيات الأجيال ، خضوعا لنفوذ (اللوبي) القابع وراء الواجهة ، المتجذّر في مختلف المواقع في الإدارة الجزائرية الوطنية ، يضرب كل مشروع وطني قومي ، مع العمل للتمكين لنقيضه ، هنا نصل إلى (الأثفية) الثانية .

ثانيا :

الأثفية الثانية هي ذات الضلع الأكبر في صنع (المشكلة الثقافية) في (الجزائر) متجسدة في التيار اللائكي (العلماني) ذي القرون الثلاثة (الفرانكوفوني - الشيوعي - البربري) التي نمت في كنف النظام كشجرة شوك ذات فروع مرة ، كقوى شريرة لإثارة النزاعات والصراعات عاملة في ركاب الاحتلال الفرنسي ممكنة له ، منفذة للسياسة (البربرية) التي أبدعتها (فرنسا) وتبنتها عناصر عميلة في الأربعينيات ، برعاية (الحزب الشيوعي الفرنسي) في (الجزائر) وعمل (الاندماجيين) الذين آمنوا في كل الأحوال بألا خيار للجزائر إلا (الحياة) في كنف (فرنسا) الاستعمارية .

إن اختلفت السلطة في عهد الاستقلال ، فإن مواقع هذا التيار لم تهتز قطُّ ، بل مضت مع الأيام تتدعّم ، وتستغل ذلك لضرب المشاريع الوطنية ، والتمكين للمشاريع الاستعمارية ، متابعة للمهمة الاستعمارية ، فيتكرس العمل بالفرنسية ، بل تستعيد هذه مواقع فقدتها ، كما نهضت لحمايتها من الإجلاء (البربرية) كدركي حام للفرنسية ، بروح استعمارية عنصرية ، بقيادة لفيف من عناصر هذه الأثفية الثانية ، وفي مقدمتهم (مولود معمري) الذي كان يسطو على بحوث أوروبية ، ويوظفها ، تدريسا ، و (إشهاريا) وهو ذو الوجهة الفرنسية وأخوال الأولاد فرنسيون ، ولا مجال (للأمازيغية) في بيته نفسه ، إنه يريدها شعارا في وجه (اللغة العربية) ذات العزم الشعبي في أخذ موقعها الطبيعي في أمة تحددت هويتها الجامعة لها (عربيا وإسلاميا) منذ أكثر من ثلاثة عشر قرنا .

هما العنصران اللذان ركز هذا التيار على ضربهما معا ، انطلاقا من ضرب العلاقة بينهما ، فأمثال الحَركي (كاتب ياسين) يرى الإسلام في (الجزائر) استعمارا فرض العربية ، وفرض التخلف ، حتى تساءل يوما ساخرا: « أما آن لهذه المآذن أن تطير ؟ » كما ثنّى بمسرحيته المبتذلة «محمد خذ حقيبتك : «Mohamed Prend ta valise » على اجتثاث العربية مع روحها (الإسلام) مرموز لهما باسم (محمد) أي على ثمانين أو خمس وثمانين في المئة عليهم أن يغادروا (الجزائر) لصالح خمسة عشر في المئة ، وهو رجل منافق ، في (فرنسا) يصير (محمد) عربيا مهاجرا ، في مسرحيته ، وفي (الجزائر) يصير (محمدا) أمرا آخر ، أي العربية والإسلام ، ويسيء للإسلام بإشارات بذيئة بين أبطال المسرحية ، من خلال (مشعوذ) يزعم العلاج بالقرآن فيطلب من متبرجة تبحث عن حل لمشكلة لها أن تذهب إلى الحمام ، وتتطيب ، وتقبل عليه ، ليكون الشفاء على يديه . فيقدمها (كاتب ياسين) في حركات بذيئة ، وقد لاحظته بجوار الخشبة أثناء عرض المسرحية سنة(١٩٧٦) في (برج منايل) واقفا يترنح في حالة سكر، مقدما من خلال (أبطاله) صورة شوهاء عن الإسلام ، منتقيا لذلك شخصية دينية ، سلوكها يناقض صفتها ، ليقول : إن هذا هو (الإسلام) الذي ينبغي (هجره) وهجر أولئك الذين أتوا باسمه (العرب) فأنطق أحدى الشخصيات بذلك لفظا صريحا « العرب جاؤوا باسم الإسلام » وهنا اختنق (الممثل) والقاعة تلجمه بصوت هادر ، يتلخص في العبارة التالية : «بالإسلام جاؤوا وتألقوا وسادوا ، وسيبقون » إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

كان هذا الرجل (كاتب ياسين) مصابا بضرب من (هستيريا الحقد) لازمته حتى موته ، منبوذا من منطقته في (شرق الجزائر) لهذه الأفكار ، التي وجدت قبولا كبيرا لدى مسؤولين ، من رجال (الخفاء) وحتى رجال (الواجهة) ولدى فئات في (تيزي وزّو) حيث يلتقي فيها (كاتب ياسين) و (مولود معمري) الذي اتفق وإياه على إشعال (منطقة القبائل) ردا على تعريب وثائق (الحالة المدنية) مع (وعد) من (كاتب ياسين) بتحريك منطقته في شرق الوطن التي نبذته فغدا كلبا مسعورا ، فكان افتعال المناسبة بمحاضرة (لمولود معمري) في جامعة (تيزي وزّو) منعتها السلطات المحلية لطابعها

التحريضي العنصري المكشوف ، ليستغلها (اللوبي) فورا فيحرك محيط الجامعة في (تيزي وزّو)، ويستدرج قوات الأمن للتدخل بالعنف ، لتكون أحداث (أبريل ١٩٨٠) التي كشفت أشياء كثيرة ، من بينها شبكة (العمالة) لفرنسا ، فالأحداث كانت تنقل كل دقيقة إلى إذاعة (مونتي كارلو) من (تيزي وزّو) ويعجز على ذلك غيرها ، بما فيها الإذاعة الجزائرية ، بل إن المحرضين على المظاهرات التي امتدت إلى الثانويات كانوا أيضا فرنسيين متعاونين ، وأتيح لي أن أشاهد يومئذ أستاذة لغة فرنسية في إحدى ثانويات المدينة تدفع طلبتها وطالباتها من الباب الخارجي إلى الشارع قائلة :«اصرخوا ، اصرخوا : تسقط العربية ، تحيا البربرية » باعتبار (البربرية) جارية زنجية للغة الفرنسية .

وحين اقتحمت عليّ إحدى فرق (التجنيد) للإضراب والتظاهر المدرًج في معهد اللغة العربية وآدابها ، في الجامعة نفسها ، طلبت مني إعطاءها فرصة لمخاطبة الطلبة ، وحين رفضت أكثر من دقيقة واحدة بشرط استعمال عربية (القاعة) أي التدريس استشاطت المجموعة غيظا ، فنهض إليها الطلبة وطردوها شر طردة .

أما حين انتهت المحاضرة ، وخرجت فذهبت إلى مدير معهد اللغة العربية في المبنى نفسه (رابح اسطنبولي) لأعلن له سوء الحال الذي صنعه الأنذال ، فبادرني هكذا قائلا : وأنا أدخل قبل الجلوس : « أريت ياسي عمر ، النظام ارتكب أخطاء منذ الاستقلال ، وعليه الآن أن يدفع ثمن هذه الأخطاء العشوائية في التعريب المستعجل » ، فغم عليّ تماما وأنا أرى الرجل في صورة جديدة ، صورة المنافق الدجال ، الذي يتصيد مصالحه ، وأكدت لي الأيام صدق هذا التصور ، وأنا ألتقيه بعد ذلك في (باريس) سنة (١٩٨٣) معلنا استعداده لأن يكون يهوديا أو نصرانيا إذا كان (الدفع) جيدا ، قال ذلك ردا على تعليقي : على المبشرين المسيحيين في (فرنسا) الذين يستدرجون المغتربين إلى (المسيحية) حيث كان العمل يجري بالقرب منا لبناء كنيسة ، وهو واحد من العاملين وراء الواجهة قبلا وبعدا ، حيث حظي براتبين أحدهما في (الجزائر) والثاني في (باريس) من (١٩٨١) إلى (١٩٨٧) تحت عنوان وهمي هو البحث العلمي ، برعاية الأمين العام لوزارة التعليم العالي ، ثم الوزير نفسه ،

لعلاقة وطيدة، فضلا عن شراء ذمته مبكرا للمساهمة في تهدئة الأوضاع بالجامعة ، وهو الأسلوب النفاقي ذاته الذي شارك به في ملتقى (إيعكورن) الذي رخص به النظام (المنافق) بعد أحداث تيزي وزّو ، فانعقد بالمركب السياحي بقرية (إيعكرون) بين (١ و ٣١ أوت / أغسطس ١٩٨٠ م) على نفقة النظام (المنافق) ليخرج بتوصيات تلغي تاريخ أمة بكاملها عبر ثلاثة عشر قرنا ، لإرادة (عصابة) ابتزازية ، تحت جناح نظام معوق ، مهترئ يتداعى لغياب (الرجال) وحضور (أشباه الرجال) وفي ديباجة تلك التوصيات أن (المشكلة الثقافية) في (الجزائر) في « غاية الأهمية تعود أسبابها إلى مايلي : -

- البحث عن هوية جزائرية حقيقية .
- العمل على ترقية لغة الوطن : الأمازيغية والعربية الجزائرية » .(٣٥)

نلاحظ هنا (هوية جزائرية) و (العربية الجنزائرية) أي العاميات الجزائرية كما كان يدعو إليها الفرنسيون المحتلون ويعلمونها أبناء (الجزائر) تحت هذا العنوان نفسه (اللغات الجزائرية) جرت أشغال الملتقي بالفرنسية وحدها ، وحررت تقاريره بها وحدها أيضا من دون سواها .

والملتقى السالف الذكر ، كشف سلبية النظام وضعفه ، وتواطؤه في الوقت نفسه ، كما كشف خطة العملاء ، وحقدهم ، مما شرع في النهاية يثير ردود فعل حتى في منطقة (القبائل) المتردد أبناؤها الفضلاء ، لكن بعض هؤلاء الفضلاء سرعان ما دخلوا بشجاعة وحماس فياض الميدان لمواجهة بيادق (أوروبا) لمصلحة وطنهم متماسكا قويا ، فمن ذلك مثلا - لا حصرا - مقال كتبه السيد (علي وعلي) من (بجاية) ونشره في جريدة الشعب بتاريخ (١٩٨٩/٦/٢٨) بعنوان : « أعتز بالذين أعزوا الإسلام واللغة العربية » ردا على الناعقين (بالبربرية) الحاقدين على (العربية) و (الإسلام) جاء فيه :

« لقد خرج الفئران من جحورهم وتلقحت جذور الخائنين التي قطعها جيش التحريرالوطني الباسل ، وحذت حذو آبائهم وأجدادهم في تبليغ رسالته المستدمرة التي فشل فيها مدة (١٣٠) سنة . وأصبحنا نسمع نعيق الغربان في عدة اتجاهات من وطننا الغالي .

أقول لهؤلاء جميعا ولأتباعهم الذين رضعوا لبن الاستدمار الفرنسي وثقافته

وأفكاره : أنا أمازيغي ، أفتخر وأعتز بطارق بن زياد وأمثاله في نشر الرسالة المحمدية في إفريقيا وأوروبا .

أنا أمازيغي ، أفتخر وأعتز بالأمازيغيين الذين احتضنوا الإسلام واللغة العربية في جبالنا الشامخة بجرجرة والبابور وبني ورتيلان وصدوق وخراطة وبجاية وتاموقرة وأكفادو .

أنا أمازيغي ، أفتخر وأعتز بسيدي عبد الرحمن اليلولي والمدرسة الحرة بأحريق وأمثالهما كثير في ولاية تيزي وزو .

أفتخر وأعتز بزاوية أوسحنون في أغزر أمقران والمدارس الحرة في أوزلاقن وبجاية وتاموقرة ، وأقبو وصدوق وأغرام وتازمالت وآيت عباس وأقمون آين خيار بولاية بجاية .

أنا أمازيغي أفتخر وأعتز بأمازيغية عبد الحميد بن باديس الصنهاجي الأمازيغي الذي قال :

شعب الجزائر مسلم　　　وإلى العروبة ينتسب

واقلع جذور الخائنين　　　فمنهمُ كل العطب

أنا أمازيغي ، أفتخر وأعتز بالأمازيغيين الذي كانو يشيدون المدارس الحرة بأموالهم الخاصة ليعلموا أبناءهم اللغة العربية .

أنا أمازيغي ، أفتخر وأعتز بالأمازيغيين الذي حافظوا على الإسلام واللغة العربية رغم الاضطهاد المسلط عليهم من طرف المستدمر الفرنسي وأعوانه الخونة.

أنا أمازيغي ، أفتخر وأعتز بأمازيغية الشهيد عميروش الذي كان يفتح المدارس للغة العربية في كل قرية حررها جيش التحرير الوطني . ويرسل قوافل الطلبة إلى تونس لمتابعة دراستهم باللغة العربية .

أنا أمازيغي ، أفتخر وأعتز بالأمازيغيين الذي احتضنوا مؤتمر الصومام ، أول مؤتمر لجبهة التحرير الوطني (النواة الأولى للدولة الجزائرية) مدة أسبوعين دون أن تكتشف ذلك القوات الاستعمارية بمخابراتها الواسعة .

أنا أمازيغي ، أفتخر وأعتز بكل الأمازيغيين من حدود مصر العربية إلى المحيط الأطلسي .

أنا أمازيغي ، أفتخر وأعتز بالأمازيغيين الذين يعتزون بالإسلام واللغة العربية ويبذلون الجهد لتوحيد المغرب العربي ، كما كان في عهد عبد المؤمن بن علي

الأمازيغي ، هؤلاء جميعا هم الأمازيغ الذين حافظوا على الهوية الوطنية من الانحلال والاندثار والذوبان ، فلنكن جميعا خير خلف لهم » .[(٣٦)]

هي شهادة من الميدان من بين (المئات) على إدانة الذين لهم ضلع في صنع (المحنة الجزائرية) عموما ، و (المشكلة الثقافية) خصوصا ، وقد تدثرت عناصر هذه (الأثفية) بالأمازيغية خادما للفرنسية ، وشرع يدرسها مبكرا في السبعينيات في إطار غير قانوني بالجامعة المركزية نفسها (مولود معمري) كلغة (إيديولوجية) بروح عرقية تشنجية ، تزرع في النفوس روح التعصب والحقد والضغينة ، تجندا في واقع الحال للدفاع عن موقع متميز للفرنسية وحضارتها المهددة بالإرادة الشعبية الطامحة لرأب الصدع ، في حياة ينصهر فيها جميع الجزائريين ، كما كانوا في مجال حضاري ، منطوقه: العربية وروحه الإسلام ، بعد التشويه الذي لحق بالأمة ، فأصابها في أكثر من جانب ، فشلّ قدراتها ، وبدّد طاقاتها المختلفة : المادية والبشرية ، والمعنوية ، وهو ما حاولت أن تنهض به القوى الوطنية المتوثبة ، لكنها القلقة ، المشتتة ، المحاربة من (النظام) نفسه سرا غالبا ، وعلانية نادرا ، تؤازره القوى (الفرانكفونية) المسيطرة على مواقع (القرار) و (التنفيذ) في أجهزة الدولة ، التي باتت في الظروف الصعبة أجهزة مشلولة حين يقتضي الحال (خير الجزائر) وهو (الخير) الذي لا تريده قوى البغي المهيمنة في الإدارة كأخطبوط أسطوري ، لا نعرف له رأسا من قدم .

ثالثا : التيار الوطني الإسلامي

التيار الوطني كان يتبلور عفويا ، من دون أدنى تنظيم ، وهو الأغلبية الممتعضة لكنها المسالمة ، المناوئة في الوقت نفسه لنفوذ التيار (اللائكي) وشراسته في تحدي مشاعر الأمة وإرادة الأغلبية ، وهيمنته في مواقع صنع القرار ، تحت حماية (النظام) لأنه هو النظام ، بكل رعونته ، وسلوكه غير الأخلاقي : سياسيا ، ووطنيا ، وثقافيا واجتماعيا ، لتلاعب هذا النظام بمشاعر الجماهير الوطنية ، وسقوطه في التناقض المكشوف بين الأقوال والأفعال ، مما أحدث رد فعل سلبي لدى التيار الوطني الممثل الشرعي للشعب ، وهو الرد الذي تأخر كثيرا ، رغم أنه اكتشف مبكرا أن النظام السياسي العجائبي غدر به، ممكنا على حسابه أي حساب الأمة والوطن لكل أولئك الذين تجاوزتهم -قبلا-

الجزائر الثائرة (١٩٥٤ - ١٩٦٢) وأحالتهم إلى (قمامة التاريخ) ، فدخل التيار الوطني في مواجهة الطرفين (اللائكي) وحاميه وسنده (النظام) بكل ترسانته في الأجهزة المختلفة : (الأمنية) والسياسية ، والإعلامية ، والاقتصادية .

أحس التيار الوطني بالوجع المؤلم ، وهو يدرك (المؤامرة) ويلمح بذور الخيانة التي نبه إليها الشيخ (محمد البشير الإبراهيمي) مبكرا (١٩٦٣) وهو يعلن في بيان وزع في العاصمة (الجزائرية) إدانة النظام الذي يندفع نحو الهاوية ممتطيا (حمار الشيوعية) متوكئا على أذناب الاحتلال المتغلغلين في مختلف أجهزة الدولة، ولم يكد يلوح الأمل في انقضاض (بو مدين) على السلطة ، حتى شرع يتلاشى بشكل واضح من خلال قرائن مختلفة ، في ظروف عديدة ، مثلما جرى في خريف (١٩٧٠) حين خرج الطلبة الوطنيون في (جامعة الجزائر) المركزية في مظاهرة سلمية حاشدة خطط لها السير من (جامعة الجزائر) إلى (قصر الحكومة) على بعد بضع مئات الأمتار لمطالبة رئيس مجلس الثورة (بو مدين) باتخاذ الخطوات المعبرة عن الوفاء للشهداء ، وكذا الوفاء بوعده في تطبيق التعريب .

لكن المظاهرة السلمية لم تكد تصل مقدمتها إلى منتصف شارع (خميسي) عبر شارع (ديدوش مراد) مرورا بالبريد المركزي حتى دخلت في اشتباك عنيف مع الشرطة المجهزة بالعصي والمجنزرات ، وخراطيم المياه ، وسمعنا من رجال (الشرطة) الشتائم البذيئة تنهال علينا مع عصيهم بحقد أعاد إلى ذهني صورة الشرطي والعسكري الفرنسي الاستعماري ، وهذا الحقد لم يسلم منه (بو مدين) نفسه وعصي (الشرطة) تمتد لصورته المرفوعة في مقدمة (المسيرة) فمزقتها تمزيقا لتشتيت المظاهرة ، وهو ما يقيم الدليل على أننا وجدنا أنفسنا أمام طبعة جديدة للبوليس الفرنسي ، ففجر الموقف غضب الشارع الجزائري ، وأعطى دفعا قويا للتيار الوطني الذي شرع يتنامى برؤية جديدة .

والتيار الوطني بطبعه مرن عقلاني ، وسطي في تفكيره وسلوكه ، غير متطرف ولا اندفاعي متهور ، غير أن العقلانية باتت كأنها غير مجدية ، أمام (تطرف السلطة) في فرض إرادتها بالحديد والنار ، و (التطرف الفرانكفوني

اللائكي) المؤمن بأحقيته في الاستحواذ على السلطة والمال والنفوذ واستئصال غيره ، مما صعد روح التحدي وشراسته في التيار الوطني : الذي ولدت من صلبه (الحركة الإسلامية) بطبيعتها الصدامية التي سرعان ما تحولت مع مرور الأعوام إلى تطرف يعتبر (الأثفية الثالثة) بحق مستجيبا للمثيرات والاستفزازات من التيار (اللائكي) و (السلطة) حاميته ، جريحا ينزف بما يصيب هويته : عقيدته ولغته من إهانة وإذلال ، فشرع يعبر عن نفسه بعناد شرس ، بل بعنف - تضايق منه التيار الوطني ذاته - وهو العنف الذي تحول إلى شكل تدميري ، للذات ، حرصا منه على محاصرة مصادر الداء في (النظام) وفي الفعل الاستفزازي الوقح للتيار (الفرانكوفوني ، الشيوعي البربري) المتعجرف ، حتى انتهى في الأخير إلى انحراف مقيت عزله عن (الشعب) وعن منبعه نفسه (التيار الوطني) .

الخلاصة :

هنا تفاعلت أشكال التطرف إذن بين الأثافي الثلاث ، فأنجبت قوى متطرفة جميعها ، تطرف النظام وصلفه في فرض إرادات متناقضة مع طموح الأمة ، إلى جانب التطرف (اللائكي) الذي يسمى (علمانيا) المتجسد في رؤوسه الأفعوانية الذي بكر بممارسة العنف ، بل (الإرهاب الفكري، واللفظي) فحرك ذلك رد الفعل الوطني بأشكال عديدة ، أنجبت (التيار الإسلامي) الذي سرعان ما تحول عمله إلى تطرف غير عقلاني ، ضاق به منبعه نفسه ، وقد ولد هذا التيار : قويا شرسا ، وتطور بقوة ديناميكية جريئة ، وهو يعلن مبكرا المواجهة ، خصوصا بعد دستور (١٩٨٩) الذي كان البداية الفعلية لديمقراطية شوهاء ولدت ولادة قيصرية انطلقت فيها الأثافي الثلاث جميعها كقوى متطرفة متصارعة ، أثفية النظام الحريص رجاله على أبهتهم ومكاسبهم ، وامتيازاتهم ، وأثفية التيار (اللائكي) بقرونه الثلاثة ، الرافع لشعار (البربرية) لحماية (الفرنسية) ، و (الديمقراطية) لحماية (اللائكية) وأثفية التيار الإسلامي الجريح بما لحق الأمة من إهانة في لغتها الوطنية ، ومعتقداتها الدينية ، وقيمها الاجتماعية .

وبين هذه جميعا بدأ (الإرهاب) فكريا ، ولفظيا ، لينتهي إلى مواجهة مسلحة تمارسها الأثافي الثلاث جميعها ، بلعلعة الرصاص ، فبات الجو ، جو حوار إرهابي باللفظ وبالرصاص عن الهوية بمضمونها اللغوي ، والديني ، ونظام الحكم ، و (مشروع المجتمع) فحرّف جناح في (التيار الإسلامي) مضمون المنبع الذي صاغ المجتمع الجزائري وجعل منه شعبا متكاتفا له قيمه منذ ثلاثة عشر قرنا ، وحرّف (التيار اللائكي) الهوية ، دفاعا عن الانتماء لأوروبا عموما ، ولفرنسا على وجه الخصوص : فنادى بمشروع مجتمع حسب تنظيراته المستمدة من الغرب ، بتبن فرنسي واضح ، كما حرّف النظام حياة الأمة ، وانحرف عن المواثيق الوطنية الرسمية ، ابتداء من بيان (أول نوفمبر ١٩٥).

وهكذا تمحور الصراع حول (الموضوع الثقافي) بأبعاده السياسية التنظيمية ، الاجتماعية ، واللغوية والدينية ، مما أنتج (مشكلة ثقافية) حقيقية ، خلخلت ثقة المجتمع في نفسه ، وتاريخه ، وإنجازاته ، في غياب الشخصية الوطنية الفذة النموذجية المهيبة كقدوة تحتذى ، فضاع الشباب نفسه

في التيه ، وسدت الآفاق في وجهه ، فبات عرضة لكل حاطب يتخذه وقودا لهواه ، وتنفيذ خططه وأغراضه غير البريئة أبدا.

من كل الحيثيات السابقة وسواها يتضح أن المشكلة الثقافية في (الجزائر) إبداع فرنسي ، فلم تعرف (الجزائر) المشكلة قط ، عبر تاريخها الطويل ، لا على المستوى العرقي ، ولا اللغوي ، ولا الديني ، ولا على مستوى الحياة الاجتماعية في العادات والتقاليد والانتماء ، حتى جاء الاستعمار الفرنسي فأبدع فكرة (عرب) و(بربر) و (لغات جزائرية) حين كوّن (طابورا) من (ا لجزائريين) ذوي القابلية للاستعباد والتبعية منساقين لمسخ تاريخ أمة ، فمسخهم الله وحدهم وقضى معظمهم نحبه منبوذا ، تحت صقيع النسيان في (أوربا) بعدما بكرت (الحركة الوطنية) لحسم القضية بالموقف في الأربعينيات ، ثم توجته بالحسم النظري في المواثيق الوطنية ، ابتداء من أول نوفمبر ١٩٥٤ حتى دستور ١٩٩٦ م .

ولم تطل المشكلة منذئذ ، لأن معظم الجزائريين يعرفون عدوهم الذي هو راعي اللغة (البربرية) أو (اللغات الجزائرية) مع التركيزأولا وأخيرا على منطقة (القبائل) ، كما يعرفون أنه الساهر على خلق نعرة (بربرية) في وجه أخرى (عربية) ، مثلما يدركون أنه المحفز على إبعاد الدين واللغة من حياة الأمة ، وضرب العلاقة بشكل خاص بين (العربية) و (الإسلام) لأنهما معا غير مفصولين فهما قمة الانتماء لفضاء حضاري مناهض بالضرورة للفضاء الأوربي المطروح كبديل في مجتمع غريب عنه .

أما حين توارى هذا العدو وراء (تيارات) ورجال له من (العبيد) فقد نسيه المواطن الجزائري حتى خيل إليه أن (المشكلة الثقافية) جزائرية لا يد فيها للاستعمار ، خصوصا في ظروف شرعت تتكرس فيها (ثقافة النسيان) ضمن التشويه الذي أصاب قيم (الوطنية) و (الجهاد) زيادة على أن المواطن بات يعول على الدولة في حماية هويته من (العدوان) . ومما زاد الطين بلة (تدجين) بعض رجال القلم من الكتاب بالعربية أنفسهم، فأسهموا في تزييف الوعي الوطني بصمتهم ، ومؤازرتهم النظام مع ضيق المساحة للرأي أمام الأقلام العربية الراغبة في تغيير المنكر بالكلمة، بينما تتسع تلك المساحة خصوصا في

الصحافة (الفرانكفونية) ومن الشواهد على ذلك حملة (مصطفى الأشرف) على (العـرب) و (العـربيـة) و (التـعـريب) في النصف الثـانـي من (السبعينيات) واعتلائه كل المنابر التي أغلقت أبوابها في وجوهنا ، ولم نقتحم بعض الزوايا إلا بصعوبة في إطار محدود .

هذا بشكل عام عن المناخ المصغر من عناصر غير مباشرة ، أما العوامل المباشرة فهي كثيرة ومختلفة أستطيع أن انتقي منها نقاطا سريعة معينة ، فلعل أول تلك العوامل التي أسهمت في تأزم (المشكلة الثقافية) عدم احترام المواثيق الوطنية بما فيها الدستور ، وغياب الرجال الشرفاء المخلصين في كل المواقع للسهر على العمل بها وتطبيقها ، مع الانضباط السياسي والإداري ، وكذا انعدام الحس المدني فضلا عن الوطني .

في هذا السياق أُجهِض قانونُ (١٩٦٨) الذي يحدد أجل الشروع في تعريب الإدارات ، والمؤسسات بتاريخ (١ جانفي ١٩٧١) وكذلك تعليق قانون (تعميم استعمال اللغة العربية) الذي أصدره (المجلس الوطني الشعبي) سنة (١٩٩١) ليعلقه في حكم الإلغاء (المجس الاستشاري) غير الشرعي حتى بدت السلطة (ديماغوجية) في كل شيء ، في قوانينها مثل عملها ، فيبدو البون كبيرا في (السياسة) بين (الخطاب المدوي) الفارغ لصالح القوانين ، وبين العمل الجاري المكثف لتجاوزها ، إلغاءً أو إجهاضا ، وهو فعل من صناعة (اللوبي الفرانكوفوني) سواء بشكل مباشر أو بشكل غير مباشر ، وهو اللوبي المنتشر بشكل سرطاني في أجهزة الدولة كلها ، ولم يكتف بالعرقلة والتعطيل ، بل عمل بجرأة و (وقاحة) على التمييع والتشويه المتعمد حتى لنصوص رسمية ، في مواثيقنا الوطنية التاريخية لخدمة أهداف معينة ، وهو التشويه الذي وصل إلى حذف ماله دلالة غير هينة في المواثيق الوطنية ، ففي ملحق (برنامج طرابلس) الصادر عن (المجلس الوطني للثورة الجزائرية) في (جوان ١٩٦٢) ورد في مطلعه : « حزب جبهة التحرير الوطني الذي ولد في خضم المعركة جمع في صفوفه كل الطاقات الحية للشعب ، تسربت إلى صفوفه عدة اتجاهات تحمل إيديولوجيات ومذاهب مختلفة » .

هذه العبارة أسقطت عمدا عند إعادة طبع هذه النصوص بعد الاسنقلال ، في (وزارة الإعلام) تحت عنوان (ملفات وثائقية) سنة (١٩٧٦) ، وقد

حلت فيه أيضا كلمة (أمة) محل كلمة (شعب) والعملية هنا ليست عفوية، بل جاءت في سياق زمني ، جعل لكلمتي (الأمة) و (الشعب) حساسية خاصة ، هذا يعني أن الأمر تزامن مع ذلك الدوي الذي أخذته كلمة (أمة) إبان مناقشة (مشروع الميثاق الوطني) حين أصر المواطنون على إثبات كلمة (الشعب) في الصيغة النهائية بدل (الأمة) لكوننا شعبا ، هو جزء من الأمة العربية ، وليس أمة ذات شعوب وأعراق ، هدر بهذا الملايين في (التلفاز) و (الإذاعة) و (الصحافة) المكتوبة ، والمهرجانات المختلفة، في الساحات ، والقاعات الكبرى بمختلف الولايات الجزائرية ومدنها .

لكن التيار (الفرانكفوني) بقيادة أحد منظريه في لجنة الصياغة النهائية للميثاق بعد (المناقشات) أصر على إثبات كلمة (أمة) متجاوزا الإرادة الشعبية التي حملتها التقارير المختلفة ، معللا إصراره بألا فرق بين الكلمتين ، فأثبتهما في الوقت نفسه معا هكذا (الجزائر شعب وأمة) ليضيف النص بعد نحو سطرين «والأمة ليست تجميعا لشعوب شتى ، أو خليطا من أعراق متنافرة » .(٣٧)

فالتلاعب بالمصطلحات من أساليب (التيار الفرانكفوني) و (التيار الانتهازي) العامل دائما لمحو الذاكرة الوطنية ، الحريص على تكريس (ثقافة النسيان) التي بكرت (المواثيق الوطنية) نفسها للتحذير من الوقوع فيها ، ومن بينها (برنامج طرابلس) لكن (ثقافة النسيان) بكرت أيضاً بدورها في غزو العقول والقلوب ، بما فيها عقول الحكام : رؤساء ، ووزراء من الذين بات معظمهم تحت (الإرادة الفرانكوفونية) وهي الإرادة التي لم يسلم منها (المجاهدون) أو أشباههم الذين قد يكونون أبرموا (الصفقات المريبة) لمصادرة الإنجازات الكبرى للثورة الجزائرية لتكون ريعا (مشتركا) معنويا وماديا ،بين (أشباه المجاهدين) الذين رضوا بالامتيازات المادية (الممنوحة) مقابل الإفساح للأيدي (الفرانكوفونية) العابثة بتاريخ الجزائر النضالي ، وبجوهر هويته (اللغة العربية) لسانا ، و(الإسلام) عقيدة وسلوكا .

فحظي دعاة (الفرنسة) و (البربرة) دائما في هذا المناخ بحفاوة لدى بعض الوزراء فكانوا يتقاضون رواتب قارة نظير جهودهم (الثقافية) التي أسهمت على مراحل في تأزيم (المشكلة الثقافية) كحال (كاتب ياسين) و

(مولود معمري) نموذجا .

فكما أصاب التشوه (الثقافة) أصابها (قيمة) أيضا لانعدام سياسة ثقافية وطنية ، وتغييب رجال الثقافة الحقيقيين ، وتهميش آخرين ، حيث باتت شؤون (الثقافة) في أيدي غرباء عنها ، كما يعكسه وضع (وزارة الثقافة) نفسها من دون مثقفين ، وكذا (ممثلياتنا) الثقافية في الخارج ، حيث تكرس التوجس من (المثقف) وتهميشه ، حتى في القضايا الجوهرية التي تعنيه قبل غيره ، فحين جاءت الفكرة الحكومية بإعداد مشروع (سياسة ثقافية) سنة (١٩٧٨) كونت (جبهة التحرير) لجنة من (اتحاد الكتاب الجزائريين) من مختلف الاختصاصات و (التوجهات) من أعضائها ، جامعيون وأدباء (مثل : د. عبد الله شريط ، د. عماد طالبي ، د. أحمد عروة ، رشيد بو جدرة ، الطاهر وطار ، كاتب هذه السطور) وغيرهم .

ولم تتجاوز اجتماعات اللجنة جلستين فسحب البساط من تحت أقدامها ، ليموت المشروع كمشروع حقيقي ، ويتحول إلى فكرة هزيلة فقيرة تمطت بعد ذلك على صفحات نشرها شخص غريب عن الثقافة ، ليس فيها روح ثقافية حقيقية .

هو جانب من صورة للعبث الذي استهدف الثقافة ، تأتي طبيعية في مناخ كنا نرى فيه أميا تماما مسؤولا عن (الثقافة) في (دائرة) أو (ولاية) بل يقتحم (الجامعة) تحت جناح (جبهة التحرير) باسم (الثقافة) ويرأس لجنة من (أساتذة جامعيين) . حدث أن شاهدت بعضهم يصغي إليه (بإجلال) كما يصغي إليهم طلبتهم ، وفي مقدمتهم مدير معهد ضخم هو (د. مصايف) ، وهذه واحدة من أسباب مصارع (الثقافة) ، وهو ما كانت تهمس به (الصحافة) المكتوبة تارة ، وتصرح به تارة أخرى ، بمناسبة حدث ثقافي أو حتى عرض كتاب ، حيث نقرأ مثلا هذه الإدانة في صحيفة يومية « إن القطاع الثقافي بمختلف مؤسساته وضع بين فئات غريبة عنه ، أوكلت إليها مهمة تصفية الفن والثقافة ، وحولته إلى وكالات تعميم الرداءة القائمة على الفرقعات الفنية ، وسياسة التفقير والإذلال ، ووضع مؤسسات فنية كانت ذات ريادة بين أيدي مسوولين مقهورين ، بدون إرادة ومشروع ، وبدون كلمة أمام أصغر بيروقراطي على مستوى الوزارة الوصية ، بل عندما يتحول بعض هؤلاء إلى القائمين

بأعمال فناني درجة ثالثة لأغنية الرأي ...

إن مافيا الفن الجديد هي المستفيدة الأولى من هذه التقنية ، واستحالت على يديها كل القضايا الأساسية وذات البعد المصيري إلى سوق للمزايدة كاللغة العربية والأمازيغية والوطنية والإسلام والديمقراطية ، من أجل تجنيد كل طاقات الأمة لمآرب الزمر والعصابات الضيقة ، وعلى توظيف مؤسسات الدولة لصالح أنانيات الأشخاص » .(٣٨)

المؤهل الوحيد لهؤلاء (المحسوبين) على (الثقافة) كان (الانتماء) الحزبي (في جبهة التحرير) حين كان الحزب الوحيد الحاكم الذي سقط في أيدي (الانتهازيين) و (المرتزقة) و (الاستغلاليين) لكل شيء .

وعلى نفس الوتيرة استمر العمل في عهد التعددية ، فأسهمت الحزبية والحزبيون في عهد هذه التعددية الارتجالية والديمقراطية المتعجرفة خلال (التسعينيات) في العبث بمواثيق الدولة ، فالضوابط الدستورية واضحة ، لكن القوة الرادعة لحمايتها غائبة ، والقوانين نفسها باتت عرضة للعبث ، والدستور ذاته باتت بعض مواده عرضة للتعديل في أقل من عشرية .

انعدام الصرامة في تطبيق القوانين ، وغياب الرجال القائمين على الردع بسلطة (القانون) جعل هذه القوانين نفسها عرضة للانتهاك : سياسيا ، وثقافيا ، بما فيها (الديمقراطية) نفسها كمشروع ثقافي اجتماعي سياسي . هذا ولّد الشعور لدى المواطن نفسه بالاستهتار بالقوانين واللامبالاة بها كضوابط، فتعاظم هذا بفعل الأعمال العبثية الحزبية والعشائرية الطافحة على السطح بشكل هستيري ، فغدت (جماعات الضغط) تتجاوز القوانين ، في منشوراتها نفسها ، فضلا عن سلوكها وأقوالها ، فحدث أن زعيما طامحا للسلطة قاد (مظاهرة) حاشدة توقفت أمام رئاسة الجمهورية فقال (الزعيم) في الملأ وهو يوقف (جموعه) هكذا « في المرة القادمة سنأتي هنا لنعلن الدولة .... » .

فهو يريد إعلانها بإرادة (العنف) لا بسلطة القانون ، وهو ضرب من ثقافة الصخب والعنف ، وحين نزل مناضلوه إلى الشارع متظاهرين رفعوا (لافتات) عليها عبارة قوية واضحة « تسقط الديمقراطية » وهي (الديمقراطية) التي منحتهم فرصة (التهريج) ، وفي مناظرة تلفازية قال هذا (الزعيم) لحزبي

آخر متطرف في الصف المناقض : « حين نصل إلى السلطة سنطبق المشروع » فرد عليه المناظر الآخر ذو الزعم الديمقراطي بشكل أكثر استفزازية « لن نترككم تصلون » هكذا بكل وقاحة ، تحت اسم (الديمقراطية) تستباح الديمقراطية نفسها كإطار وتنتهك القوانين .

إنها (ثقافة العنف) (ثقافة الإقصاء والإرهاب) اللفظي والمعنوي ، من دون أن يقوى القانون على حماية نفسه ، في هذا وغيره ، والدستور نفسه ينتهك في أكثر من مادة ، بما فيها تلك التي تمنع توظيف الحس (العشائري) في الخطاب الحزبي السياسي .

هذا وغيره جعل معظم مواثيقنا تتحول إلى نصوص باردة ، فلم يعد الناس ينظرون إليها بجدية تامة ، بما في ذلك القانون الجديد الخاص بإطلاق (سراح العربية) أي رفع (التجميد) الذي أقره (مجلس استشاري) غير شرعي ، على قانون تعميم استعمال (اللغة العربية) الذي سنّه (مجلس وطني شعبي) شرعي .

حين جاء المرسوم (١٩٩٦) يقرر إلغاء التجميد ، انطلقت أصوات معترضة ، كما بقيت الأجهزة في الدولة هامدة ، لم تأخذ عدتها للحدث الذي يفرض على الإدارة في السادس من جويلية / يوليو ١٩٩٨ م ، أن تكون قد عربت وثائقها ، وأصبحت جاهزة تماما لتنفيذ القانون .

لكن الإدارة نظرت إلى القضية نظرة الاستهانة أملا في أن يكون مصيره مصير كل القوانين السابقة في الإجهاض ، تزامن ذلك مع ممارسة ضغوط على رئيس الجمهورية ، لم يرضخ لها ، وبقي أمل المتآمرين قائما رغم الصمود في إرادة القمة ، لذا كانت ردود أفعال (التيار الفرانكفوني) في الإدارة شرسة ، تأكل النار أفئدة أقطابه عن (قانون) لم يلغ من جديد أو لم يجمد ، فيقدم رئيس حزب (الأرسيدي) بكل وقاحة على مطالبة الرئيس « زوروال بالتصرف كرئيس دولة » [٣٩] استجابة لنزواته ونزوات حزبه الذي بادر بتنظيم مظاهرة « جرح فيها ثلاثة من رجال الشرطة » حتى كان الحدث في السادس من (جويلية / يوليو ١٩٩٨) حين وجدت معظم المؤسسات نفسها مجبرة على التعامل مع واقع القانون ؛ فكان الارتباك الكبير ، وإفرازاته العديدة ، في عدة مؤسسات ، ومنها قطاع (البريد) وبشكل أخص قطاع البنوك ، حيث كنت من

أوائل النازلين إلى (المصرف) صباح يوم الإثنين (٦ جويلية / يوليو ١٩٩٨ م) و(وكالات البريد) و (الصندوق الوطني للتوفير والاحتياط) وكنت من بين الذين كتب عليهم في اليوم المذكور أن يخوضوا مشادات لفظية وقانونية مع بقايا (فرنسا) و (أبنائها) و (أنجالهم) في الإدارة الجزائرية .

كانوا يطمعون في تعطيل القانون ، ولم يتخذوا أية خطوة في تعريب وثائقهم الإدارية ، فبقيت بالفرنسية ، وأصررت على ملء الاستمارات المفرنسة بالعربية ، فاعترضوا ، محتجين بالوثائق المفرنسة ، وأنا أتحجج بالقانون ، وأتوعد من يوقع على وثيقة بغير العربية ، بسلطة القانون ، فقالت لي مسؤولة مكتب بالبنك الوطني للتنمية الريفية بشارع (عميروش) « ماذا؟ بدأتموها ؟ » ثم أضافت وأنا أودع نقودي في حسابي : « كل هذا المبلغ تودعه ؟ » ولم يكن أكثر من سبعة آلاف دولار ، حصيلة جهد سنوي خارج الوطن ، فقلت : « هم يهربون الأموال المنهوبة من خزينة الدولة، ونحن ندخل الأموال فندعم الخزينة (الوطنية) من عرق الجبين » .

هذا قبل أن ترتفع درجة الخصومة التي إن انخفضت قليلا في إدارة البريد المركزي فقدازدادت حدة في (وكالة الصندوق الوطني للتوفير والاحتياط) الذي اعترض على كتابتي باللغة العربية واعترضت على وثائقه (الفرنسية) البسيطة ، فتذرع موظفوه بأن الإدارة المركزية لم ترسل لهم ثائق معربة للاستعمال ، فأصررت على كتابة الخانات الفارغة (بالعربية) لا (بالفرنسية)، فكان (النهار أسود) ولكنه ذو ثمار ، ليعلم أبناء (فرنسا) و(عبيدها) أننا لم نمت ، ولم ننحر ضمائرنا ، ولا خدرناها ، وما بعناها ولن نفرط فيها ، مهما كانت صيغة العبث بالقوانين ، وانعدام الصرامة في تطبيقها .

غياب الصرامة والجدية في تطبيق القوانين تارة وتعطيلها أو تعليقها أو إلغاؤها تارة أخرى رضوخا لجماعات الضغط ومؤامراتها مما قلل من مصداقية الدولة وجعل الثقة بين المواطنين والنظام تهتز ، بل تضرب أحيانا في أشد مقاتلها ، فإن بات مواطنون يشككون في جدية الدولة للسهر على قوانينها ، فإن انعدام الجدية كان دائما يغري الطامعين في إجهاض المشاريع الثقافية الوطنية ، ويحث الطامحين على تكريس الثقافة المستوردة ، ولو على كاهل (حركي) عميل هو (الأمازيغية) الضحية للتلاعب السياسي، وهو ما تصوره

تجارب الصراع الثقافي منذ الاستقلال حتى اليوم ، فبات (الانتهازيون) الطامعون والطامحون مستمسكين (بآمالهم) متشبثين بالإدارة الاستعمارية حتى آخر مرسوم وقعه رئيس الجمهورية الذي راهنوا عليه ، وللمرة الثانية أو الثالثة يجهر (اللائكيون) بالمطالبة بتعطيله ، وبقي طمعهم قائما قبل أيام قليلة من موعد التطبيق ، من دون صدى ، مما أثار (حفيظتهم) فحركوا بيادقهم بالشارع ، في (تيزي وزّو) التي شهدتها (إضرابات) و (مظاهرات) أتلفت ما تفوق قيمته ستين مليون دينار ، بنيت بها هياكل ومنشآت من عائدات (النفط الوطني) في (الجنوب الجزائري) .

وقد عكس الإتلاف مظاهر حقد عبرت عن نفسها في استهداف رموز، ودلالات ، بما فيها الحرف العربي ومظهره الإسلامي ، حتى في اللوحة اللافتة التي عليها اسم (بجاية) مكبرا مضيئا في أعلى الجبل يقرأ على بعد نحو عشرين كيلو مترا ، فكسره (العملاء) وأبقوا على ماهو مكتوب بالحروف الفرنسية .

لم ييأس التيار (الفرانكوفوني - الاندماجي) في كل محاولاته ، بعدما اعتاد على خرق قوانين الدولة ، مستمدا قوته من الولاء للغرب الاستعماري : سرا غالبا ، وجهرا أحيانا . وبلغ درجة من الوقاحة وهو يجنح إلى (الاستنجاد) الملح بهذا الغرب علانية ، في عدة مناسبات سافرة ، منذ (١٩٨٩) بشكل خاص ، ومن آخر ما فعله في ذلك هذا التيار ، ولن يكون آخره ، بعد دخول (قانون تعميم استعمال اللغة العربية) حيز التطبيق استنجاده بفرنسا خصوصا على صهوة الصحافة (الفرنسة) في (الجزائر) فلم يتأخر هذا التيار بكل صفاقة في شهر (أوت / أغسطس ١٩٩٨) عن رفع (شكوى) تطلب تدخلا أمميا ، مثلته في ذلك « الحركة الثقافية البربرية » المعروفة اختصارا باسم (أمسيبي) . ففي الفترة التي زارت فيها (البعثة الاستعلامية الأممية) الجزائر بقيادة الرئيس البرتغالي السابق (سواريس) ما بين (٢٢ جويلية / يوليو) و (٤ أوت / أغسطس ١٩٩٨) للاطلاع على الأوضاع ذات الطابع الإنساني في (الجزائر) رفعت (الأمسيبي) وثيقة أسمتها ملخصا « عن الانتهاكات لحقوق الهوية الثقافية واللغوية للأمازيغيين الجزائريين » داعية إلى التدخل للاعتراف بالأمازيغية ، وإحلال العربية العامية

محل الفصحى ، ملحة في دعوتها التي نقلتها الصحافة العربية الجزائرية ، و (الصحافة الفرنسية) في (الجزائر) على ضرورة تجسيد الأمازيغية كثاني لغة وطنية ورسمية في (الجزائر) إضافة إلى ترقية اللغة العربية العامية بدل اللغة العربية الأصيلة، وكذا الإعلان عن مساواة بين اللغات والثقافات الجزائرية ، أمام القانون ، وهو ما يستدعي حسب الأمسيبي إلغاء قانون استعمال اللغة العربية ، وإدراج الأمازيغية بالمقابل في مختلف القطاعت والمؤسسات الاقتصادية على الأقل في المناطق الناطقة بالأمازيغية . انتقدت الحركة الثقافية البربرية اللغة العربية ، وقالت بشأنها : « إنها انحرفت عن وظيفتها للاتصال لتصبح مجرد وسيلة رهينة الإسلام » .[٤٠]

تابعت الجهر بهذا بعدما دبّ الذعر في صوف (الاندماجيين) أكثر منذ باتوا في عشية ذكرى الاستقلال ، ليدخل قانون (تعميم استعمال العربية) حيز التطبيق ، فعنونت إحدى الصحف الفرنسية في الجزائر مقالها الرئيسي بحروف ضخمة : إن الوضع خطير «La Situation Est Grave» بشكل استفزازي صارخ .

هكذا بكل وقاحة يعلن (العملاء) ولاءهم للغرب بترديد أفكاره نفسها، فهذا هو منطق الضباط الفرنسيين أنفسهم ، كما أنها أفكار رجال المخابرات المدنيين والعسكريين في النظام الفرنسي منذ القرن التاسع عشر ، وقد حولت هذه (الجمعية) منطقتها إلى شبه منطقة منبوذة وطنيا ، وهي إساءة بالغة سكتت عنها منطقة (القبائل) التي اعتبرتها (الجمعية) المذكورة (أقلية) ضائعة ، حسب إشارة التقرير بلغة (الأقلية) حين أشار إلى « جملة من المبادئ الأممية التي تدعو إلى حماية الأقليات اللغوية والعرقية » .

ففي هذا الكلام إهانة واضحة لمنطقة ناطقة بإحدى (الأمازيغيات) هي منطقة (القبائل) التي تزعم هذه (الجمعية) - إفكا - أنها تدافع عن حقوقها : فتعمل إلى تحويلها إلى أقلية انعزالية تناهض العربية والإسلام ، بينما شهد التاريخ أنها كانت قبل الاحتلال الفرنسي وخططه الجهنمية الناشرة للغة القرآن ، المنافحة عن قيم الإسلام ، برجال لها أعلام : علماء في العربية (ابن آجروم) و (ابن معطي) وفقهاء في الإسلام لا يحصون ، غطت جهودهم اثني عشر قرنا ، حتى خلف من بعدهم (خلْف) سقطوا في التبعية لأوروبا

بتدبير استعماري محكم ، لم يضيعوا صلاة ، ولم يتبعوا شهوات ونزوات فحسب ، بل اندفعوا يكفرون بالقرآن ولغته ، وبعدما كان السلف الصالح يستقبل رمضان بالترحاب وتحفيظ القرآن وإتقان لغته ، صار بعض من (الخلف) يفرون منه إلى (باريس) أو إلى (حفلات المشوي) في (الغابات) التي تعج بالخنازير البرية ، تحديا لأمة لم يكن لها شأن يوما إلا بالإسلام ولغته .

لقد كان (التيار الفرانكوفوني الاندماجي) بكل أجنحته ، وخلاياه عاملا أكبر في صناعة (المشكلة الثقافية) في الجزائر ، بعمله لضرب الانتماء الثقافي لحضارة الإسلام ، والذوبان في حضارة الغرب ، مؤثرا العبودية والذلة تحت (نعال) الفرنسية والفرنسيين ، بدل الكرامة والسيادة تحت راية الإسلام ، ولغة القرآن : فضاء عدل وأخوّة ومساواة .

الميل للمحتل الفرنسي بالأمس جلي تماما في هذا التيار بكل امتداداته ، عكسته تصرفاته ، وفعله في نفوس ذات قابلية للاستعمار الغربي ، الأمر الذي جعل سائق (سيارة أجرة) بين (بو غني) و (تيزي وزو) يقول في (٢٢أبريل١٩٨٠) : من الخير لنا أن تحكمنا (فرنسا) فهي أفضل ؛ قال ذلك لزبائنه وهو يقود سيارته نحو (تيزي وزو) موقنا أن الركاب جميعا يشاطرونه (الرأي) في تلك الأيام من مظاهرات (أفريل) من أجل (الثقافة البربرية) دفاعا عن (الثقافة الفرنسية) .

يبقى عيب المنطقة ورجالها في الطرف الآخر : الصمت أمام عبث (إيديولوجي) تمارسه عصابات باغية باسم المنطقة وهي صامتة سلبية ، حتى يخيل للرائي أنها راضية عن ذلك تماما ، بينما يندرج صمتها - عموما - في إطار تلك الهوة التي باتت تفصل المواطن عن النظام ، بعدما ضربت الثقة بينهما في أشد مقاتلها ، فضلا عن عدم جدية النظام في السهر الحازم على تطبيق (الدستور) والقوانين السابقة له والمستمدة منه على حد سواء.

لم يبدُ النزوع الجديد إلى التمسك بالقانون وصيانة الدستور من التجاوزات إلا لدى أول رئيس جمهورية منتخب انتخابا شرعيا فعليا (اليمين زروال ١٩٩٥ -١٩٩٩) فقاوم ضغوطا شتى فيما يتعلق بالهوية ، والثقافة الوطنية ، وأداتها اللغة العربية التي أفرج في عهده عن قانون تعميمها واستعمالها في الإدارات المختلفة ، فتعرض للابتزاز ، ولم يرضخ ، وهو

(الأمازيغي) الصميمي وليس (الأمازيغي) العميل المشوه فكرا ووجدانا ، فبدل أن يلغي (قانون تعميم العربية) الذي صوت عليه (مجلس شعبي وطني منتخب) ، كما يريد (الاندماجيون) مضى قدما ، كرد فعل وطني على الطامحين الطامعين ، فنصّب (المجمع الجزائري للغة العربية) يوم الإثنين (١٩٩٨/٩/٢١) ثم (المجلس الأعلى للغة العربية) يوم السبت (١٩٩٨/٩/٢٦) وبعدهما (المجلس الإسلامي الأعلى) .

لكن هذا لا يعني انتصار الإرادة الوطنية نهائيا ، في البؤر المختلفة من (المشكلة الثقافية) في (الجزائر) بقدر ما يعني أن الحل قائم في المواثيق الوطنية حين تحترم ، تلجم كل عربيد وتقف جدارا قويا في وجه (العبث) والتلاعب السياسي والفكري ، فهي لذلك تحتاج في الحكم نفسه إلى رجال أشداء من ذوي العزم ، أقوياء بإيمانهم للسهر عليها ممارسة ونفاذا في كل المواقع ، ، وفي مختلف الاتجاهات والسلالم من الأعلى إلى الأدنى، وحتى العمق الوطني ، في كل صغيرة وكبيرة ، للجم التيار (اللائكي - الاندماجي) الدخيل ، المبشر بثقافة غربية : لغة وعادات وتقاليد ، تحت عنوان (مشروع مجتمع جديد) وهو (المشروع) المستورد بحذافيره لضرب (مجتمع) استقر منذ نحو ثلاثة عشر قرنا ، وهذا المشروع المستورد ليس جديدا ، فهو يعلن نفسه ويختفي حسب موقع (الاندماجيين) وعلو صوتهم أو خفوته منذ العشرية الثانية من القرن العشرين حتى اليوم .

ومواجهة المشروع (الاندماجي) في جوهره لم تكن دائما سليمة : فالتيار الوطني سالمه استخفافا به أو لا مبالاة بوضع عام بدت فيه السلطة دائما غير جدية ، بل متلاعبة بالمواقف والعواطف ، كما سلك التيار الإسلامي سلوكا اتسم بالرعونة التي خدمت (اللائكين - الاندماجيين) وأضرت بالإسلاميين أنفسهم ، وبصورة المجتمع الإسلامي نفسه كما يطمح إليه الشعب الجزائري الوسطي بطبعه وتكوينه ، فعمل محسوبون على الإسلام ، دخلاء وعملاء أيضا لتشويه صورة الإسلام في الحياة الوطنية ، لتحويل صورته في المجتمع من مجتمع عمل وإخلاص وعدل وأمن وأمان ، إلى مجتمع عنف ، متخلف يغرق في شكليات عبثية ، وأحاجي خرافية ، على نحو ما يقدمه (الطالباني) اليوم تماما في (أفغانستان) بل أشنع ، فضلا عن رفض الرأي

الآخر من باب (التشنج) و (الغرور) و (الخيلاء) الإبليسية .

وهو المنحى المرفوض شعبيا منذ (١٨٣٠) حين انطلق النضال الجزائري من مبدأ (الشورى) والعمل برأي الأغلبية ، فتكرست عبر تاريخ الجزائر الطويل (ثقافة الحوار والشورى) والعمل برأي الأغلبية، لتحل اليوم (ثقافة الاستبداد والاستئصال) محلها ، فتسهم إلى أبعد الحدود في تعقيد (المشكلة الثقافية) في الجزائر ، بكل وجوهها السياسية واللغوية والتاريخية والاجتماعية ، لكنه تعقيد غير مستعص عن الحل ، بشرط توفر (الرجال) من ذوي الصدق والإخلاص والعزم ابتداء من (الرأس) في هرم السلطة ، وانتهاء بأبسط مسؤول في الإدارة الوطنية .

وهنا علينا أن ننتظر لتشرق الشمس مؤذنة بذوبان الجليد بين (الحاكم) و (المحكوم) ، فتتعرّى أهداف الساعين دائما لزرع الألغام الثقافية لإرادة استعمارية من أجل تدمير مجتمع بقي متماسكا عصيا على المحتلين القدماء والجدد .

خاتمة :

دخل الاستعمار (الجزائر) وهي لا تعرف (مشكلة ثقافية) وينتشر فيها التعليم بنسبة تسعين بالمائة ، وخرج و (الجزائر) تعاني (مشكلة ثقافية) حادة ، وتبلغ فيها الأمية لسوء الصدف تسعين بالمائة أيضا .

احتل الاستعمار الفرنسي (الجزائر) ولم تكن تعرف صراعا لا لغويا ولا عرقيا ولا دينيا طبعا رغم بعض المشاكل السياسية المحدودة التي كانت مع السلطة العثمانية ، وخرج وقد زرع أشكالا من المتفجرات ، بعدما فخّخ حياتنا السياسية والاجتماعية والثقافية لغة وعقيدة ، وقيما فضلا عن (الحبل السرّي الدامي) الذي بات قائما بيننا وبينه متمثلا - فضلا عن العلاقات السياسية والاقتصادية والثقافية - في (المصاهرة) و (الخؤولة) التي تجعل المسؤولين الجزائريين أكثر ولاء للأصهار وأخوال الأولاد من ولائهم لوطنهم . فالمشكلة الثقافية في (الجزائر) بكل وجوهها : صناعة فرنسية ، وسياسة محكمة ينفذها (عملاء) ببطاقة هوية جزائرية يستعملها الأصهار وأبناؤهم وأحفادهم .

دخل الاستعمار (الجزائر) ولم تعرف قط في تاريخها (مشكلة ثقافية) وخرج وقد ترك إرثا من البؤر النتنة التي أبدعت صراعنا ، فأقحمتنا في ثقافة التدمير الذاتي ، انطلاقا من (ثقافة النسيان) و (ثقافة الصراع والحقد) .

قرر الاستعمار : أن ننسى تاريخنا معه ، أن ننسى شهداءنا ، فنجح لجعل عملائه وأحفاده يعبثون بقبور الشهداء ، ويذبحون (المجاهدين) الذين بقوا أحياء ، ويسخرون من الإسلام ، ويعادون العرب والعربية ، ويدعون إلى (مشروع مجتمع) يتجاوز به (حياة مجتمع) منسجمة عناصرها منذ أكثر من ثلاثة عشر قرنا .

أسهم الاحتلال الفرنسي عبر عملائه في (الجهاز الحكومي والإداري) وخارجه في تكريس قيم التهميش والاستئصال ، وبناء (ثقافة الحقد الجديدة) و (ثقافة الأنانية) للاستئثار بالسلطة والمال على جماجم الآخرين، تدعمت (ثقافة الحقد) هذه بسياسة التمييز اللغوي نفسه ، وهو نهج التيار(اللائكي - الاندماجي) في تهميش التيار الوطني .

وإن لم يمارس (التيار الوطني) خصوصا ، والشعب عموما (ثقافة النسيان) فقد دفع دفعا إلى ممارسة ضرب من (ثقافة الحقد) على (العملاء)

وذيولهم ، الذين صادروا أمننا ، وحبنا ، وتعاضدنا ، وتعاطفنا ، وضربوا صفوفنا لتصفية حساباتهم وبناء امتيازاتهم ، وممارسة (التمييز الثقافي) المتعجرف ، هو (التمييز) الذي يجعل (أسماء العملاء) تطلق على (مؤسسات وطنية) ويقبع (الوطنيون الأحرار) في قبورهم منسيين ، فانتهوا إلى جعل (الوطن) كله ضحية .

وهو واقع لا يغيره إلا رجال صناديد ، في فكر وسياسة ، يتوفرون على المناعة الوطنية ، وعلى النزاهة والحنكة من جهة ، وعلى العزم والحزم والصلابة والثبات وإرادة العمل من جهة أخرى .

فهل (يجود) بمثل هؤلاء الزمان ؟ بل هل تتاح لهم فرص العمل لخدمة وطنهم وتخليصه من قبضة العملاء ؟ لنخرج من (المحنة الكبرى) ومنها (المشكلة الثقافية)...؟

علم ذلك عند الله !

الدوحة ، في ١٥/٤/١٩٩٩

المراجع

١ - مجموعة من الكتاب ، نظرية الثقافة ، ترجمة : د. علي سيد الصاوي ، سلسلة «عالم المعرفة» العدد ٢٢٣ ، ص ٨ ، الكويت ، صفر ١٤١٨ هـ / يوليو - تموز ١٩٩٧ م .

٢ - المسألة الثقافية ، د. محمد عابد الجابري ، ص ٢١٣ ، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت نوفمبر ١٩٩٤ م .

٣ - د. عمر بن قينة ، أدب المغرب العربي قديما ، ص ١٢ ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، ١٩٩٤ م .

٤ - المرجع السابق ، ص ١٩ .

٥ - د. عمر بن قينة ، الأدب العربي الحديث ، ص ٢١١ - ٢١٢ ، دار الأمة ، الجزائر ١٩٩٩ ، عن عيون البصائر للإبراهيمي ، ص ٢٢١ ، الجزائر ، ١٩٧٨ م .

٦ - الدكتور عدنان الخطيب ، الشيخ طاهر الجزائري رائد النهضة العلمية في بلاد الشام ، وأعلام من خريجي مدرسته ، معهد البحوث والدراسات العربية ، جامعة الدول العربية ، سنة ١٩٧١م

مجلة الشهاب ، جزء ١١ ، مجلد ١١ ، غرة ذي القعدة ١٣٥٤ هـ / فيفري ١٩٣٦ م ، الجزائر،

٧ - عن د. عمر بن قينة ، صوت الجزائر في الفكر العربي الحديث ، ص ١٦٢ ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، ١٩٩٣ م .

د. أبو العيد دودو ، الجزائر في مؤلفات الرحالين الألمان ، ص ١٣ ، الشركة الوطنية للنشر

٨ - والتوزيع ، الجزائر ١٩٩٥ م .

الطاهر زرهوني ، التعليم في الجزائر قبل وبعد الاستقلال ، ص ١٢ ، موفم للنشر ، الجزائر ١٩٩٣

٩ - م .

١٠ - مالك بن نبي ، مذكرات شاهد القرن (الطالب) ترجمة المؤلف ، ط١ ، ص ٢٨ ، ٢٩ - بيروت ١٩٧٠ م .

١١ - زرهوني ، نفسه ، ص ١٤ .

١٢ - د. عمر بن قينة ، في الأدب الجزائري الحديث : تاريخا وأنواعا ، وقضايا وأعلاما ، ص ٤٥ ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، ١٩٩٥ م .

* - لعل التحول الحاصل في موقف الشيخ (محمد عبده) يرجع إلى تجربته مع (الثورة العرابية) التي شارك فيها ، فأخفقت ، فنفي إلى (بيروت) ومنها إلى (باريس) حيث أنشأ (العروة الوثقى) مع أستاذه (جمال الدين الأفغاني) ، وحين عاد إلى (مصر) قدر سلوك سياسة الإصلاح الهادئ في التعليم ، والحياة الاجتماعية وسواها .

١٣ - مالك بن نبي ، مذكرات شاهد القرن ، ترجمة ، مروان القنواتي ، ط١ ، ص ١٤٤-١٤٥ ، دار الفكر ، بيروت ١٩٦٩ م .

١٤ - راجع : فوزي سعد الله ، يهود الجزائر ، هؤلاء المجهولون ، دار الأمة ، الجزائر ، ١٩٩٦ م .

١٥ - د. عمر بن قينة ، في الأدب الجزائري الحديث ، ص ٢٥ .

١٦ - عبد الكريم مطيع ، عرب وبربر ، مؤامرة لتنصير المغرب واحتلاله ، ص ١٨ ، باريس ، مارس ١٩٨٤ م .

١٧ - المرجع السابق ، ص ١٩ .

١٨ - المرجع السابق ، ص ٢٠ .

١٩ - د. عمر بن قينة ، صوت الجزائر في الفكر العربي الحديث ، ص ١٢٦ ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، ١٩٩٣ م .

٢٠ - صالح فيلالي ، مقال : إشكالية الثقافة في الجزائر والأزمة الجزائرية ، مركز دراسات الوحدة

العربية ، بيروت ، ١٩٦٦ .
٢١ - د. أحمد بن نعمان ، فرنسا والأطروحة البربرية ، دار الأمة ،ص ١٢٢ ، الجزائر ١٩٩١ م .
٢٢ - المرجع السابق .
٢٣ - د. صالح فيلالي ، نفسه ، ص ٣٢ .
٢٤ - عن د. أحمد بن نعمان ، نفسه ، ص ١٢٢ .
٢٥ - وزارة الإعلام والثقافة ، ملفات وثائقية ، ص ٥ ، الجزائر ، ١٩٧٦ م .
٢٦ - المصدر نفسه ، ص ١٦ .
٢٧ - المصدر نفسه ، ص ٦٨ .
٢٨ - الميثاق الوطني ، باب بناء المجتمع الاشتراكي ، ص ٢٣ ، جبهة التحرير الوطني ، الجزائر ، ١٩٧٦ م .
٢٩ - وزارة الإعلام ، ملفات وثائقية ، ص ٤٢ .
٣٠ - المصدر نفسه ، ص ٢٤ .
٣١ - المصدر نفسه ، ص ٥٠-٥١ .
٣٢ - د. محمد عابد الجابري ، ص ١١٦ .
٣٣ - د. عثمان سعدي ، قضية التعريب في الجزائر ، ص ٢٢ ، دار الطليعة للطابعة والنشر ، بيروت ، ١٩٦٧ م .
٣٤ - سورة : « مريم » الآية : «٥٩»
٣٥ - د. أحمد بن نعمان ، فرنسا والأطروحة البربرية ، دار الأمة ، الجزائر ، ١٩٩١ م .
٣٦ - المرجع السابق .
٣٧ - الميثاق الوطني ، حزب جبهة التحرير الوطني ، ص ٢٣ ، الجزائر ١٩٧٦ م .
٣٨ - أحميدة . ع . جريدة (الخبر) الجزائر ، يوم ٢٠ ربيع الثاني ١٤١٩ هـ / ١٣ أوت / أغسطس ١٩٩٨ م .
٣٩ - أحميدة . ع . جريدة (الخبر) الجزائر ، يوم ١٨ ربيع الأول ١٤١٩ هـ -٤جويلية/يوليو ١٩٩٨ م .
٤٠ - أحميدة . ع . جريدة (الخبر) الجزائر ، يوم ٢٦ ربيع الثاني ١٤١٩ هـ / ١٩ أوت / أغسطس ١٩٩٨ م .
٤١ - Liberte, No. 1754, 4 Juillet,1998, ALGER - ALGERIE

القسم الثاني

المسألة البربرية (الأمازيغية)

في ثلاث محطات رئيسية (١٩٤٩-١٩٩٩) بـ (الجزائر)

بين الحقيقة الوطنية والفعل الفرنسي، أمس واليوم !

المسألة البربرية (الأمازيغية)
في
ثلاث محطات رئيسية (١٩٤٩ - ١٩٩٩)بـ (الجزائر)

بين الحقيقة الوطنية والفعل الفرنسي : أمس واليوم .

تمهيد :

يعتز العرب بالإسلام ، وقد نزل القرآن الكريم على نبيهم العربي بلغتهم إكراما لهم ، فلم يكن الإسلام إذن في حاجة لأن يشرف بهم ، بل هم الذين شرفوا به ، وقد أكرمهم فأخرجهم من جاهليتهم التي كانوا يتنابزون فيها بالألقاب ، ويكرسون قبلية تسهم في إعلان حروب تستمر أجيالا .

كذلك الانتماء إلى (العروبة) شرف لمن ينضوي تحتها بروحها الإسلامية ، وهذه العروبة الإسلامية بدورها وقد سمت بالإسلام دون سواه هي في غنى على أن تشرف بغيرها أو تطلب شرفا أكثر مما عندها لدى غيرها ، وإن شد هذا الغير في ساعدها وأزرها فلخير القضية الجامعة ، لا للانتماء العرقي والتميّز العصبي البغيض .

من هنا فإننا حين نقول إن (البربر) ذوو أصول عربية ، فإن ذلك ليس بحثا عن شرف للعروبة بالبربر ، بقدر ما هو تشريف للبربر بالانتماء لأمة محمد ﷺ التي أخرجتهم للنور من جاهليتهم إلى الإسلام الذي أخرج هؤلاء العرب أنفسهم، من وثنيتهم إلى عبادة الله الواحد القهار دون سواه .

فلا حاجة للعرب بأن يشرفوا بغيرهم ، ولغيرهم حق الشرف بأمة أنجبت آخر الأنبياء ، وحملت لواء الإسلام ، ولهذا النبي وحده تنتمي أمة الإسلام كلها ومنها العرب ، ماسوى ذلك لايغني ، ومن نحا رفضا لهذا الانتماء ، فهو وما انتمى إليه ، إلى الإغريق أو (اليهود) أو (الهنود) أو سواهم ، أقول هذا لأن هناك طالب نسب عند هذه الأقوام ، يسد به فراغا روحيا بنفسه تعصف فيه ريح صرصر سموم ، تأتي من الشمال لا من الجنوب .

أقدم هذا بين يدي لأعلن ألا حاجة للعروبة بأحد ليس منها ، فكرا وروحا ، وعمقا إنسانيا في النهاية ، بل تسعدها البراءة منه ، ويسرها انتماء الأطهار من دون غيرهم إليها ، حتى لا يتلوث الثوب الأبيض الناصع فلا يتناقض مع

قبعة (برنيطة) على الرأس ، ولوثة على اللسان ، وانحراف في العقيدة ، وتسمّم في الوجدان .

فأنا إذن لا أبحث هنا في نسب البربر العربي ، فللبربر الذين اقتنعوا بأصولهم العربية الحق في الانتماء والاعتزاز بأمة الإسلام ، ولاحاجة للعروبة ولا الإسلام بمن لا يقتنع بذلك ، أو لا يريد بعبارة أصح أن يقتنع ، أو يرفض هذا الانتماء وفاء لمعلميه ومربيه في مدارس الآباء البيض ، وكنائسهم ، وأديرتهم ، ومؤسساتهم (الخيرية) لرعاية المنبوذين و (أبناء الشوارع)، وكذا أساتذته المحتلين المستعبدين في الجامعات وأضرابهم من كتاب استعماريين في مؤلفاتهم ومقالاتهم ، ومحاضراتهم .

أنا أتحدث إذن في المسألة (البربرية) كمعول أسطوري أجاد المحتل الأوروبي فبركتها واستغلالها للهيمنة سياسيا واجتماعيا ، والتشتيت ، والإلهاء ، ليصرف أبناء (المغرب الإسلامي العربي) عن مصارعة هذا الاحتلال الأوروبي متكاتفين واثقين للتحرير أولا ، وللنهوض الحضاري ثانيا ، فالمسألة (البربرية) إذن يمكن المبادرة بالقول : إنها صناعة أوروبية ، فهي كفكرة وخطة ودعوة ومنهج ارتبطت بوجود الاحتلال الفرنسي في (المغرب الإسلامي العربي) مركزا على (الجزائر) لكونها قلب المغرب الإسلامي العربي ، التي أحكم سيطرته عليها ، ونفث حقده كله فيها إبان احتلاله لها (١٨٣٠-١٩٦٢) وبعد خروجه بأسلوب أكثر تطورا من ذي قبل ، وأقوى فاعلية ، بينما كان الأمر أهون في تونس (١٨٨١-١٩٥٦) والمغرب الأقصى (١٩١٢-١٩٥٦) وأضعف في ليبيا تحت الاحتلال الإيطالي (١٩١١-١٩٥٢) .

قبل أن أتحدث ، وإن على عجل حسب المقتضى في صناعة هذه القضية ، ودور الفعل الاحتلالي الأوروبي في تفعيلها إبان احتلاله للمغرب الإسلامي العربي وبعد رحيله أجدني في حاج إلى نظرة سريعة عجلى إلى موضوع (البربر) و (البربرية) في (مرايا التاريخ) .

البربر والبربرية و مرايا التاريخ :

ليس هناك إجماع لدى المؤرخين في الحديث عن أصول (البربر) لا في موقعهم بالمشرق العربي ، من وجهة النظر التاريخية العامة ، ومنها العربية، ولا في علاقتهم بأوروبا ، من زاوية النظر الاستعمارية بقيادة المدرسة الفرنسية

فحسب، بل ترتبك رؤية المؤرخين حتى في القبيلة أو القبائل التي تعود إليها أصولهم ، كما هو الحال لدى (ياقوت الحموي) المتوفى سنة (٦٢٦هـ - ١٢٢٨م) القائل في الجزء الأول من (معجم البلدان) :

إن البربر « اسم يشمل قبائل كثيرة في جبال المغرب ، أولها برقة ثم إلى آخر المغرب والبحر المحيط في الجنوب إلى بلاد السودان ، وهم أمم وقبائل لا تحصى ، ينسب كل موضع إلى القبيلة التي تنزله ، ويقال لمجموع بلادهم ، بلاد البربر ، وقد اختلف في أصل نسبهم ، فأكثر البربر تزعم أن أصلهم من العرب ، وهو بهتان منهم وكذب ، والأكثر والأشهر في نسبهم أنهم بقية قوم جالوت ، لما قتله طالوت هربوا إلى المغرب فتحصنوا في جبالها وقاتلوا أهل بلادها ثم صالحوهم على شيء يأخذونه من أهل البلاد ، وأقاموا هم في الجبال الحصينة » .(١)

وهو مالم يختلف عنه كثيرا رأي (أبي زكريا يحي بن خلدون) من أبناء القرن (الثامن الهجري) ولد في (٧٣٤هـ - ١٣٣٤/٣٣ م) قائلا : «البربر أمة أعجمية عمرت الشام من لدن الطوفان ، تعرف ملوكهم بالجواليت ، كما تعرف ملوك النصارى بالقياصرة ، وملوك الفرس بالأكاسرة ، وملوك القبط بالفراعنة .

واختلف في أصل نسبهم النسابون ، قال السهيلي والمسعودي والقضاعي : هم ولد بربر بن كنعان بن حام ، وقال الطبري مثله ، وزاد أيضا أنهم من ولد بربر بن نفسان بن إبراهيم الخليل صلى الله عليه وسلم ، وقال الصولي هم ولد بربر بن السلاجم بن بربر بن مصرائم بن حام .

وزعم بعض المؤرخين أنهم من ولد سام بن نوح ، ثم اختلفوا ، فقالت فرقة هم ولد بربر بن تملا بن مازيغ بن كنعان بن سام ، وقالت أخرى هم ولد بربر بن تملا بن مارين بن قار بن عمرو بن عملان بن لاود بن إرم بن سام ، وعلى هذا القول الأخير يكونون عمالقة .

وقال مالك بن المرحّل : البربر قبائل شتى من حمير ومضر والقبط والعماليق وكنعان وقريش، تألفوا بالشام ولغطوا ، فسماهم إفريقس بن قيس البربر لكثرة كلامهم ، والله أعلم .

واختلف الناس أيضا في سبب خروجهم إلى المغرب ، فذهب المسعودي والطبري والسهيلي إلى أن إفريقس بن قيس بن صيفي هو الذي استجاشهم لفتح إفريقيا وسماهم البربر ، أي كثيرو الكلام .

وذهب البكري إلى أن بني إسرائيل هم المخرجوهم عند قتل داوود عليه السلام جالوتهم

المذكـور في القرآن ... وذهب الصولي إلى أنهم فروا عند مـوت جـالوتهم المذكـور إلى المغرب، وأرادوا استيطان مصر ، فجلتهم عنها القبط ، فانبثوا ببرقة ، وإفريقيا والمغرب على حرب للإفرنج والأفارقة ظهروا بها على جميعهم ، وأقحموا البحر إلى جزر صقلية وسردانية وميورقة ويابسة، ثم صالحوا بقاياهم على تسليم المدن إليهم ، والاكتفاء بالقفار والجبال ، فتجاوروا على ذلك قرونا خالية ، كسبتهم المواشي وسكناهم الخيام ، ينتجعون أقطار الأرض ويرتادون مراتعها ، من الإسكندرية إلى البحر المحيط ، من بلاد السوس الأقصى غربا ، وإلى طنجة من بحر الروم شمالا ، وإلى بلاد السودان قبلة ، في أمم لا تحصى كثرة ، ولا تنقاد إلى شريعة ، ولا ترجع إلى نامـوس ، يحكم كل فرقة منهم رئيسها إلى أن أظلهم الإسلام »[٢]

وقد كان كل ملك من (كنعان) يلقب بـ (جالوت) حتى قتل (داوود) (جالوت) فغزا بهم (إفريقس بن قيس بن صيفي بن سبإ) ما صار يسمى بشمال (إفريقيا) فسميت المنطقة (إفريقيا) اشتقاقا من اسم (إفريقس) حيث استقرت أشهر القبائل (البربرية) ، من أشهرها (صنهاجة) و (كتامة) و (هوارة) و (زناتة) و(لواتة) .

وهي القبائل الرئيسية التي صار لها شأن بعد ذلك ، وترجع في نسبها حسب أهم الآراء في الدراسات المهتمة بالموضوع إلى قبائل « حمير بن يشجب بن يعرب بن قحطان »[٣] لذا فالبربر لمختلف القرائن (عرب) ترى بعض الأبحاث أن موطنهم الأول اليمن ، وترى أخرى أنه فلسطين ومنها نزحوا ، وهو ما تقره عموما كفضاء شرقي للبربر الموسوعة الفرنسية الحديثة نفسها أو دائرة المعارف « Encyclopaedia Universalis » في أكثر من خمس صفحات من الحجم الضخم (ص : ٤٨٦-٤٩١) في المجلد الثالث تحت مادة « Berberes » بإسهام المؤرخ الفرنسي المعروف « Charle Robert Ageron » وتحت المادة « Berberes » نفسها تحدثت طويلا الموسوعة الفرنسية « Encyclopaedia De L'Islam » باهتمام خاص عن (البربر) قبل الإسلام وبعده ، وعن شكل اللغة البربرية (الأمازيغية) كلغة محلية في المجلد الأول في نحو خمس عشرة صفحة من صفحة (١٢٠٨) إلى صفحة (١٢٢٣) مع مقارنة بين الحروف العربية والبربرية .(٥)

لذا فالبربر أو الأمازيغ « شعب نزح إلى شمال إفريقيا وانتشر في ربوع المغرب ،

وجهات من الصحراء الكبرى وأطراف مصر ، واستقر ببعض جزر البحر الأبيض المتوسط، وكان ذلك في العصور القديمة التي لا تقل عن ثلاثين قرنا قبل الميلاد .. ولقد تأثرت عقائد البربر بمن زحف عليهم من الأمم ، فكان دينهم المجوسية ثم تنصروا في أواخر القرن الثاني الميلادي ، ودخلت اليهودية بلاد البربر مع البربر المتهودين الذين جاءوا من اليمن أو هاجروا من سوريا بعد سقوط بيت المقدس ، وبدأ البربر يدخلون في الإسلام منذ الفتوح العربية الأولى إثر موقعة سبيطلة ، واعتنق الأكثرون من البربر الإسلام في أوائل القرن الثامن الميلادي وصاروا من كبار المناصرين للدين الحنيف ».[٦]

لكن هناك الرأي الآخر القائل بنسبة (البربر) إلى (أوروبا) فيزعم أنهم جاءوا «من الهند مارين بفارس ، والقوقاس ثم شمال أوروبا : فنلندا ، اسكندنافيا مرورا ببروتانيا الفرنسية ، اسبانيا »[٧] مستدلا بمعالم حجرية و «بعض الخصائص البشرية كبياض البشرة وزعرة الشعر » .

ومهما قيل عن انتمائهم وعن مواقعهم التي قدموا منها في (اليمن) أو في (فلسطين) أو غيرهما ، فإن الراجح عموما بين مختلف الآراء هو النسبة العربية للبربر ، الأمر الذي جعلهم يتلاءمون تماما مع الفينيقيين (البونيقيين) الذين لحقوا بهم فاختلط « البونيقيون بالبربر على طول السواحل الإفريقية المغربية ، وذلك في القرن الثاني عشر قبل الميلاد . ولما كان البونيقيون عربا من بني كنعان فقد اختلطوا بالبربر الذين هم من العرب العاربة القحطانية ، وفي مؤلفات الفينيقيين بعض ما يخص البربر من تاريخهم ، فالمثقفون البربر الذين ظهروا في القرن الثاني قبل الميلاد كانوا يحررون تصانيفهم التاريخية وغيرها باللغة البونيقية في الغالب »[٨] لكن ما بقي منها نزر قليل ، بفعل إحراق الرومان للمكتبات البونيقية .

وهي اللغة التي استعملها البربر في تسجيل لهجاتهم نحو القرن الثاني قبل الميلاد ، بعدما اندمجوا مع البونيقيين ، وشيدوا مملكة قرطاجنة فاعتبر (البربر) أنفسهم «أنهم والفينيقيون من أصل واحد ، يتحالفون معهم ضد الرومان ، وأن قرطاجنة كانت تعتبر إمبراطورية مشرقية إفريقية في جنوب المتوسط ، في مواجهة إمبراطورية روما شمال البحر »[٩] استمدت اسمها من عاصمتها مدينة (قرطاجنة) التي أسستها سنة (٤٨٠ ق.م) الأميرة (عليشة ديدو) « بإعانة الكنعانيين المستقرين بالسواحل التونسية ، فعظمت هذه المدينة حتى أصبحت

سيدة الحوض الغربي من البحر الأبيض المتوسط ، يمتد سلطانها من طرابلس إلى بوغاز جبل طارق ، ويحتكر أسطولها حرية البحر»[١٠] مما أزعج (روما) الاستعمارية ، فأشعلت نار حرب مع (قرطاجنة) ثلاث مرات خلال نحو قرن (بين ٢٦٤-١٤٦ق.م) ليكتب لها النصر وتدمر العاصمة (القرطاجنية) بفعل المكر والدسائس ، وهي تستعين بالبربري على القرطاجني ، وبالبربري على البربري ، كما فعلت لاستمالة (ماصينيها) وإغرائه بالحكم مستقلا في (سيرتا) عاصمة لمملكة (نوميديا) تحت حماية (روما) لكن حين خلفه ابن أخيه (يوغرطه) شعر بالمهانة تحت سلطة الرومان ، فأعلن عليها الحرب فاستعانت عليه بصهره البربري (بوكوس) بالمغرب الأقصى فسلمه إلى الرومان ، ليموت في سجن روما هنالك « جوعا وظمأً » .

ورغم ذلك فلم يكتب للرومنة - لا فكرا ولا لغة - أيّ نجاح في (شمال إفريقيا) ، فهناك الحقيقة الأزلية في الصراع بين (شرق) و (غرب) فضلا عن الاختلاف العرقي واللغوي ، إذن فالفضاءان الحضاريان المختلفان بقيا سدا منيعا دون ذلك .

من هنا أيضا كان الانسجام السريع بين العرب المسلمين الفاتحين والبربر الذين تلاءموا مع إخوانهم الجدد القادمين بالعقيدة وإطارها اللغوي ، كما تلاءموا قبلا مع إخوانهم البونيقيين الذين لحقوا بهم ، ومعهم مشاريع التجارة والحضارة وإطارها اللغوي أيضا .

فلم يلبث (البربري) أن أخذ زمام الموقف في نشر العقيدة (طارق بن زياد) مثلا ، وتأسيس الحواضر الثقافية الإسلامية ، وبناء المؤسسات التعليمية لتعليم القرآن والفقه بلغة الدين ، فلم نلمح ضيقا قط بالعربية ولا بالإسلام ولا بالانتماء إلي العرب ، بل العكس هو الصحيح ، فقد شيد (البربري) المدارس لتعليم اللغة العربية والإسلام ، كما أسس (الزوايا) أي المؤسسات الخيرية : لمجانية التعليم ، والطعام ، والإيواء ، فبرز مئات الأعلام ممن يسمون بربرا ، أعلاما في الثقافة العربية ، والفكر العربي ، والتأليف فيهما في أدق القضايا: في النحو (ابن معطي الزواوي ٥٦٤-٦٢٨هـ) و (ابن آجروم ...-٧٢٣ هـ) وفي الفقه أسماء لا حصر لها ، ومثلها في (الشعر) ، وفي المقدمة هنا أمير دولة بربرية (الدولة الزيانية) السيد (أبو حمو موسى الثاني : ٧٢٣-٧٩١هـ

/ ١٣٢٣-١٣٨٩م) فضلا عن المؤلفات الضخمة في التاريخ والأدب والنقد والأعلام ، والسير وغيرها مثل « تاريخ بني زيان : ملوك تلمسان » للشيخ (محمد بن عبد الله التنسي : ٨٢٠-٨٩٩ هـ / ١٤١٧-١٤٩٤م) و«البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان» للشيخ (ابن مريم المديوني) و« أعز ما يطلب » لأمير الدولة الموحدية البربرية (المهدي بن تومرت : ٤٨٥-٥٢٤هـ / ١٠٢٢-١١٢٩م) و « أخبار المهدي بن تومرت » للشيخ (أبي بكر الصنهاجي : ٤٩٠-٥٥٥هـ) و « عنوان الدراية في من عرف من العلماء في المئة السابعة ببجاية » للشيخ العلامة (أبي العباس أحمد بن أحمد الغبريني) المتوفى سنة (٧٠٤هـ / ١٣٠٤م) وكذا الشعراء ، وفي مقدمتهم من حمل لقب (أمير شعراء إفريقيا) الشيخ (بكر بن حماد التيهرتي : ٢٠٠-٢٩٦هـ) والشيخ (ابن خميس : ٦٥٠-٧٠٨هـ) فضلا عن أعلام الأدب والنقد الآخرين، وفي مقدمتهم الناقد الشاعر (ابن رشيق : ٣٩٠-٤٥٦هـ) صاحب (العمدة) و (الأنموذج) في النقد ، الذي وصفه (ابن خلدون) (بالإنفراد) في هذا النوع من الكتابة .

بات من يطلق عليه اسم (البربري) المدافع عن العقيدة ، الناشر للحرف العربي، فبالإسلام شرف ، وبالعربية عرف الإسلام وخدمه ، فحتى وإن خيل إليه أنه غير عربي عرقيا ، فهو عربي : فضاء بلغته ودينه ، ومن هنا غدا منذ فترة مبكرة حرص (البربر) على انتمائهم العربي ، كما يذكر ذلك (عبد الرحمن بن خلدون) في حرص (كتامة) و (صنهاجة) البربريتين على نسبهما العربي ، كما حرصت بعد ذلك عائلات في منطقة (القبائل) نفسها بالشمال الجزائري على هذا الانتماء ، حسبما جاء في تقرير فرنسي سنة (١٨٥٨م) بعد احتلال المنطقة ، بناء على المعلومات المستقاة من أفواه شيوخ المنطقة الذين «يعتقدون أن أصلهم من العرب » (١١) باستثناء ثلاث قبائل يعتقدون نسبتها الفارسية ، بل من العائلات في المنطقة ذاتها من يحرص على الانتماء إلى (آل البيت) وقد بات النسب النبوي بمرور القرون موضع إجلال ، مما مكن لبناء (إمارات) ودول بصفة الانتماء إلى (آل البيت) ، كالدولة الإدريسية في (المغرب الأقصى) ودولة الموحدين بزعامة (المهدي بن تومرت) لدرجة أن سكان منطقة (زواوة) نفسها إبان الحكم (العثماني - التركي) في (الجزائر)

كانت تشترط على من يمر بمداشرها أن يكون بصحبة أحد الأشراف (المرابطين) أي من (آل البيت) ، ويشمل ذلك بعض المسؤولين الأتراك ومبعوثيهم ، وهو ما أكده (حمدان بن عثمان خوجة) الذي عاش في العهد التركي في الجزائر ، فيذكر أن السكان «يشترطون على كل قافلة وكل شخص يمر بأراضيهم أن يصحب معه مرابطا [من آل البيت] ليكون حاميا له من الحوادث التي يتعرض لها المار أثناء مروره إذا لم يكن برفقته ذلك المرابط .. وكانت الحامية التركية - التي تتوجه كل سنة إلى حصن بجاية - مجبرة على أن تكون مرفوقة برجل من المرابطين ، إذا لم يكن سفرها عن طريق البحر »(١٢) لأن « هؤلاء البربر قد جعلوا ثقتهم التامة بالمرابطين ، وأن التعيس هو الذي يعاكسهم في هذا الاعتبار ، فهم يقتلون أصدقاءهم وحتى أقرباءهم إذا بلغهم أنهم يسخرون من المرابطين ، أو ينظرون إليهم بعين الحقارة ، وسواء كان هؤلاء المرابطين أحياء أو أمواتا . وكانت أحياء مساكنهم وأضرحة أمواتهم أماكن المناعة وملاجئ اللاجئين .. إذا التجأ إليها مجرم يصبح آمنا قانونيا طيلة مكوثه بها ».(١٣)

وقد استغل (الأتراك) هذا الشعور الروحي الإنساني الرفيع ، فحرصوا على الظهور بمظهر (المرابطين) و (الأولياء) لكسب رضى (البربر) فكان بعضهم لذلك « يؤدون عباداتهم بإتقان ، ويحافظون على أوقات صلواتهم».(١٤)

هذه الظاهرة الاجتماعية الثقافية الدينية استمرت خلال الاحتلال الفرنسي للجزائر ، لكنها لفتت نظره كآصرة تشد الجزائريين لبعضهم بعضا ، بعمقيها : الديني الخالص، واللغوي المطعم بقداسة دينية خاصة ، فتجعلهم كتلة واحدة صلبة قوية بهذا الحس الانتمائي لفضاء حضاري : كسد منيع أمام التوغل لتمزيق الصفوف .

فما الذي حدث ؟

****

عندما تمكن الاحتلال الفرنسي من (المغرب العربي) بدءا باحتلال الجزائر (١٨٣٠) فتونس (١٨٨١) ثم المغرب الأقصى (١٩١٢) فواجهته مقاومة جهادية قوية : أدرك سرّها في الوحدة التي تجعل القطر الواحد يصمد متماسكا، ووراء هذا السر طاقة جبارة هي الإحساس بالانتماء الواحد لفضاء

حضاري للعروبة بروحها الإسلامية، كما أدرك (الاحتلال) مشاعر الاعتزاز بهذا الانتماء من خلال التقارير العسكرية ونصائح رجال الكنيسة ، فشرع يخطط لضرب تلك الروح ، لضرب العلاقة بين (الإسلام) عقيدة ، و (العربية) لسانا ورافدا حميما لتلك العقيدة ، وصولا إلى إبداع قضية (بربر) و (عرب) لأولئك أصولهم وعاداتهم وتقاليدهم ولغتهم ، ولهؤلاء أصول وعادات وتقاليد ولغة مختلفة .

ومن هنا انطلقت السياسة (البربرية) في (المغرب العربي) تحت (الاحتلال الفرنسي) لإثارة الفرقة والإيعاز بأن هناك أمتين أساسيتين تختلفان في كل شيء ، ولا تجمعهما إلا الأرض ، فأبدع الاستعمار فكرة (عرب) و (بربر) انطلاقا من ضرب الصلة بين (الإسلام) عقيدة و (العربية) لسانا وإطارا ، بل محاولة التشويه والتحريف الديني ، للابتعاد عن (الإسلام) والمسخ اللغوي ليس بالدعوة إلى (البربرة) فحسب ، بل لجعل العربية الفصحى (عربيات عامية) بناء على تقارير رجال الاحتلال الدينيين والاستراتيجيين ، وضباطه في الميدان الذي اقترحوا تحييد العربية ، والعودة إلى البربرية ، ليكون بعد ذلك الانتقال « مباشرة من البربرية إلى الفرنسية » كما جاء في رسالة أحد الضباط الذي أضاف : « فالعربية تعتبر أهم العوامل لمعرفة الإسلام ، لأنها لغة القرآن، أما مصلحتنا فتحتم علينا أن نطور البربر خارج إطار الدين الإسلامي »(١٦)

ومن هنا نبه الخبراء الفرنسيون الإستراتيجيون إلى خطورة الشقين معا (العربية) و (الإسلام) على مستقبل الاحتلال ، واستقراره ، لأن الإسلام « يعني تعميق نفوذ ديانة من أهم أركانها الجهاد المقدس ، ونشر لغة بإمكانها أن تصبح وسيلة لنشر أفكار معادية »(١٧) ولكون التعريب في الوقت ذاته هو « الأسلمة بالذات » .

من هنا بدأ العمل انطلاقا من فكرة أن سكان (شمال إفريقيا) بعضهم (عرب) وبعضهم (بربر) يرى غلاة الاستعمار أن هؤلاء أغلبية عليهم أن يعودوا إلى العمل بأعرافهم ووثنيتهم ، وحتى نصرانيتهم (قبل الإسلام) وأن يعادوا العربية بتبني فكرة (البربريات) المغاربية ، كخطوة للابتعاد عن (العربية) واحتضان (الفرنسية) بمضمونها النصراني ، فبدأ العمل إذن على الجبهتين يؤازرهما العمل العسكري الجاري والسياسة التعليمية التنصيرية الماضية قدما على مهل ، حسب مراحل مدروسة في أغلبها .

فعلى المستوى الاجتماعي ، والديني العقدي : استغل الاحتلال الفرنسي خصوصا ظروف الجهل والفقر في الأرياف ، والجبال ، فأسس دورا (للرعاية) الاجتماعية كغطاء للتنصير السريع ، وأعلن حاجة (البربر) للعمل في مختلف جوانب حياتهم المدنية والاجتماعية بالعرف والعادات والتقاليد التي عرفوها في تاريخهم بدل العمل بالشرع الإسلامي ، حرّض على ذلك بشتى الطرق : المباشرة الرسمية ، وغير المباشرة بأشكال مختلفة ، مما ظهرت آثاره سريعا ، خصوصا في (المغرب الأقصى) و (الجزائر) . ففي (الجزائر) كان يجري العمل بحيطة وحذر ، تركز على منطقة (القبائل) ولم ينجح مقدار ذرة خارجها إلا في حالات استثنائية جدا مموهة بصفة إسلامية .

أما في (المغرب الأقصى) فبدأت العملية بظهور قانون متردد صدر في (١٩١٤/٩/١١) بعد سنتين فقط من الاحتلال ، ثم اتخذت طابعا أقوى رسميا في شكل (قانون)صدر تحت (الحماية) الاحتلالية يوم (١٩٣٠/٥/ ١٦) سمي (الظهير البربري) ، تنشأ بمقتضاه ، في الجبال خصوصا «محاكم لا تحكم بالإسلام وإنما بالعرف ، متركبة من الأعيان ، ومكلفة بالحكم في جميع القضايا المدنية والتجارية ، وقضايا المنقولات ، والقضايا العقارية ، وفي كل مادة تتعلق بالأحوال الشخصية أو نظام الميراث» وغيره مثل الزواج و (الطلاق) ونحو ذلك ،مما يمس حياة المواطنين (البربر) فيمسخ حياتهم ، ويعود بهم إلى وثنيتهم ،ويقربهم من سياسة الاحتلال الدينية والثقافية باعتبارهم أضعف ثقة في النفس ، وأكثر هشاشة دينية ، وأيسر في قابليتهم للاحتلال الأجنبي ، مما يساعد على إيثارهم ، واستعدائهم على العرب في النهاية ، وصولا إلى الهدف المنشود في (المغرب) كما في (الجزائر) ، وقد كان المجتمع في الريف المغربي في « طور اقتصادي شبيه بالذي كانت فيه أرياف اليونان العتيق ومدن أوروبا الغربية في القرون الوسطى ... وكان السكان في معظمهم ريفيين ولو في درجة أقل من (الجزائر) »(١٨) ، مما يهيىء المناخ لمشاريع الاحتلال الذي سعى لاستغلال (ظهير ١٩١٤) بإيعاز من الجنرال (ليوتي) قبل (الظهير البربري) الصادر في (١٩٣٠/٥/١٦) الذي أخذت به «السياسة البربرية ... فجأة صبغة علنية ، وقد أمضاه السلطان الفتى سيدي محمد بن يوسف»(١٩) تحت الحماية الفرنسية .

لكن المواطن المغربي لم يسكت ، فانطلقت الحملة على (الظهير) وكانت لها «انعكاسات عميقة ، فقد انطلقت الحركة من مساجد (سلا) حيث ظل دعاء أيام الخطر (يالطيف) يذكر إثر الصلاة ، وهو ينتهي بهذه الجملة : يالطيف انقذنا من معاملة القدر السيئة ، ولا تفصلنا عن إخواننا البربر .. ودوّى جامع القرويين بذكر يالطيف ، وأقبل الجمهور على حرم مولاي إدريس يردد الذكر ، فكانت في ذلك مظاهرة شعبية »[٢٠] كان لها ضحاياها وشهداؤها ، ودورها أيضا في إثارة الوعي الوطني بخطط الاحتلال الفرنسي ، فقضية الظهير البربري لم تبرز الوعي المغربي الوطني فقط ، بل أدمجت المغرب الأقصى المسلم في الوحدة الإسلامية ، جاعلة جميع المسلمين يقاسمون إخوانهم المغاربة محنهم ، وأخذت القضية التي أتقن (شكيب أرسلان) حبك خيوطها أبعادا شرقية »[٢١] تضامنية .

أما في (الجزائر) فلم يمكّن تماما لنظائر هذا (الظهير) رجال منطقة (القبائل) التي (ركز) عليها الاحتلال في الشمال ، وشهروا في النهاية بسياسة (البربرة) في الأحوال الشخصية ، وأعلنوا ذلك في الصحافة ، من بينها (البصائر) التابعة لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين التي نشرت عريضتهم مع تعليق عليها بقلم : محمد البشير الإبراهيمي في العدد : ٥٩ (٦ديسمبر١٩٤٨) بعنوان « زواوة الكبرى تستمسك بعروبة الإسلام الوثقى وتطلب الرجوع إلى الأصل » قال فيه : « جاءتنا العريضة التي ننشر نصها وإمضاءات أصحابها كاملة من رجال زواوة الكبرى يطلبون فيها من الحكومة إلغاء القوانين الخاصة بزواوة في الأحوال الشخصية ، تلك القوانين التي تستند على العوائد والأعراف لا على أحكام الشريعة الإسلامية ، ويطلبون الرجوع إلى الأصل ، وهو أحكام الشرع الإسلامي ، في النكاح والطلاق ، وما يتفرع عنهما ، وفي الميراث والوصية والحجر .

والحكم بالعوائد مطلب عزيز من مطالب الاستعمار الفرنسي ، زرع بذوره في أرض زواوة وتعهدها بالسقي والعلاج ، وقواها بتقوية مراكز التبشير وإطلاق يد المبشرين ، وظن أنها استغلظت واستوت على سوقها ، فجاءت هذه العريضة مجتثة لما غرس من أصله ، وأقامت الدليل للمغرورين بالظواهر على أن زواوة معقل من معاقل الإسلام والعروبة .

جاءت قضية (الظهير البربري) بالمغرب الأقصى في وقت استيقظ فيه الشعور

الإسلامي ، فأقام العالم الإسلامي وأقعده ، ولم يدر إلا القليل من الناس أن لذلك الظهير أصلا ، وهو (قوانين زواوة) إن الغاية التي يرمي إليها الاستعمار .. هي إبعاد طوائف من المسلمين عن الإسلام بالتدريج حتى تضعف فيهم النعرة الدينية ، وعاطفة التآخي الإسلامي ، وتصير الأمة الواحدة أمتين أو أمما »[٢٢] معلنا أن الموقعين هم خلاصة منطقة (زواوة) أي (القبائل) وأصحاب الرأي والتوجيه في الجهة ، ومرجع الرأي العام المحلي .

هذا عن الجبهة الدينية الاجتماعية ، أما في الجبهة اللغوية ، فقد بدأت محاولات التشويه في المدرسة الفرنسية : ابتدائية ، وثانوية ، وحتى الجامعة ، من أجل غرس بذور الحقد ، إيعازا بأن هناك عنصرا (بربريا) أصلا ، وعنصرا آخر عربيا وافدا قبل الاحتلال الفرنسي ، عليه أن يتلاشى بلغته ودينه ، فنبتت في هذه التربة التي تعهدها الاحتلال الفرنسي بالتسميد ، والتهوية : النعرة (البربرية) في مواجهة لعنصر آخر هو (العرب) ، وهي (خلقة فرنسية)من أجل « أن تخلق مشكلة بين أبناء الأمة الواحدة ، وذلك نفسه أشبه بالمحاولات لبعث الفرعونية في مصر ، والفينيقية في لبنان ».[٢٣]

تغذت هذه (النعرة) في المؤسسات التعليمية الفرنسية ، ومن بعض الدراسات الفرنسية ، في مكتب الدراسات البربرية الفرنسية ، ومن مشاريع تدريس اللهجات الجزائرية التي أسموها (لغات)، من هنا نبت وترعرع دعاة (البربرية) و(التبربر) وهم ذوو تعليم فرنسي ، وجهل بالعربية وحضارتها، بل هناك عزوف لديهم حتى عن الحديث بالبربرية في المحيط العائلي ، خصوصا لدى المتزوجين من فرنسيات ، وقد بدأ هذا التيار الحامل لهذه النعرة يعبر عن نفسه منذ الثلاثينيات على استحياء فنبه إلى مخاطرها القاتلة في صف الحركة التحريرية الوطنية بعض المناضلين ، والوطنيين المخلصين ، أمثال المجاهد المرحوم (أحمد بودع) في اجتماع للجنة المركزية لحزب الشعب الجزائري ، سنة (١٩٤٨) حتى انفجرت المشكلة سنة (١٩٤٩) بعد تسرب (عناصر) متبربرة إلى صفوف (الحركة الوطنية) وفي مقدمتهم (محند علي يحي) الذي قدم له (أحمد بودع) كل العون ، للخروج من (الجزائر) إلى (فرنسا) للدراسة ، فانتهى (متزعما) لتيار (البربرية) في (فرنسا) التي غدت مأوى لانتشار

التيار ، وبؤرة لصناعة العملاء فيه، الذين دعا بعضهم إلى تكوين حزب (الشعب القبائلي) وتحجيم ما أسموه « خرافة الجزائر العربية » ، ورغم حرص (الحركة الوطنية) على تطهير صفوفها من العملاء الشعوبيين ، فقد موّهت عناصر منه ، وباتت على حظ من الزعامة في النهاية ، لتكون من معاول الهدم بعد الاستقلال .

كانت الواقعة الانشقاقية في صفوق الحركة الوطنية (١٩٤٩) بفعل التيار الشعوبي المتبربر حافزا كبيرا لتمضي (فرنسا) في إعداد رجال (الحركة) في (باريس) وفي (الجزائر) مما بات (استراتيجية) ذات أولوية بعد الاستقلال (١٩٦٢) .

فالمهمة إذن لم تتوقف قط ، واستمرت بقوة أشد بعد الاستقلال بدءا بحركة (آيت أحمد) التمردية بطابعها العرقي ، عملا في إطار حلمه (الشعوبي) الذي موّه عنه، وكشفه أخيرا (١٩٨٣) في كتابه (مذكرات مكافح) الصادر في (باريس) .

فإلي أين مضت الدعوة (العرقية) المتبربرة بعد (الاستقلال) ، هنا يطول البحث في المناخ السياسي الجديد ونتائجه المختلفة ، والانحرافات الخطيرة في النظام الذي أعطى فرصا ذهبية للعملاء كي يعيثوا فسادا ، بل يتألقوا، كما خيّب هذا النظام أمل المواطنين الشرفاء في العدل والحرية الحقيقية ، ومكن بشكل غير مباشر لقوى الشر لتمضي في خططها برعاية (فرنسا) صانعة العملاء ، والمرتزقة ، وتجار (القضايا) وسماسرة (الشعارات) .

هنا تمكن الإشارة إلى ثلاث محطات رئيسية في المسألة (البربرية) بوجهها (اللغوي) الذي سيندمج مع الوجه الآخر (الاجتماعي - الديني) سريعا ، لكن بشكل حذر ، تجنبا لمشاعر الغضب لدى المواطن المعتز بإسلامه ، ، في منطقة (القبائل) نفسها .

أول محطة إذن في تطور المسألة (البربرية) كانت في (١٩٤٩) ثم اطّردت بعد (الاستقلال) بإنشاء (الأكاديمية البربرية) في (باريس) رسميا سنة (١٩٦٧) برعاية فرنسية ، وشخصيات يهودية فرنسية ، مع الاستعانة في ذلك بعناصر

ذات أصول جزائرية : مزدوجة الجنسية (فرنسية - جزائرية) للوقوف في وجه (العربية) والتعريب أساسا ، في التعليم ، والإدارة ، وقد شرعت هذه العناصر تبتز خصوصا المهاجرين العمال في فرنسا من (منطقة القبائل) لدفع اشتراكات، ومساهمات ، لتموين نشاط (الأكاديمية) فضلا عن الدعم الرسمي الفرنسي ، فكان في مطبوعاتها إلحاح على مقاومة (العربية) و (حركة التعريب) الوطنية ، فجاء في أحد منشوراتها المحررة في (١٩٧٣/١/٢٥) مايلي : « إن اللغة البربرية مهددة من جميع النواحي .. تارة بسياسة التعريب التي تهدف إلى استئصال البربرية من جذورها ، وتارة بإهمال البربر أنفسهم للغتهم .. يجب على البربر أن يتحدوا ضد جريمة نكراء اسمها العروبة... نعتمد على تفهمكم ... حتى نتمكن من أن نحتفظ للبربر بتراثهم الثقافي ... تحيا اللغة البربرية »(٢٤)

ثم تضيف هذه الأكاديمية في أحد منشوراتها السرية في السنة نفسها عنوانه « أيها البربر استيقظوا :Berberes Reveilez-vous » جاء فيه : « أفيقوا من نومكم العميق .. إنهم يحاولون أن يفصلوا عنكم أبناءكم .. تفرض عليكم عقائد ومبادئ تتعارض مع تقاليدكم وحضارتكم ... قاوموا عملية التعريب الجارية قبل فوات الأوان ... »(٢٥)

جاء ذلك ردا على بعض الخطوات الملموسة التي شرع فيها (النظام) مثل تعريب القضاء ، ووثائق الحالة المدنية ذات الصلة اليومية المباشرة بالمواطن ، فالصرخة في جوهرها دعوة للنهوض لحماية الفرنسية من الهزيمة .

هذه محطة مهمة : انتجت في أوقات معينة (إرهابيين) تمولهم المخابرات الفرنسية لضرب المصالح الجزائرية ، في الداخل وفي الخارج ، وهيكلت عملاء يدرسون سرا (البربرية) كخادم طيعة للذود عن الفرنسية ، في الثانويات والجامعات في السبعينات ، يتبادلون الأبجدية (البربرية) سرا ، أما (مولود معمري) فهو يدرِّسها علنا في الجامعة مستغلا بحوث الفرنسيين في حروف (التيفيناغ) مدعوما باللوبي (الفرانكفوني) من (بقايا الحركة) في (النظام) أي عملاء فرنسا ، ووزراء وعمداء ومديري مؤسسات مختلفة اقتصادية وعلمية وثقافية .

هذه المحطة الأساسية تلتها محطة أخرى عبرت عنها (في تيزي وزّو) حركة

(الربيع البربري) أو (الأمازيغي) في (أبريل ١٩٨٠) بإضراب في الثانويات والمركز الجامعي بها ، ثم في مظاهرات احتجاجا على منع سلطات الولاية (مولود معمري) من إلقاء محاضرة ذات طابع عنصري تحريضي في الجامعة .
وقد شاهدت بعيني يومئذ ، وقد كنت أعمل متعاونا مع (المركز الجامعي) أستاذة في إحدى ثانويات (تيزي وزو) تدفع الطلبة إلى الشارع محرضة على التظاهر ، وهي تصرخ بعبارة (تحيا البربرية) التي تعنى (تحيا الفرنسية) في وجه (العربية) التي بدت (غولا) مخيفا لإجلاء الفرنسية من الحياة الوطنية .
هذه الحركة لقيت دعما من أجنحة فاعلة عميلة في النظام فيها إطارات عليا ووزراء إبان حكم الرئيس (الشاذلي) وشرعت (الحركة) تعمل بجد لإحياء العمل بالأعراف البربرية ، بما فيها الأعياد ذات الطابع الوثني ، واستطاعت ابتزاز النظام لتمويل ملتقى دام شهرا كاملا في (العربدة) و(اللغط) بالمركب السياحي الجبلي الفخم في قرية (إيعكورن) لمناقشة القضية (الثقافية البربرية) ومن عناصر الملتقى من لا أعرف إيمانا لهم بغير (الفرنك) و (الدينار) والمنصب المدر للمكاسب ، لا يؤمن بوطن ، ولا بانتماء ، لا عربي ، ولا بربري، وقال لي أحدهم من دون أدنى خجل إنه مستعد لأخذ كل جنسية ، وأي دين إذا قبضت ثمن ذلك مسبقا مالا وعقارا في (فرنسا) أو (كندا) أو (بلجيكا) أو (سويسرا) .
وبعد شهر من ليال حمراء ، ونزهات معربدة خرج الملتقى الذي سمي (أولا) (بتوصيات) لنظام هزيل أعرج ، ليس له رؤية مستقبلية ، سقط في يد (الجهل) و (الجهلة) منذ أول يوم من استقلالنا ، وفي عبارات تلك التوصيات (الدعوية) المعبرة عن جهل وقصور نظر ، على فرض الصدق كثير من (التشويه) و(الاستفزاز) أيضا، نأخذ منها عينات في التالي : -

*** « البحث عن هوية جزائرية حقيقية .**

*** العمل على ترقية لغتي الوطن (الأمازيغية والعربية الجزائرية) .**

*** من المؤكد أن التعريف الرسمي لهوية الشعب الجزائري لا يتضمن الحقيقة الأمازيغية ، والسبب في إبعاد الأمازيغية عن هذا التعريف يعود إلى الحركة الوطنية الجزائرية التي تميزت بسيطرة الأيديولوجية العربية الإسلامية على**

حساب كل بعد أمازيغي للأمة .

*** استعمال لغات الشعب الجزائري العربية الجزائرية والأمازيغية في منظومة الإعلام.**

*** إن تطوير اللغات الشعبية إلى لغات رسمية يعتبر شرطا من شروط التقدم الاجتماعي ... »(٢٦)**

هذه مقتطفات ، كنموذج مصغر عن فكر (بيغاوات) روضت ترويضا سيئا في نطق المطلوب منها ، ولم أتألم قيد أنملة من منطقها ، لكنني تأذيت حتى النخاع أن يهدر (نظام الفساد والمفسدين) أموال الشعب الجزائري من خزينته، لتمويل عربدة (العملاء) و (المرتزقة) لتنقض بمعاولها على إنجازات الشعب الجزائري العظيم ، وهي تعرّض بسياسة (الحركة الوطنية) التي هيأت للثورة ، وأعدت الثوار ، لإعلان الثورة ، وصولا إلى الاستقلال الذي انقضت عليه (الغربان) فاغتصبته بقوة الحديد ، بعد تعب الرجال أو استشهادهم في قمم الجبال وسفوحها ووهادها ، كصحاريها وقراها وأريافها .

توصيات (إيعكون) اجترار حرفي للرؤية الفرنسية ، ومحاولة لاستمرار سياستها التعليمية الثقافية ، فمصطلح (اللغات الجزائرية) مصطلح فرنسي ، وخطة فرنسية كانت تدرس بها (اللهجات المحلية) إبان الاحتلال، ولا تزال في فرنسا بعض الجامعات الفرنسية ، أو المراكز الجامعية في (فرنسا) تعمل لذلك والارتقاء بهذه اللهجات إلى مستوى (لغات رسمية) : يعني مختلف (اللهجات البربرية الأمازيغية) التي لا تقل عن أربع ، وكذا (اللهجات العربية) ، أي (العاميات) العربية في الجزائر على قلة الفروق فيها بين شرق الوطن وغربه ، شماله وجنوبه ، ووسطه .

ملتقى (إيعكون) لا يكتفي بإدانة (الحركة الوطنية) التي قادت (الجزائر) إلى الاستقلال ، بل يتأسف للظروف التي تؤذن بانحسار النفوذ الخاص للغة للفرنسية ، وهذا أمر طبيعي على ألسنة ببغاواته ، فلم يجدوا ذريعة للدفاع عن الفرنسية ، والفكر الفرنسي غير (البربرية) ، فكلهم (فرانكفونيون) من دون استثناء ، ومعظمهم زوجاتهم (فرنسيات) ، فأخوال أولادهم فرنسيون ، ولا ظل لكلمة (بربرية) في البيت ، حيث تسود الفرنسية لغة : من باب (البيت) إلى (مخدة السرير) ، وثقافتهم من (الجريدة) حتى (ملعقة

المائدة) فرنسية مرورا بالتحية ، فضلا عن الأعياد الفرنسية، وشجرة (النويل) وما إليها .

فقضية (البربرية) هنا مفتعلة كذريعة للدفاع عن الفرنسية المهيمنة في حياة أمة : دينها الإسلام ، ولغتها الجامعة العربية ، لغة (وحدة) وتوحيد لله ، وجمع لكلمة الأمة ، والتعبير عن الهوية الحضارية للوطن .

هذا الافتعال لقضية (البربرية) وجد مناخه العفن في سياسة (النظام) بعد دستور (١٩٨٩) الذي أباح إنشاء (الجمعيات) ذات الطابع السياسي ، ولم يسمها أحزابا ، لكن النظام المتهالك في أيدي المسيرين العابثين ، من الهرم إلى القاعدة خضع لقانون (الممارسة) لجماعات الضغط، فصارت (الجمعيات) ذات الطابع السياسي تسمى (أحزابا) ، ومن أجلها عدل الدستور ، للتصريح بها كأحزاب تهريج تستنفد الأموال من (خزينة الدولة) لتصعيد الأزمة التي سرعان ما تشعبت: سياسيا واقتصاديا وثقافيا واجتماعيا ، وقد نشأت أحزاب جهورية ، معلنة توجهها العنصري ، همها الأول والأخير الدفاع عن (الفرنسية) تحت ذريعة (البربرية) هوية ولغة ، مما بات نغما لحزبي (FFS)و (RCD) اللذين خاضا معارك لتعطيل قانون استعمال اللغة العربية الصادر عن المجلس الوطني الشعبي (البرلمان) المنتخب شرعيا ، وتم لهما ذلك على أيام السيد (بوضياف) الذي حمله الانقلابيون إلى سدة الحكم في (١٩٩٢) بعد إزاحة (الشاذلي) .

هنا تأتي المحطة الثالثة في مسار الافتعال للمسألة (البربرية) ، وقد سمح المناخ الديمقراطي على كل ما فيه من تشوهات فظيعة بأن تكشف الأحزاب الجهوية عن نياتها الحقيقية ، في محاربة (العربية) والدفاع عن (الفرنسية) بحجة التمكين للغة (البربرية) التي صاروا يسمونها (الأمازيغية) ، فغدا هذا الدفاع مستميتا بشكل سافر لدى (FFS) و (RCD) وجمعيات تابعة للحزبين ، أو عناصر نسوية معوقة فكرا ولسانا ووجدانا .

فرغم خنوع النظام ، وتعطيله قانونا لتعميم العربية أقره (برلمان وطني) شرعي ، واستجابة هذا النظام لتأسيس محافظة (سامية للأمازيغية) فالأحزاب والجمعيات البربرية أصرت على مقاومة كل خطوة على حساب (اللغة

الفرنسية) أداة عمل في الإدارة والتعليم تحت غطاء المطالبة بالأمازيغية لغة وطنية رسمية .
من هنا جاءت تلك الضغوط على رئيس الجمهورية (اليمين زروال) حين قرر رفع التجميد ، أو (التعطيل) عن قانون اللغة العربية ابتداء من (٦يوليو ١٩٩٨) فبلغ رد الفعل (البربري - الفرنسي) شكلا استفزازيا، تكررت فيه الدعوة إلى حماية (الفرنسية) ووقف المشروع ، فاندلعت من أجل ذلك أعمال عنف وتحطيم في مدينة (تيزي وزو) وكر (الحركة البربرية) الفرنسية ، وصدر في (الصحافة الفرنسية) في (الجزائر) كلام استفزازي خلال شهري (يوليو وأغسطس ١٩٩٨) ، واستمرت الهجمة (الهستيرية) على العربية دفاعا عن الفرنسية تحت غطاء الدعوة إلى (البربرية) .
و (الصحافة الفرنسية) في (الجزائر) كنظيرتها في (فرنسا) لعبت دورا مهما في تغذية الحس العنصري بمنطق (البربر) و (البربرية) ثم (الأمازيغية) ، وأوغلت قوى (العملاء المهيكلين) مع (أحزاب) و(جمعيات) في التآمر ، فدعت لعقد مؤتمر دولي بتموين (استعماري) حول (الأمازيغ) سنة (١٩٩٦) في منطقة (بربرية) بالجزائر (الأوراس) مهد الثورة التحريرية ، فرفض رجال (الأوراس) الأشاوس بعنف معتزين بالإسلام الذي عربهم ، حريصين على ألا يشوه تاريخهم ونضالهم الوطني ، عكس أولئك الذين يمارسون (النضال العنصري) ، كما رفضت ذلك (بجاية) نفسها ، فحزم العملاء حقائبهم إلى (باريس) ليعقدوا أخيرا مؤتمرهم في (جزر الكناري) في (أغسطس ١٩٩٧).
وأعجبت اللعبة محترفيها ، فراقت لهم ، فجاء مؤتمرهم الثاني بمدينة (ليون) الفرنسية ، في (١٣-١٥ أغسطس ١٩٩٩) حريصين على إشراك جمعيات مختلفة من العالم ، وشخصيات للديكور الذي ينبغي أن يزين بجمعيات (حقوق الإنسان) .

وهكذا يتضح من مسار (القضية البربرية) التي صارت تسمى (الأمازيغية) أنها لم تعرف هذا التحول السلبي إلا مع مجيء الاستعمار الفرنسي إلى (المغرب العربي) ولم يتركها وراءه فقط وينساها ، بل تعهدها بالرعاية والحماية (كدابة) فرانكوفونية للذود عن حمى الفرنسية في المغرب ا لعربي عموما ،

وفي الجزائر خصوصا ، حيث تهيأت فرص النجاح (للدابة) في أرض مهدتها قوى (العمالة) في نظام يهترئ ، على كل الجبهات .

احتضن (البربر) إخوانهم الفينيقيين ، فتآزروا ، وبنو الحضارة القرطاجنية في حوض (البحر المتوسط) حتى ضرب صفوفهم الرومان بأسلوب (فرق تسد) ، وإن سادت (روما) سياسيا ، فلم تسد ثقافيا ، فلم تستطع رومنة الشمال الأفريقي الذي سرعان مااحتضن الإسلام عن حب ، وعشق العربية أداة علم وتعليم ثم حياة ، حتى جاء الاحتلال الفرنسي ففعل فعله ، فكان أذاه في (الجزائر) أكبر وأكثر تشويها من أي أذى في مكان آخر في العالم، بما في ذلك الجارتان (تونس) و (المغرب) لأن الاحتلال الفرنسي واثق من أن قوة (الجزائر) تكمن في وحدتها ولا وحدة خارج ما أقرّته الجغرافية وزكّاه التاريخ ، وعمقته اللغة والعقيدة، لتصمد في (المغرب العربي) عموما و (الجزائر) خصوصا تلك (العروبة) التي ينكرها عليها الاستعمار ، كما ينكر عموما « عروبة الشمال الإفريقي بالقول ، ويعمل على محوها بالفعل، وهو في جميع أعماله يرمي إلى توهين العربية بالبربرية ، وقتل الموجود بالمعدوم ، ليتم له ما يريد من محو واستئصال معا ، وإنما يتعمد العربية بالحرب لأنها عماد العروبة ، وممسكة الدين أن يزول ، ولأن لها كتابة ، ومع الكتابة العلم ، والأدب ، ومع الأدب التاريخ ، ومع كل ذلك البقاء والخلود ، وكل ذلك مما يقض مضجعه، ويطير منامه ويصخ سمعه ، ويقصر مقامه »(٢٧) المادي مقيما ، والمعنوي بعد الرحيل .

تلك « العروبة الأصلية في هذا الوطن هي التي صيرته وطنا واحدا لم تفرقه إلا السياسة : سياسة الخلاف في عصوره الوسطى ، وسياسة الاستعمار في عهده الأخير ، وهذه العروبة هي مساكه على كثرة المفرقات ، وهي ملاكه على وفرة العوامل الهادمة ، وهي رباطه الذي لا ينفصم ببقية أجزاء العروبة في الشرق »(٢٨)

خاتمة :

عرفت (الجزائر) عبر تاريخها الطويل مشاكل سياسية جمة ، ولم تعرف يوما المسألة (البربرية) ولا المشكلة الثقافية بمضمون عرقي ، حتى جاء الاحتلال الفرنسي ، عاشت في الإسلام عربية أكثر من ثلاثة عشر قرنا من دون (عرقية) فما جاء الاحتلال حتى وجه رماحه لهذا الانتماء بوجهيه : الديني واللغوي ، للتمكين له، وللغته ، فعمل لضرب العلاقة بين العربية والدين ، ثم اتجه إلى انتزاعهما من الحياة، ومن الوجدان ، بتدمير المؤسسات التعليمية والزوايا ، وتحويل المساجد نفسها (اصطبلات) و (كنائس) ونشر (المدارس الفرنسية) و (المؤسسات التنصيرية) والكنائس ، وصناعة متعلمين عملاء ، كانوا سلفا فاعلا ، تركوا خلفا تابعا ، فانقادوا لتنفيذ خطط الاستعمار ، وخدمته انتماء : لغة وحياة اجتماعية ، وثقافية عامة ،فتدثروا بعربة (البربرة) حينا ، و(الأمازيغية) تارة ، و (الحريات العامة) أحيانا لضرب العربية و (العروبة) لصالح (الفرنسية) و (الولاء) لأوروبا .

فالقضية (البربرية) إذن بوجهيها السياسي والثقافي قضية مفتعلة ، صناعة فرنسية خالصة ، صناعة رديئة مستهلكة ، في ورشة بات يلجأ إليها كل المنبوذين المعقدين الضائعين فكريا وعقديا ، وقد استطابوا فيها المقام في حضور نظام مهترئ غاب فيه الرجال الذين صنعوا النصر المادي والمعنوي خلال أكثر من قرن وربع قرن على الاحتلال الفرنسي ، وحضر الأشباه الذين مكّنوا للاحتلال من جديد ، كما تمكن على أكتافهم أعوانه وبيادقه ، ليعيشوا عرسهم السياسي في ديمقراطية مشوهة على (الويسكي) و (الريكار) وتعاني أمة في معاشها اليومي وفي عزتها وكرامتها بعدما دفعت مليوني شهيد من (١٨٣٠) إلى (١٩٦٢) ثمنا لحريتها الكاملة ، واستقلالها غير المنقوص ، فخانها (أشباه الرجال) كما غدر بها العملاء ، «وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون » بإذن الله تعالى ، ذي الحول والقوة الذي لا راد لقضائه ، وقدره .

عاصمة الجزائر، في ٦ جمادى الأولى ١٤٢٠هـ / ١٨ أغسطس ١٩٩٩م.

الهوامش :

١ - ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، المجلد الأول ، ص ٣٢٨ ، دار صادر للطباعة والنشر - دار بيروت للطباعة والنشر ، بيروت ،١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م .

٢ - أبو زكريا يحي بن خلدون ، بقية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد ، ج:١ ، ص ١٧٨:١٧٩ ، تقديم وتحقيق وتعليق د. عبد الحميد حاجيات ، إصدارات المكتبة الوطنية بالجزائر ، ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م

٣ - محمد علي مادون ، عروبة البربر الحقيقية المغمورة ، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ، المركز العربي للتعريب والترجمة والتأليف والنشر ، ط١ ، ص٢٠ ، دمشق ، ١٩٢٢ م .

٤ - انظر :

Encyclopedia Universalis, Corpus:3, P:486:491, France, 1985 .

٥ - انظر :

Encyclopedia D'L'Islam, Tome :1, P:1208:1223, G.-P., Maisonneuve, Paris 1975 .

٦ - محمد علي مادون ، المرجع نفسه ، ص١٠٧ .

٧ - المرجع نفسه ، ص:٩٩ .

٨ - المرجع نفسه ، ص:١١٢ .

٩ - عثمان سعدي ، عروبة الجزائر عبر التاريخ ، ص:٢١ ، الشركة الوطنية للنشر والوزيع ، الجزائر ١٩٨٢

١٠- أحمد توفيق المدني ، كتاب الجزائر ، ط٢ ، ص:٧ ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر ، ١٩٨٤ .

١١ - د. أحمد بن نعمان ، فرنسا والأطروحة البربرية في الجزائر ، ص:١٠٥ ، منشورات دحلب ، الجزائر ١٩٩١ م .

١٢ - حمدان بن عثمان خوجة الجزائري ، المرآة ، عربه وقدم له د. محمد بن عبد الكريم ، ص:٨٩ ، منشورات دار مكتبة الحياة ، بيروت ، ١٩٧٢ .

١٣ - المرجع نفسه ، ص : ٨٨ .

١٤ - المرجع نفسه ، الصفحة نفسها .

١٥ - عبد الكريم مطيع ، عرب وبربر ، مؤامرة لتنصير المغرب واحتلاله ، ص:١٨ ، نشر

الشبيبة الإسلامية المغربية ، سلسلة نحو بدائل إسلامية ، باريس ، من دون تاريخ ، مطلع الثمانينات .

١٦ - المرجع نفسه ، ص: ١٨ .

١٧ - المرجع نفسه ، ص: ١٩ .

١٨ - شارل أندري جوليان ، إفريقيا الشمالية تسير ، ت:النمجي سليم وآخرين ، ص:١٦٤ ، الدار التونسية للنشر (تونس) ، المؤسسة الوطنية للكتاب (الجزائر) ١٣٩٦هـ / ١٩٧٦م .

١٩ - المرجع نفسه ، ص : ١٧٠ .

٢٠ - المرجع نفسه ، ص : ١٧١ .

٢١ - المرجع نفسه ، ص : ١٧٩ .

٢٢ - محمد البشير الإبراهيمي، آثار محمد البشير الإبراهيمي ، ج٣ ، ص: ١٤٥-١٤٦ ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر ، ١٤٠٢هـ / ١٩٨١ م .

٢٣ - محمد علي مادون ، المرجع نفسه ، ص : ١٢١ .

٢٤ - د. أحمد بن نعمان ، فرنسا والأطروحة البربرية في الجزائر ، ص : ١٣٦-١٣٧ .

٢٥ - المصدر نفسه ، ص : ١٢٨ .

٢٦ - المصدرنفسه ، ص : ١٦٧-١٦٨ ، ١٧٢ : ١٧٥ ، أصل النصوص بالفرنسية ، ترجمها (د. أحمد بن نعمان) وأدرجها في المصدر المذكور .

٢٧ - محمد البشير الإبراهيمي ، عيون البصائر ، ط٢ ، ص : ٤٧٩ ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر ، ١٩٧١ .

٢٨ - المصدر نفسه ، ص : ٤٧٨ .

القسم الثالث

مقالات قصيرة في المشكلة الجزائرية

ذات الظلال المتداخلة : ثقافيا وفكرياً ، وسياسيا ، واجتماعيا

هنا نماذج من (مقالات) محدودة في (المشكلة الجزائرية) كان ينشرها الكاتب في الصحافة الخليجية خلال التسعينات، أهمها جريدة (الراية) القطرية التي كانت للكاتب بها مقالة اسبوعية ، في كل يوم إثنين .

(رئيس) .. لا يقرأ

أعترف للقارئ الكريم وأنا أكتب من عمق (الجزائر) أن بيني وبين (التلفاز) أو مشاهدته قطيعة تكاد تكون مستحكمة . وأستعمل (أكاد) .. لأن هناك لحظات عابرة أجدني فيها معه لموعد أو عرَضا ، أو لمناسبة معّينة . وفي مقدّمة هذه اللّحظات : النشرة الرّئيسية في الثامنة مساء ، وقد لا أنسحب في خلالها أو بانتهائها دائما ، ربّما لارتباطي أيضا بموعد العشاء أو في جلسة عائلية ، وهي اللحظات التي تتيح لي على المستوى المحلّي رصد كثير من المظاهر السلبية التي يعجّ بها المحيط الاجتماعي والسياسي يومياً .

فبالأمس عند الولادة (القيصرية) لهذا المخلوق المشوّه : (الدّيمقراطية) العرجاء كان التلفاز يحفل يومياً بوجوه عجيبة مضحكة تعلن إنشاء أحزاب أو (حزيبات) بتعبير أدق ، حتّى بات في مقدور (معتوه) تحلّق حوله أربعة عشر فردا من (فصيلته) - كنصاب قانوني ! - أن يعلن تكوين حزب ، ويظفر بالاعتماد فيَ (وزارة الداخلية) ثمّ يظفر بالتّمويل المالي للعريدة العامة، فضجت الساحة بأكثر من ستين حزباً و (حزيباً) معظمها عجيب .. غريب مضحك ، وليس في حشدها الغوغائي سوى أربعة جديرة بالتسمية الحزبية . ومع ذلك فتحت خزينة الدولة (الكريمة) على مصراعيها لأيدي هؤلاء (الحزبيين) العابثين ، وقد اندثر معظمهم الآن بعدما أغلقت أبواب الخزينة في وجوههم ، التي كانت مسرحاً للنّهب وتمويل «نشاطهم» وتجويع أمّة كبر تسامحها مع الانتهازيين والبهلوانيين .

وها هي الصّورة نفسها تكاد تتكرّر اليوم بشكل جديد في (محاولة) الترشح لمنصب (رئيس الجمهورية) وقد فتح الباب للمترشحين (الأحرار) .. فخيل حتى لذوي الأحلام الصغيرة و (عقول) العصافير أنّ في مقدورهم التّقدّم للشعب الجزائري طلبا للترّؤس عليه، ولم لا ؟ فالقانون يعطيهم الحق، ويكفل لكل واحد منهم حماية أمنية (!؟) ويوفّر له غطاء ماليا في مرحلة السعي لجمع توقيعات (التزكية) الشخصية ! (خمسة وسبعون ألف توقيع) من (خمس وعشرين ولاية) من كّل ولاية (ألف وخمس مئة توقيع) على الأقّل .

كما يوفّر له تموين حملته الانتخابية عند ما يجدّ (الجد) بالنسبة لمن ظفر

بالرقم السابق ، وهو ما لا يستطيعه إلا قليلون جداً في النهاية من حزمة أفراد يسعون للترشح، كادوا يبلغون (عشرين مترشحاً) أو هم بلغوها ، أهمّهم - وطنياً - رئيس حركة (حماس) الإسلامية ، ورئيس الدولة حاليا الذي كان من أواخر المترشحين ، وهما - فيما يبدو - الأكثر هدوءا ورزانة ، وواقعية وشعورا بالمسؤولية ، وحظا أيضا.

لكن ممّن لفتوا النظر في حشد المترشحين رئيس حكومة سابق ، وجد لديه (الشجاعة) ليتقدّم من جديد ، يملأ وجهه - الذي لايشيخ - شاشة (التلفاز) فلم تكفه (أربعون سنة) في السّلطة : في الحكومة المؤقتة بالمنفي سائحا (١٩٥٨ - ١٩٦٢) ووزيرا - بعد (الاستقلال) - متبخترا ، ثم سفيرا مختالا في عواصم الغرب، ثم رئيس حكومة - تطبّق حالة الاستثناء بضراوة - أبدعت ابداعا مذهلا في اختطاف المواطنين من بيوتهم ليلا ، أو من محطات النقل العمومي نهارا ، لرميهم في خنادق ، ودفنهم جماعيا بالجرافات ، بناء على قوائم الخصوم الإيديولوجيين الجاهزة .

رئيس الحكومة السابق هذا يتفق الرأي العام شعبيا وإعلاميا على أنه أسوأ رئيس حكومة منذ (١٩٨٨) ، ويبدو أن الرجل لم يستسغ تخلص النظام منه أخيرا بطريقة جافة ، فاندفع ينعش تحالفاته الحزينة والإيديولوجية التي كان يغذيها في الخفاء وهو (رئيس حكومة) شديد المعاناة في عُقَده المزمنة من (الوطنية الإسلامية الجزائرية) ، فولج الحلبة - الرئاسية - اليوم أملَا في الظفر بخمس وسبعين ألف تزكية ، تبيح له دخول التنافس على منصب (رئيس الجمهورية) وهي المناسبة التى جعلته يقتحم على الناس بيوتهم بزهوّ وعنجهية من شاشة (التلفاز) .

وإلى هنا ، ومهما كان الأمر فهذا حقّه قانونيا ودستوريا ، لكن مصدر العجب أنّ الرجل حاول أن يبدو في صورة (الديمقراطي) المتفتّح على آراء الآخرين ، ولم يتحرج من الطموح إلى منصب (رئيس الجمهورية) وهو الذي قبر (قانون اللغة العربية) في غفلة طارئة مستغلا تحالفاته ، وإمكانات المناورة والتدليس ، وقد فشل فشلا ذريعا كرئيس حكومة ، وهو الذي بينه وبين القراءة قطيعة تّامة ، عمّقت (أمية فكر) قبل (أمية الحرف) وحاول مع ذلك أن يقدم نفسه كخبير في السياسة !

هل يمكن أن يكون هناك خبرة علمية من دون قراءة دائمة ؟ وهل هناك سياسة وخبرة فيها من دون علم ؟ هل يعقل - منطقيا الآن - أن يترأس أمّةً (رجل لا يقرأ) ؟

والدليل من لسانه ، خلال حصار مباغت على شاشة (التلفاز) أحكمه حوله صحفيان هما في عُمْر أحفاده ، ولكنّهما يقرآن ، فمضى يتخبط في الشباك كسمكة عنيدة ترفض الاستسلام ، ومن بين أسئلة الحصار في الختام الموجهة إليه :

« - آخر كتاب قرأته ؟ [هكذا بصيغة المفرد]

- آه .. كتاب ؟ .. آخر كتاب .. كتاب قرأتُه .. يعنى القراءة ؟ .. آه نحن مشغولون .. لم أقرأ .. آه .. نعم قرأت (Rapport) [تقريرا] .. نشره (سان سيمون) في (باريس) .. تستطيع أن تقول كتيبا ..وهو كتيب، صاحبه يدخل نفسه في أمورنا ، هؤلاء الناس لا يعرفون أمورنا ، هذا غير مقبول ، هذا مرفوض أبدا ، غير معقول أبدا .. [لاحظوا طبيعة أفكاره ولغته التى هذبتُ عاميتها على لسانه] .. في الواقع نحن مشغولون .. مشغولون جداً .. جداً ».

وقاطعه الصحفي ،، فصمت وعيناه زائغتان ، وفي ملامحه اضطراب عاصف عبّر عمّا في ضميره ، وعمّا سها عنه من أنه مشغول بحبك المؤامرات .. واصطناع التشويش ، وحفر الخنادق السياسية ،مع حلم المقابر الجماعية .. لعبة الفاشلين . ثم فاجأه الصحفي بسؤال آخر وعلى شفتيه وشفتي زميلته ابتسامة ساخرة :

«وآخر تصريح سياسي قرأته سيدي ؟!

- آه آخر تصريح ؟ أي آخر تصريح .. تصريح ، هو فعلا ، يعني أنا فعلا [لاحظوا] صرّحت لجريدة (. . .) ؟! وطالبت باحترام قواعد اللعبة السياسية. حذّرت من استعمال الدّين [إنني أهذب هنا لغته العامية] حذار استعمال الإسلام في الحملة الانتخابية ، على الدولة أن تطبّق القانون » .

وإن كان لقارئي الكريم في الوطن العربي أن يعجب .. فليعجب بدءا من حال امرئ لا يقرأ ولا يفهم ما يقال ، ولا يدرك ما يسمع ، ومع ذلك يريد أن يكون رئيسا على أمّة تعجّ بالمثقفين ، ورجال فكر وعلم وأدب تزدهر بهم مدّرجات الجامعات ومخابرها. كل العجب من (رئيس) لا يقرأ ! دفعته

التحالفات والمصالح الشللية أمس رئيسا لحكومة عمّقت المصائب والصّراع ؛ فأغراه ذلك - من دون شك - بالطموح إلى منصب (رئيس الجمهورية) لتصير (الجزائر) بحرا من الدماء .. باتّساع رقعة الغضب الشعبي الكامن .

إنه وباء الأمية والأميّين الذي عانيناه في مواقع دقيقة بهياكل السلطة في (الجزائر) كما في أجزاء من العالم الثالث .. ومنه أجزاء في وطننا العربي .. (أمية فكر) و (أمية حرف) و (أمية وعي) حضاري .. لا يريد الاندثار ، بل يصرّ على الثبات والاستمرار .

المسؤولون في الأمم المتحضرة التي تعيش مناخا صحيا : هم مثقفون ورجال فكر ومواقف حضارية ، وذوو استراتيجيات يفكرون في مصائر الشعوب لقرون لاحقة لالسنوات فحسب ، يتوّجون وجودهم نفسه في السلطة ذاتها بمذكرات ومؤلفات ، ترصد الأخطاء للاستفادة منها ، وترسم ملامح لرؤى : هي خلاصة خبرة من العمل (الفكري والتطبيقي) والتخطيط العلمي، والجد والجدية من موقع الشعور بالمسؤولية العظمى لإمام أمة . أمّا في عالمنا المتخلف فيتوجون وجودهم في السلطة: بعدّ القصور والمغاني (الفيلات) التى حازوها في الداخل .. وفي عواصم أوروبا .. فضلا عن حشو الحسابات بالملايين والملايير المنهوبة .. المودع أغلبها في مصارف أوروبا ....

لك اللّه يا وطنا كثر الطامعون فيه والرابحون من عذابه .. وجراحاته ! فصبرا جميلا فالفجرآت لا محالة وان امتدّ (ليل الشتاء) وستشرق الفرحة في القلوب وعلى الشفاه وفي العيون ، وما ذلك على الله بعزيز ولينصرنّ اللّه من ينصره ، وهو على كل شئ قدير .

الجزائر ١/١٠/١٩٩٥م

* نشر هذا الموضوع في جريدة (الشرق) القطرية ١٠/١٠/١٩٩٥م .

* أعلن المجلس الدستوري يوم السب ١٤/١٠/١٩٩٥ ، أسماء الأشخاص الذين مروا بالعقبة الأولى في التّرشح للانتخابات الرئاسية ، بحصولهم على التوقيعات الشرعية المطلوبة ، فكانوا اربعة ، لم يكن من بينهم (رئيس الحكومة) السابق المذكور هنا الذي تحدثت عنه وسائل الاعلام في اليوم التالي بصيغ مختلفة ، منها : « أقصي » «سقط » «فشل» «عجز » انهزم « أمام أول حاجز» .

ترقيع .. سياسي .. في غياب البعد الثقافي!

الحلم الوطني لدى جميع الشرفاء في (الجزائر) هو أن يستعيد البلد توازنه ، ودوره عربيا ودوليا بعيدا عن تهريج (الديماغرجيين) والانتهازيين الوصوليين ، بل بفكر الوطنيين النزهاء : مواقف وأفكاراً ورؤى ، وبعمل المخلصين الذين لم تتلطخ أيديهم بالبطش وجيوبهم بأموال النهب والاختلاس، وليسوا من أولئك الذين تسبّبوا بمؤامرتهم وأدوارهم الشيطانية فيما انتهت إليه (الجزائر) اليوم من تعفن سياسي واقتصادي ، وتمزق اجتماعي ، وثقافي ، وتيه (إيديولوجي) .

لقد صنع هذه البركة المتعفنة : العملاء ، والجهلة ، وذوو الإيديولوجيات المستوردة من اليسار المتلّون المتشكّل حسب الظروف ، المنوّع في أدواته منذ (١٩٦٢) فكان عمله التدميري أكثر فاعلية في الخفاء من أيّ أسلوب آخر، و(نجح) في الانتهاء بالوطن إلى هذا الدّمار المادي والمعنوي ، بعض عن تخطيط و (سبق إصرار) وتنفيذا لتعليمات أجنبية تدميرية ، وبعض عن جهل وقصور ، تشغله المغانم المادية والمصالح الشخصية : سياسيا واقتصاديا واجتماعيا .

وأحسب أنّ رئيس الجمهورية ساعٍ للخلاص من الوضع الذي ورّطتنا فيه مختلف تلك لقوى التدميرية ؛ فيقلّ هنا من يشكك في اخلاصه وحسن نياته ، وصدق العزم في خطواته ، وقد أبدى تفتّحا واسعا في الحوار والتشاور على كل التيارات ، من أقصى يمين إلى أقصى يسار .. وهو نهجه منذ عيّن وزيرا للدفاع .. فرئيسا للدولة .. ثم رئيسا للجمهورية بتزكية شعبية وطنية في انتخابات (١٦/١١/١٩٩٥م) الرئاسية .. متجاوزا منافسيه الثلاثة الآخرين .

وتندرج مشاوراته اليوم مع مختلف التيارات ، والجمعيات ، و (الشخصيات) والأشخاص في مسعى وطني صادق لاجتثاث جذور الداء وصولا إلى الحسم دستوريا وقانونيا في قضايا مختلفة منها أمر السّلطات المختلفة – وهي أمور لن يكتب لأيّ منها النجاح على أرض الواقع إلاّ بالاستشارة الشعبية الوطنية (الاستفتاء) لكن هل هو فعلا مسعى موفّق كلّ التّوفيق : دراسة وتخطيطا وممارسة ؟

هنا تكبر علامة الاستفهام حقًا ، تنبثق من أشياء مختلفة ، يثير بعضُها أحيانا عجبا ، فضرورة سماع الرأي الآخر مرهونة عادة بجدواه أولا وصدق نياته في فعل الخير ثانيا ، لا لمجرد إرضائه ، فلا خير في هذه الحال من تضييع وقت هدرا في أمر .. مع حضور اليقين من انعدام الجدوى ، خصوصا مع «سماسرة الفتن » . بتعبير كاتبنا (المقْري) في (نفح الطيب) منذ أربعة قرون .

من هنا يحقّ للمواطن المؤرق بهموم وطنه أن يتساءل عن جدوى الرأي من (حزبيين) في (اليسار) الذي (استنجد) بمختلف (البيادق) لوقف (المسار الانتخابي) وإرباك النهج (الديمقراطي) في(أمن) و(أمان) والوطن والمواطن العادي فيه (ضحية) .

كما يحقّ لهذا المواطن أن يتساءل عن جدوي إشراك عناصر (بركت) في (السلطة) منذ تكونت أول (حكومة جزائرية) في (المنفي) سنة (١٩٥٨م) إبّان الثورة التحريرية (١٩٥٤ - ١٩٦٢) ومعظمها لا يملك خبرة ناضجة ، ولم يحرص على اكتساب التجربة الجدية الواعية في تسيير المصالح العامة ، لأنه كان مشغولا بمصالحه في الداخل وفي الخارج : سياحة، ونزهات ، ومشاريع ، وعقارات ولم ترق عناصره بمستواها في التفكير فضلا عن (التّعلّم) حتّى أنّك تصاب بالدمار النّفسي حين تشاهد واحدا من (هؤلاء) يملأ شاشة (التلفاز) لينطق بمبتذل لفظ يضحك طفلا في (العاشرة) من عمره ويثير سخريته . سخرية من « سياسي » لا يفقه شيئا يدركه (ابن العاشرة) هذا ، فهي عناصر قديمة أثبتت الأيام أنها كانت في السلطة خالية الذهن من التفكير في حاضر (الجزائر) ومستقبلها ، ودورها ، والأجيال فيها ، كما لم تسع لرفع مستواها التعليمي والثقافي ، مثلما لم ترق بمستوى تفكيرها ؛ لأنّها كانت لاهية في السلطة ، بعيدا عن هموم الوطن والمواطن ومعاناتهما؛ ولا تزال بعيدة عن الاحتراق بالمحنة الوطنية ، تعيش بدورها في (أمن) و (أمان) مادي ومعنوي .

ونفس الشي يقال عن (وجوه) بعض (الجمعيات) التي وجدت في (الفتنة) غنمها ، لتمتطي الصخب الحزبي ، وتتوسل بمختلف العلاقات (المريبة) داخليا وخارجيا .. و(التلميع) الإعلامي المضلّل .

فأية جدوي من إضاعة وقت وطني .. في مواقع يتراجع فيها نداء الوطن ، ويعلو صوت المصلحة الشخصية والفئوية والحزبية والجهوية حيث يغدو الحرص على (المجد) الشخصي ، و (الصيت) الإعلامي مقدّما على كلّ شيء : حتى الوطن نفسه ، وجوداً وسياسة وسيادة .

ولا أكتم القارئ الكريم هذا الذهول لذي بت عرضة له منذ أكثر من شهر ، وأنا أتابع هذه الاستقبالات الحاشدة التي يخص بها رئيس الجمهورية: شخصيات وأشخاصا وأحزابا وجمعيات لم يلفت نظري فيها مفكر وطني واحد ذو اعتبار متميز من (رجال الرأي) حتى (اتحاد الكتاب) الذي كان ينبغي أن يكون في المقدمة تم تجاهله ، بعد التضييق عليه ؛ ورئيسه جامعي محترم ، ووزير سابق انسحب بشرف .

وهذه واحدة من أسباب تشكيكي في جدوى مشاورات على ارضية تبقى رخوة ، عرضة لانزلاقات شتّى في غياب العمق الثقافي الموحّد. غياب (البعد الثقافي) في (السياسة الجزائرية) عنصر جوهري في محنة الوطن الحالية ، بل إنّ جوهر الأزمة ثقافي ، فمنذ (١٩٦٢ م) اهتممنا بالتعليم - السطحي - و السياسة والاقتصاد ولم نهتم ببناء الإنسان ثقافيا واجتماعيا ، فسهل التفكك في اول تحرك للعاصفة ؛ تجاهلنا هذا البعد ، بفعل (رجال) في (السلطة) ممن ذكرنا منذ حين ؛ بينما سائر الأمم تعطي ذلك الأولوية التامة ؛ لأنها تدرك - كما أكدت منذ أيام منظمة الصحة العالمية أن « الثقافة والتاريخ جزء لا يتجزأ من رسم السياسة العامة لبناء مجتمع قوي يساعد أفراده بعضهم بعضا » بوعي وحكمة وتبصر ، ومسؤولية وطنية حضارية .

فإن اهتممنا بالثقافة في الخطاب السياسي : اتجهنا لصناعة ثقافة التشرذم والتّشتيت ، ثقافة النعرات القبلية والعرقية ، لا ثقافة التوحيد ، والبناء الوطني ، فمن مصادر هذا الذهول إذن هنا : (تغييب) رجال الثقافة ، والمبالغة في الإصغاء لنماذج لا تمثّل شيئا إطلاقا ، ولا تملك في رصيدها ونياتها وتجربتها ورؤاها ما يفيد .. ممّا يجعل المرء يخشى إلى أن ينتهي الأمر إلى ضرب من (ترقيع) سياسي هشّ في غياب البعد الثقافي التوحيدي الرزين لتماسك مجتمع وقوة وطن .

بات ذلك الذهول مقرونا بالشفقة على جهد الرئيس والأسف على وقت

وطني (قد) تكون نتائجه دون قيمته - وأثبت حرف (قد) تشبثا بكل ما فيه رائحة أمل - ما - يعزّز هذا ما سبق ذكره من بداية الموضوع حتى الآن ، مع مؤشرات سلبية تجعل المرء يتوجس من أن تكون العملية كسابقاتها : هدراً لوقت وترسيخا لأقدام قوى القهر والاستئصال ، وصوت الأقليات الإيديولوجية ومعربدي (السياسة) ومعربداتها .

مع ذلك - ورغم الألم - أتمنّى من كلّ قلبي أن أكـــون على خطإ في تشاؤمي ؛ حرصا على بقية أمل في أن تثمر الجهود - الظاهرة والخفية - بعض الخير للجزائر ، ولكن مع اليقين المطلق أن ذلك الخير لن يكون إلا على أيدي الوطنيين الجادين الواعين المخلصين الأوفياء لوطنهم وأمتهم ، ومجالهما الحضاري الطبيعي .

الجزائر ٢/٥/١٩٩٦م

القومي - الإسلامي !

أربعة موضوعات تنازعت على قلمي ، وأنا أمسكه لأخط أولى الكلمات هنا ، فأفسحت فورا المجال لأحدها الخاص بموضوع (القومي - الإسلامي) وقد حركته قراءة أولية سريعة في كتاب (مركز دراسات الوحدة العربية) بعنوان « المؤتمر القومي - الإسلامي الأول) وهو في نحو (٥٦٠ صفحة) ضمّت وثائق المؤتمر السّابق الذكر ومناقشاته وقرارته ، بعد انعقاده خلال شهر (جمادى الأولى ١٤١٥ هـ - اكتوبر ١٩٩٤م) في (لبنان) .

وقد بدا الهدف الأول في ذلك : العمل لتقارب (تيارين) يخيل لبعض ، أو يرى :أنهما متنافران لا متكاملان متلاحمان ، تياران متباعدان: ذلك له منطلقاته وأهدافه التي تختلف عن منطلقات هذا وأهدافه ، وهو مما برّر كثافة هذه الصفحات للحديث في الموضوع وحشد المدعوين الذين بلغ عددهم مئة وثلاثة : من شخصيات فكرية وسياسية ومهتمة ، من بينهم أعلام فكر وكلمة في وطننا العربي الإسلامي .

كل ذلك للحديث في موضوع يعتبر في جوهره من باب (تحصيل حاصل) وهو الموضوع الذي شوّه فهمه الخاطئ حياتنا الفكرية والاجتماعية في الوطن العربي منذ شرعت العناصر الشعوبية و (العرقية) و(اللاّئكية) و(الشيوعية) و(التغريبية) تفتعل تنافرا وصراعا بين عنصري هوية متكاملين : قومي وإسلامي ، في وطن عربي لم يكن ذا شأن يوما ولاذا هوية متميزة فاعلة : إلاّ بالإسلام والعربية من الخليج إلى المحيط ؛ فبالإسلام احتل هذا الوطن العربي مكانته في العالم ، والإسلام وحده جعله وطنا عربيا كبير على هذه المساحة الشاسعة حين تناغمت عناصر الدين واللغة التي نزل بها القرآن الكريم . وقد أصاب الأستاذ الدكتور (يوسف القرضاوي) كبد الحقيقة - كما يقال - حين أكّد في مداخلته بالكتاب المذكور (ص : ٧١ -٧٢) أنّ «لا انفصال بين العروبة والإسلام إلاّ إذا انفصل الجسد عن الرّوح» .

وإذا كانت هناك آفات اجتماعية وسياسية وفكرية وطائفية في الجناح الشرقي من وطننا العربي هيّأت لعملية الفصل هذه وعملت لإشاعتها .. و(تصديرها) إلى الجناح الغربي منه فإنها في هذه الجناح الأخير بقيت

محصورة، تكاد لا تبين .. إلاّ برعاية من الاحتلال الفرنسي ، بمحاولته الفاشلة في المغرب الأقصى ، ومحاولاته المستمرة في (الجزائر) حتى اليوم، رغم هزائمه النكراء ، لأننا في هذا الجناح الغربي من الوطن العربي (الإسلامي بالضروة) نعتبر (العروبة) و (الإسلام) عنصري انتماء ، وأساس الوطنية ، فلا فصل بين اسمي (عربي) و (مسلم) فذلك هو هذا، وهذا هو ذلك ، في الفكر الوطني ، وفي (الضمير الشعبي) وهو ما نبّه إليه الأستاذ (محمد مزالي) من (تونس) بكلمته القصيرة ، في الكتاب السابق الذكر (ص : ٩٤ - ٩٥) : « إننا في ربوع المغرب العربي الكبير لم نفرّق بين عربي ومسلم ، ولم نعرف هذه الثّنائية .... فكان كفاحنا من أجل الاستقلال : كفاحا لنصرة الدين واللغة العربية » كما زكى هذا الرأي الأخ (عبد الحميد مهري) من (الجزائر) في المصدر السابق (ص : ٢٣٢) حين أكدّ ما .. قد (يحتاج) لتأكيد بالنّسبة لبعض : « إنّ حركة المقاومة التي واجه بها المجتمع الجزائري الاستعمار الفرنسي كانت تتضمن العروبة والإسلام » .

وإنّي هنا في غنى عن أيّة فلسفة .. حين أصل إلى حصر الفكرة في (الجزائر) كمثال و التي تحّددت ملامحها النهائية كأمة في كنف الإسلام ، فتوحّدت قبائلها : ثقافة وعقيدة ، فلم يرد فيها منذ (فجر الإسلام) فصل بين (عروبي) و (إسلامي) فجمعت الوطنية العنصرين متكاملين غير متنافرين ، ومحاولات (الفصل) جاءت حديثا من عمل الاستعمار الفرنسي ، منذ (١٨٣٠م) حتى اليوم ، مما حفز رجال الفكر للمواجهة ، ومن أهمهم : المفكر المصلح (عبد الحميد بن باديس) الذي أعلن بوضوح : إن « قومي هم العرب أولا والمسلمون ثانياً » وهو ترتيب (عائلي) لاعتبار العرب أسرة صغرى ، من أسرة كبرت واتّسعت هي الأسرة الإسلامية عموما، تماما كما يعلن (أمازيغيته) أو (صنهاجته) ليقول : إنّه من أسرة أصغر، هي قبيلة (صنهاجة) (الأمازيغية) أو (البربرية) التي عرّبها الإسلام ، فاعتزت به، وبلغته ، فحملت لواءه ، وأقامت دولته في (الجزائر) ونشرت ثقافته ، وعمقت انتماءها الحضاري : لغة ودينا إلى مجال محدد السمات جغرافيا ، وتاريخيا ، فصارت لغتها العربية ودينها الاسلام عنصري هوية وانتماء .

وقد استقرت في الضمير الشعبي الجزائرى منذ القرن الثاني الهجري الصلة

المحكمة بين (العروبة) و (الإسلام) مثل (اللحمة) و (السّدى) فالعربي في هذا الضمير الشعبي مسلم بالضرورة ، بل إنّ المسلم في هذا الضمير عربي ، وإن كان من (اسطانبول) أو (طهران) أو (باكستان) فالمواطن طاهر القلب والسريرة - خصوصا الريفي - لا يفرّق بين دلالتي (عربي) و (مسلم) فهما أمر واحد ، العربي مسلم ، والمسلم عربي .. حتىّ في الزوايا المحددة التي تشوّهها الأحزاب (اللائكية) و (الشيوعية) و (الفرانكوفونية) متحالفة ، فتحاول إشعارها بأصولها غير العربية ، فيقول لك المواطن ، في هذا المناطق نفسها (نحن العرب) وهو يقصد (نحن المسلمين) لدرجة أن المواطن (الجزائرى) عموما: أنّه ينفعل ، وقد يصيبك - البدوي خصوصا - بأذى إن قلت له «لست عربيا » أي « لست مسلما » لأنه يعتبر ذلك تجريدا له من هويته معنويا ، ويراه (شتيمة) لا تختلف عن شتمك إياه حين تصفه بقولك : «أنت يهودي » أو « ملعون » لأن « كلمة يهودي » شتيمة قاسية ، تتضمن اللعنة ، وتحمل في طياتها صفات النذالة ، والمكر ، والخبث ، والغش ، والتدليس ، والأنانية ، وسواها .

فلن يغفر لك في هذا السياق أن تشتم (جده) أو (جّد العرب) فهو لايتذكرّ هنا (يعرب) ولا (قحطان) بل يذكر النبي (محمدا) (ﷺ) ، فسيندفع نحوك ثأراً لجدّه الإسلامي ، فجدّه ، وجد العرب ، هو الرسول (ﷺ) ولا جدّ سواه ، فبقدر ما هو رمز عروبي ، هو رمز إسلامي . ومن هنا كلّ العرب مسلمون في الضمير الشعبي الجزائرى ، فلا فرق بين (عروبي) و (إسلامي).

لذا كان المواطنون غير المسلمين القادمين من بعض الأقطار العربية في (الجزائر) يعانون عنتا في تلك المطاعم (المنزوية) التي كانت تفتح أبوابها على استحياء ويحذر وحيطة في (رمضان) نهارا للأوروبيين ، فيرفض النادل أو عامل المطعم خدمة ذلك المواطن المسيحي العربي ، فلا يقدم له طعاما ولا شرابا؛ لأمر بسيط : أنه يتكلّم العربية ، فهو مسلم في منطق عامل المطعم وضميره ، ومن العار عليه كمسلم إذن الإفطار في رمضان ، وقد جرت حوادث كثيرة تعرّض فيها بعض من رعايا بلدان عربية للإهانة (الهادئة المهذبة) لأنهم يتكلمون العربية ولا يصومون (رمضان) فاللغة والدين متكاملان في الضمير الشعبي ، هما عنصرا انتماء لأمّة عربية كجزء من الأمة الإسلامية الكبري ،

هذا هو الفكر الاجتماعي السائد لدينا .

الفصل بين (العروبة) و(الإسلام) فصل مفتعل ، وهو الإحساس الراسخ في الجناح الغربي من الوطن العربي ، وإن استشرت عملية الفصل في الجناح الشرقي منه، فقد بقيت منعدمة في المحيط الوطني العام في الجناح الغربي ، ومحدودة جدا حتى بين (النخب) وان شرع .. أخيرا يتّخذ منحنى آخر .. لعوامل مختلفة .. فشرعت تستغلّ فيه أشياء كثيرة ... حين أمسى الدين مطية لمآرب .. كما صارت اللغة أداة استغلال للانتهازية والانتهازيين ، بعد ما غاب الرجال ، وحضر (أشباه ... رجال) في الموقعين ، فاضرّ بالدين انتهازيون . كما أضرّ بالعروبة أدعياء منافقون ، مثلما أضرّ بالعربية ، خصوصا (في الجزائر) سماسرتها كسماسرة السياسة تماما ... ولم تكن السلطة السياسية بريئة من هذا .. منذ الستينات .

رغم ذلك وغيره .. يبقى المؤكّد ألاّ فصل في النهاية بين قومي وإسلامي ، لأنه لكلّ ما ذكر وما لم يذكر .. لا عروبة من دون إسلام ، لأنها الحقيقة الثابتة في ضمير الوطن والمواطن ، وهو ما ينبغي تثمينه .. مهما كان موقع الوطن جغرافيا ، ومكانة المواطن ومستواه ، فبالإسلام تحددت هوية الأمة العربية الحضارية ، فكانت العربية لغة القرآن الذي أخرج الناس من ظلمات .. إلى نور .. نور اليقين والحياة .

وكل محاولة لفصل القومي عن الإسلامي ، فإنّما هو عمل لفصل جسد عن روح، نزع الروح من الجسد .. تجعله هيكلا لا حياة فيه ... ولا نفع يرجى منه ، بل يسهل اجتثاثه واستئصاله أو ردمه أميالا .. في عمق من الأرض .. سحيق.

الجزائر ١٨/٤/١٩٩٦م .

هل هي (عودة وعي) سياسي ؟

الرأي العام الوطني في (الجزائر) تلقّى عدّة طعنات موجعة من النظام، خيّبت حلمه ، في مراحل (مختلفة) منذ (الاستقلال) سنة (١٩٦٢) فكانت ردود الفعل متباينة : ماديا ونفسيا ، تتّفق على نبذ سياسة (الكتل) و (العصابات) السياسية وضغوطها ، وممارساتها (الجهوية) و (الايديولوجية) .

كان الرفض معلنا تارة وبالصمت (البليغ) تارة أخرى ، وباللأمبالاة أحيانا ، حسب طبيعة الطعنة وظروفها وموقعها ، وهويتها الاجتماعية أو القومية أو الحضارية التاريخية ، أو سواها .

ومن آخر الطعنات وأشهرها وأكثرها ضرراً بمسيرة الشعب الجزائرى وبمصداقية النظام نفسه : المرسوم التنفيذي (رقم : ١٩٩٢/٢) المؤرخ في (١٩٩٢/٧/٤م) الذى أقرّه رئيس غير شرعى (بوضياف) وحال الأجل دون توقيعه وقد كان بتوجيه من عصابة عملت في الظلام بقيادة (يساري) على رأس ما كان يتندر به الشعب من (مجلس استشاري) معين (!؟) كبديل (ملفق) عن (البرلمان) المنتخب الذى (حلّ) في (ظلام) في (مسرحية) صبيانية عجيبة ! .

المرسوم المذكور أعلاه ألغى - يالسخرية الأقدار - مرسوما سابقا وقّعه رئيس شرعي منتخب (ابن جديد) خاصا بتطبيق (قانون) أقرّه (مجلس شعبي وطني) شرعي منتخب وطنيا في اقتراع عام .

كان موضوع ذلك القانون (رقم ٥/٩١) الواجب الفوري لتعميم استعمال (اللغة العربية) بمختلف أجهزة الدولة في آجال محدّدة ، خصوصا في الفروع الباقية من دون تعريب في الجامعة ، منها (معهد العلوم الطبية) و (جامعة العلوم والتكنولوجيا) .

كان القانون بتوقيع رئيس الجمهورية (الشرعي) يحمل تاريخ (٣٠ جمادي الثانية ١٤١١ هـ / ١٦ جانفي ١٩٩١م) وصدر في (الجريدة الرسمية) بالعدد الثالث ، للسنة الثامنة والعشرين ، وهو ما يعتزّ بإنجازه - حضاريا - آخر (مجلس شعبي وطني) أي (برلمان) منتخب من بين عناصر هذا القانون ، مواده :(٤ . ٥ . ٦) كمثال التي يقول نصّها الحرفي بالترتيب

السابق الذكر ما يلي :

« * تلتزم جميع الإدارات العمومية والهيئات والمؤسسات والجمعيات على اختلاف أنواعها باستعمال اللغة العربية وحدها في كل أعمالها من اتصال ، وتسيير إداري ومالي ، وتقني ، وفني .

*** تحرر كل الوثائق الرسمية والتقارير ومحاضر الإدارات العمومية والهيئات والمؤسسات والجمعيات باللغة العربية . يمنع في الاجتماعات الرسمية استعمال أية لغة أجنبية في المداولات والمناقشات .**

*** تحّرر العقود باللغة العربية وحدها . يمنع تسجيلها وإشهارها إذا كانت بغير اللغة العربية » .**

استبشر الرأي العام الوطني بهذا القانون ، مصفقا لممثليه في (البرلمان) الذين كانوا ترجمان وعيه ، لكّن زوابع التيار (الفرانكوفوني - التغريبي) تحركت ، معززا ومتكاملا بالتيار (اليساري) أو مادا رجليه فيه .

وكشأن فعل الأقليات دائما ، تحرّك هذا التيار في كل الاتجاهات متآمرا فأجهض بالعنف السياسي وضغوطه المختلفة : الحلم الوطني الذي عبر عن خياراته الشعبية بالقانون وبالمنطق المسالم .

وبقي الصّمت (البليغ) والمقاطعة المعنوية ، الساخرة من نظام يائس ، مستسلم .. لأقليات سياسية و(إيديولوجية) ضاغطة ، لكنها نشيطة ، تجيد حبك المؤمرات .

وتجنب الرأي العام ونخبه الوطنية المواجهة السياسية والفكرية نظرا للأوضاع ، في ظروف اختلطت فيها الأوراق ، وتداخلت القضايا ، وتشعبت المشاكل وتعددت المواقف بعد (وقف المسار الانتخابي) نحو قصر المجلس الشعبي الوطني (البرلمان) وبروز المواجهة المسلحة التى مضت تتغذّى من عدّة عناصر مختلفة . وهي الدوامة التي سعى رئيس الجمهورية الحالي للخروج منها بأكثر من أداة ، وعلى أكثر من جبهة ، وبأساليب مختلفة ، وهو أمر لا يعنيني هنا ، كما هو خارج اختصاصي .

لكن يعنيني أنّ ذلك المرسوم غير الشرعي (في ١٩٩٢) الذي ألغى ما هو شرعي (في ١٩٩١) خضع (أي مرسوم ١٩٩٢) بدوره للإلغاء اليوم (١٩٩٦) من سلطة شرعية مرة أخرى . وقد أعدت لذلك في الذكري (الرابعة والثلاثين) للاستقلال ، وأنعم به توقيتا ، فصادق مجلس الحكومة على

المشروع التمهيدي للإلغاء ، في أول اسبوع من شهر (يوليو) أي يوم (١٩٩٦/٧/٣) قبل يوم من عيد (الاستقلال) من أجل « إعطاء الأثر الكامل لعملية تعميم استعمال اللغة الوطنية التي تعد عملية مستمرة منذ استرجاع السيادة الوطنية » وهو نصّ (رئاسة الحكومة) .

كما تمت المصادقة في المجلس (المجلس ذاته) في (اليوم نفسه) على مشروع مرسوم رئاسي لإنشاء (المجلس الأعلى للغة العربية) تحت رئاسة (رئيس الجمهورية) من أجل « ترقية اللغة العربية واستعمالها في كل مجالات الحياة والعلاقات العمومية ، وحمايتها وتطويرها وتحديثها واشعاعها عبر كامل التراب الوطني » كما جاء في بيان (المجلس) ،

أهي بداية لعودة (وعي) سياسية جادة فعلاً ؟ في شهر (الحرية) و (الوفاء) للشهداء ، أهي واحدة من المحاولات الصادقة لتجاوز نهج (الكذب) و (المراوغة) أو (التدليس) إلى المصداقية الوطنية الجادة ؟ في سياسة دولة ذات إرث تاريخي ، تحكمها قيم وأخلاق ، واحترام لنفسها و أمتها ؟ معظم الملامح توحي بحسن النيات لدى رئيس الجمهورية ، وحرصه على تطبيق ما وعد به المواطنين في حملته الانتخابية للرئاسيات ، وهذه أول مرة أكتب فيها ما يشتم منه شيء من ثناء عن المسؤول الأول في الدولة ، أتمنى ألا أكون واهما ، كما أدعو الله أن يحقّق حسن الظنّ في كلّ ذي عمل مخلص جاد .في انتظار الملموس لصدق النيات ، نتمنّي أن تكون هذه الخطوة بداية لعودة (وعي) فعلية بإدراك كل المظالم التى لحقت الأمة والوطن ، وسببتها (جماعات الضغط) الانتهازية التى وجدت فريستها سهلة ، عبر أكثر من محطة ، وفي أكثر من مقتل في الفريسة المستسلمة (السلطة) الخاضعة للابتزاز ، التي أودت بالوطن إلى أكبر متاعبه في العصر الحديث ، حتّي بات للوطن العربي كله نصيب من إحساس ضار بهذه المتاعب الجمة المضنية .

رزقنا الله حسن الظن في مواقعه، وجنّبنا سوء الظنون ، فلا ننتظر إلاّ دفع ظلم، ومصداقية في سياسة ، وإخلاصا في العمل ، وصوابا في الفعل لصالح أمة عربية مسلمة ، في وطن غير مفصول عن محيطه الحضاري الطبيعي ، وحسبنا الله ونعم الوكيل ! .

الجزائر ١٩٩٦/٧/٨م

خنجر .. في الجرح النازف ..!

مهما كانت السلبيات التي انتهى إليها الوضع في (الجزائر) وما أصاب إنسانها من تشوهات فكرية وسياسة ووطنية ، وسواها ، فإنّ ذلك لن يكون أكثر من (مخبر) .. لاختبار المعادن ، جيدها وزائفها والرديئ منها، فيبقي فيها الانسان الجزائري من معدن تعركه المحن ، ولا تتلفه ، ولا تشوهه : مبادئ وقيما ، كما يبقي غير قابل للمساومة ، أو الزّجّ به في (بؤر) الغدر والخيانة التي هرع إليها (قردة) لبيع ضمائرهم في سوق (نخاسة) .

هذه ملاحظة أولية حركتها عناصر مختلفة في (الحياة الوطنية) بالجزائر، حيث بات كل شيء قابلا للبيع ، خصوصا لدى ذلك التيار الهجين الذين يملك بطاقة انتماء للجزائر وطنا ، وهي بطاقة من ورق : حية نظريا ، ميتة عمليا ويملك معها أساسا تبعية روحية لأوروبا الاستعمارية ، تبعية لغوية وفكرية بالضرورة ؛ لأنّ (السيد) المحتل بالأمس علّمه العبودية ، وغرس فيه سلوكا يترجم بدقة القول «جوّع كلبك يتبعك » بعد ما مكّن له في اللاّشعور بالضرورة « المغلوب مولع بتقليد الغالب» فقد جسمه (المناعة) التي أكسبه إياها الاسلام ، الذي حرر أجداده من جاهليتهم ، ومن عبودية (روما) وعلمهم معنى (الحرية) ورفض العبودية لغير الله الذي لا واسطة له إلا بالأعمال الصالحات وحبّ (الأوطان) الذي هو « ...من الايمان » .

أكتب هذا ... وفي السمع (بقايا) من تصريح (مخلوق) لاهث من هذا التيار مصنف في (الآدميين) لقناة تلفازية أوروبية ، خلاصته : أن المطلب (الأمازيغي) ينبغي الاّ يضيع فرصة ذهبية، في وقت « ضعف فيه النظام الذي يمكن تركيعه ، وقد توافرات امكانات النجاح »

يقول هذا الكلام (مخلوق) موظف في جهاز الدولة ، يهجر عمله في (الجزائر) ليمارس التجوال في (الغرب) لكن (راتبه ؟) الشهري لا تتوقف وتيرته عن التدفق بحسابه المصرفي ، بل ربما ظفر بتسهيلات مالية (سياحية) إلى (فرنسا) نفسها التي لا تكبده متاعب في استلام (التأشيرة) ليلعن (الجزائر) في قنواتها التلفازية. وهو أمر ليس غريبا (بالجزائر) في وضع إداري متآمر مع أمثال هذا المشوّه ، ومن هذا التيار نفسه ، في الظروف الصعبة

الحرجة الدقيقة كفرصة لا تضيعها قوى البغي والغدر ، والخيانة والعمالة .

فأين العزاء ؟

إنه في موقف شعب متماسك في أغلبيته ، لكنّه صامت حذر ؟! ربما يزعجني (تجاهله) و(لامبالاته) غير انه بذلك يحاول - خطأ أو صوابا - أن يترجم فعلا منطق المثل « القافلة تسير والكلاب تنبح » من دون وعي بما يترتب عن (نباح) من (تشويش) فطنين ذبابة لا شأن له ، لكنه يكدر الذهن، كما يعكر صفو اللحظات ، ويربك الفكر والتفكير نفسه ، كما أن ما يحسبه البعض (سيرا) هو أحيانا في واقعه سكون وركود ، بل استسلام او مجرد حركة دورانية في (حلبة مفرغة) .

بيد أن الحس الشعبي حين يعلن نفسه حتي في اللفتات الصغيرة نفسها يأتي في صفاء بلّوري خال من كل الشوائب ، وأحسب أن هذا ما ترجمه موقف (مجاهد) أصيل ، ممن يسمون (الأمازيع) في منطقة (الشاوية) بسفوح (الأوراس) الأشم ، وهو من الذين خاضعوا معارك (الجهاد) عن حب وإيمان إبان الثورة التحريرية (٥٤-٦٢) ثم لاذ بالصمت في الظل بعد (الاستقلال).. حتّى تساءل كثيرون وهم يرونه لأول مرة منذ شهور قليلة حين انتخب (أمينا عاما) للمنظمة الوطنية للمجاهدين [في حرب التحرير] وهي من المنظمات القليلة جدا التي لا تزال تجسد الوحدة وطنيا ، حريصة على الوفاء لمبادئ الثورة في (أول نوفمبر ١٩٥٤م) .

لقد تحدث قليلا هذا الرجل - وهو السيد محمد الشريف عباس - للتلفاز الجزائرى كأمين عام للمنظمة المذكورة ، وكمواطن ، فكان بليغا جدا ، صريحا جدا كشأن الثوار الأحرار ، حين سئل عن هذا المطلب (الأمازيعي) الذي هو بمثابة (شرطي) أو (دركي) للدفاع عن اللغة الفرنسية في (الجزائر) فقال هذا الرجل (الأمازيغي) الذي هو (طينة حرة) عربها الاسلام ، فخدمته ، فارتقى بها حياة وحضارة : « لقد تربيت في حجر والدتي - الأمازيغية - ولم أشعر قط .. يوما .. بغرابة العلاقة بين اللهجة الأمازيغية واللغة العربية ، ولا أعرف لهذه الأمازيغية شأنا لغويا ومعجميا وعلميا .. يجعلهاتطرح بهذا الشكل . لذا فإنك حين تسألني عن رأيي كمواطن في الموقف من المطلب الأمازيغي في الجزائر فإننى أراه في صورة سكين تحُرك في جرح جريح ... فالموضوع جملة

وتفصيلا مفتعل لأغراض لم تعد خافية » .

ولا أكتم القارئ الكريم أنني هنأت (التلفاز) الجزائريّ على مثل هذه (الفرص) القليلة حين يتيح الفرصة للوجوه النظيفة ، ويفسح المكان للكلمة الطيبة الصادقة .

وقد أجاد هذا المجاهد الجزائري الأصيل بعفويته وبساطته في التعبير عن اقتناع جاد ، وإعلان موقف من مطلب (ركبته) قوى العمالة والخيانة والغدر، وهي تسله كخنجر مسموم .. في جرح نازف .. هو الجزائر وطنا وأمة : تعاني مكائد شتى من الداخل ومن الخارج .. وما أشد أوجاع المكائد الداخلية !.

ومع ذلك تبقى (الجزائر) بخير ، في حضور شعور كهذا ورأي صريح صادق لم يلذ .. بمراوغات لأشباه السياسين ، ولابهتانهم ، ودجلهم وتدجيلهم .

فلا يملك المرء هنا إلا تسجيل التحية للموقف الذي ينبغي أن يكون (قدوة) لبعض ممن تلوثت أفكارهم وتشوهت رؤاهم ، فتناقضت مواقفهم ، وكسا الافك والغموض لغتهم حيث تجب الصراحة والوضوح .

وإن كنت واثقا ان هذه التحية لن تبلغ صاحب الموقف والرأى فإنّنى واثق من أنّها ستقول لبعض من أبناء أمتنا العربية الإسلامية : إن الجزائر لن تهزمها محنها ولن تجهض حلمها الدسائس ؛ بل ستمدها بالطاقة والإمكانات التي تجتث بها كل ادوائها وزوائدها المرضية ، فيلتئم الجرح بإذن الله وتنقلب السكين المسمومة .. في نحور قوى البغي والخيانة والغدر التي تكشر عن أنيابها في الظروف الصعبة .. حين هبوب الرياح العاتية ... ولا تنطوي للذلة والمسكنة .. الا عندما تلوح لها هراوة من حديد في يد صنديد، سيان في ذلك الهراوة المادية والهراوة المعنوية .. فقد كانت لهما .. معا .. كل الجدوى : الردع القانوني والردع الفكري ، بلغة الشرع والحق والعدالة بدعم من (الهراوة) المادية ولغة المنطق والإقناع والصراحة : لتعرية الزيف وكشف خفافيش الظلام في الليالي الحالكة .

لقد بكر رائد (الحركة الوطنية الإصلاحية) المعاصرة في (الجزائر) الشيخ (عبد الحميد بن باديس) في التصدي لأيدي الشر تمد أصابعها في جسم الأمة لتمزيقها تحت غطاء (الأمازيغية) إثارة للفتنة وبحثا عن مغنم، فكتب في مجلته (الشهاب) سنة (١٣٥٤هـ / ١٩٣٦ م) يقول « إن أبناء يعرب

وأبناء مازيغ قد جمع بينهم الإسلام منذ بضعة عشر قرنا ، ثم دأبت تلك القرون تمزج ما بينهم في الشدة والرخاء ، وتؤلف بينهم في العسر واليسر ،وتوحدهم في السراء والضراء ، حتى كونت منهم منذ أحقاب بعيدة عنصرا جزائريا أمه الجزائر وأبوه الاسلام . وقد كتب أبناء يعرب وأبناء مازيغ آيات اتحادهم على صفحات هذه القرون بما أراقوا من دمائهم في مجالس الدرس لخدمة العلم . فأي قوة بعد هذا تستطيع أن تفرقهم ؟ لولا الظنون الكواذب والأماني الخوادع . يا عجبا ! لم يفترقوا وهو الأقوياء فكيف يفترقون وغيرهم القويّ ...... ؟ » .

قال الرجل ذلك من منطلق المسؤولية الخاصة برجل الفكر ، عالم الدين، والمصلح الاجتماعي حين كان الرجال ذوي همم في القضايا الكبري ... قبل أن يشرع اليأس يدب في أوصال لاحقين ليهجروا مسؤولياتهم فبكر بالتنبيه لذلك خليفة (ابن باديس) الشيخ (محمد البشير الابراهيمي) سنة (١٩٤٨) قائلا : «ما ظلم الله العلماء ولكن ظلموا انفسهم ، ولم يشكروا نعمة العلم فسلبهم الله ثمراته من العزة والسيادة، والامامة والقيادة ... وكان من نتائجه إلقاء الأمة بالمقادة إلى من يُضل ولا يهدي من المشعوذين الدجالين ، فأضلوها عن سواء السبيل ، ومكنوا فيها للداء الوبيل ، وأعضل أنواعه الاستعمار الذي وجد منهم مطايا ذُللا سماحا إلى غايته الخبيثة في الإسلام والمسلمين ، ولو كان العلماء هم القادة وكانوا أحياء الضمائر والمشاعر وكانوا - كما كانوا - شداد العزائم والإرادات لوجد منهم الاستعمار في مشارق الاسلام ومغاربه حصونا تصدّ ، ومعاقل تردّ ... » مكائده في نحوره ، وخناجر بيادقه في صدورهم .

لقد كان العدو الأوروبي ظاهرا وإلى جانبه عملاؤه (سافرون) فسهل قهره وتعريتهم ، أما وقد رحل العدّو ، فقد تراجعت حرارة المواجهة ؛ فأناب خلفا له كدمًى مموهة يحركها من وراء ستار تنفّذ مشاريعه ، فإن انطلى أمرها على الناس بعض الوقت فلن يستمر ذلك كل الوقت ، وقد بدأ الخيط الأبيض يتبين من الخيط الأسود، وإن الفجر لآت .. وإن طال ليلنا في المعاناة يا وطن الجهاد والأحرار .

الجزائر ١٨/١١/١٩٩٦م

بوح في (زمن الحقائب) !

مشاعر عامة .. لمواطن عربي تطحنه معاناة بلده ، يدقّ الإحساس بها .. وهو يشاهد (غربان الشؤم) تنخز الوطن فكريا وماديا ، فتعمّق مأساته، حريصة على الإطالة في عمرها لتتضاعف مغانم (الغربان) ماديا ومعنويا: أمانا وحماية ومالا يتدفق (مجانا) وراحة بال في أوحال البهتان والحرام .

فكيف ندفع عن النفس الرغبة في الانسحاب من محيط صار موبوءاً .. في مجال العمل نفسه .. حتى في المحيط الجامعي ذاته الذي امتد إليه الوباء كسرطان يستوطن ؛ فحضر زمن (الحقائب) مرغما لا مختارا ، حقائب رجال الجامعة أنفسهم .. تحزم نحو شرق أو غرب ، رفضا للرداءة التي تجتاح كلّ شيء ، وبحثا عن (ملاذ) للعمل والعطاء ، وحفاظا على النظر والسمع مما يؤذي ، ليس تحاشيا لمواجهة بقدر ما هو ضيق من متابعة (مقززة) لمشهد (اللعبة) التي تمارسها (الخفافيش) الذين فعلوا الأفاعيل بالوطن ، حتى وصل أذاهم إلى الجامعة الجزائرية ذاتها .. فهل نكبح النفس عن جنوحها إلى حمل (الحقيقة) ؟ .. هو جنوح شارد مارد .. دامع في الوقت نفسه !.. نحو كل الاتجاهات .. مهما كان الموقع .. والهوية .. باستثناء (اسرائيل) .. بعيدا عما يدمي الفؤاد .. في غياب القدرة على تغيير ما .. (بالتى هي أحسن) .

كيف بات هكذا الانسحاب مستحبا - بكل بساطة - من قلعة إشعاع عالمي ذات تميز تاريخي ودولي ؟ ..إنها الضرورة التي قد تبيح (مكروها) أو (محظورا) ذاته ، فلم يعد النظر يحتمل - لدى أغلبية - منكرات وتجاوزات في المجال العلمي نفسه ، بعد ما تسلط (السياسي) على الثقافي والعلمي وتجاوزه ، فذهبت قيم العلم والفكر في (حوافر) الانتهازيين الوصوليين واللصوص والمرتزقة (من) عرق الآخرين ، وجدهم وتضحياتهم التي تفرضها ضمائرهم .

فينطلق صوت مدوّ .. معلنا .. هات (الحقيبة) وهات الوطن معها حبّا يقيم في الفؤاد وقيما يرتعش بها الايمان ونغما لا يبرح اللسان : نحبك في البعد مثل القرب ،، بل أكثر .. يا وطنا يعاني .

لم تعد لنا - يا وطن - طاقة ولا إمكانات لعونك ، في زمن (تحلّل) و

(تخشّب) باتت تحكمه المصالح الأنانية ، والعلاقات (الانتفاعية) .. ومقالب (العشائرية) و (الإقطاعية) الجديدة .

كيف يمكن الصبر للأذى الماحق ، وتحت غطاء (الاستثناء) الظرفي تتوطّن القيم التدميرية سافرة ، فتنتشر كالوباء ، فتتعرض الجامعة ذاتها للاغتصاب .. سعيا لإفراغها نهائيا من قيمها ، لتصير بؤرة لتصارع المآرب .. السياسية والإيديولوجية ، فيتراجع المناخ العلمي الذي وجدت لصنعه وازدهاره .. وإشعاعة .. واحتضان رجاله .. والرفع من معنوياتهم للعطاء والإبداع .

(نائب رئيس جامعة) بشهادة (ماجستير) أو دونها ، يالسخرية الاقدار ! أيجوز ؟ ويستغل الموقع ليُسمي (على نفسه) سبعة (مناصب) عمل ، في جهات مختلفة ، يأخذ راتبها ولا يعمل فيها دقيقة واحدة . (مدير بحث علمي) نفسه (بالماجستير) يا للفضيحة ! لم يكتب يوما ولا مقالا عاديا ، بل نظيره على رأس (جامعة) ياللعار ! وتأتيه خطابات جامعية عالمية .. بلقب علمي لا يحلم به ! .

من أوصلهم هناك غير القيم الرخيصة ، قيم (العصابات) السياسية، والشللية (الايديولوجية) التى تجعلهم في مواقع مسؤولية بمؤسسات علمية رفيعة المستوى تضم نخبا علمية وفكرية ،، ومن هذه النخب من (٠نحر) شبابه في البحث العلمي ، وقدم للمكتبة الفكرية والعلمية عشرات الأعمال الجادة ، وعدة عناوين رزينة : عشرة لهذا و عشرون لثان ، وثلاثون لثالث ، ليجد نفسه يعيش ظروف تسيير ادارى سيئ : يتساوى فيها العامل والخامل، استغفر الله! بل يرفع شأن الخامل الانتهازي الوصولي المهمل ، ويوضع شأن العامل الجاد المثابر المنضبط .

فصارت بوابة التسيب مشرعة ، والإهمال مقننا ، والعبث حقيقة ، حتى أمسى في مقدور هذا أوتلك او ذلك أن يزعم أن (إرهابا) ما (غير حكومي) يضايقه ، بل كتب أحدهم لنفسه (تهديدا) بالموت ، كي يقنّن له ممارسة الإهمال والتلاعب ، فيقضي مثل غيره : سنوات منزويا يعربد وسائحا لا هيا ، وراتبه يتدفق شهريا في حسابه المصرفي ، بوتيرة عادية ، بتوصية ما .. ودعم ما .. ، لتواطؤ ما .. فإذا حدثت حركة اجتماعية ما .. تدين هذا الأسلوب ، والابتزاز الرخيص المنحط: تتلاحق التدخلات .. وتتسع رقعة الإفك .. والتوطؤ

.. فتتضاعف مجالات (السطو) وتعلن الحرب على العاملين الجادين .. فتضيع جهودهم .. وآراؤهم في الفضاء كصيحة في واد أو كنافخ في رماد ، فلا يلقون الصدود والرفض فحسب ، بل الحصار والتضييق .. والتآمر .

ها هنا الغدر ، وها هنا الخيانة ، وها هنا (الإرهاب) الأشدّ فتكا على مستوى الروح والجسد ، إرهاب وطن وأمة ، في قيمها ومثلها ، وإرهاب العاملين الجاديين ، وارهاب للإطاحة بقيم الجدية والأمانة وتزكية القيم الطّحلبية، برفع شأن الوصوليين المرتزقة ، تجار (الشعارات) و (الدعايات) الركع الزاحفين إلي الموقع على أكتاف ضخمة متورمة بالآثام ، تمور في اعماقها رياح الغدر والخيانة .. والنذالة .

هي القيم الطّحلبية والاساليب الإرهابية التى تجعل (مسؤولا) و (صاحبه) في موقع (شرطيين) يمّرران (ارادتهما) على أشلاء الجماعة ، دوسا على روح الانضباط والمسؤولية ، كما يمارس نظيرهما (الحصار) بمختلف أشكاله على الكفاءات الوطنية المخلصة الرازحة تحت عنت شديد .. ولكنها صامدة .

ليس في هذا وضع من شأن بلد عظيم افتك استقلاله بالنار .. إباء وشموخا ، فدفع مليونا ونصفا من الشهداء قربانا على مذبح الحرية بقدر ما هو إدانة لمظاهر سلبية نريدها أن تندثر .. بعدما باتت تدمي أفئدة الشرفاء .. في وطن نريد رؤيته سليما معافى مشرقا ، تحقيقا لطموح الشهداء .

اكتب هذا في صحيفة تحبه و تحتضن هويتي - هويته ، صحيفة عربية لغة وروحا ، بينما يلعن المرتزقة هذا الوطن في منابر أجنبية لغة وروحا تبغضه .. في الوقت ذاته يتقاضون رواتب مجانية من عرق أمة ومالها من دون أدنى جهد .. غير (جهد) الهدم .. والتدمير .. داخليا وخارجيا .

فهل أعتب بعد هذا على نخب ، إن كنت سعيدا ببعضها يحط الرحال في ارض العروبة فأنا مبتئس لبعضها الآخر تحتضنه (أميريكا) و(أوروبا) خصوصا منها (فرنسا) التي ستعمق بهم نفوذها مضيا في الخطط التدميرية التي بدأت في القرن التاسع عشر الميلادي ، ونّفذت أولى خطواتها الماحقة سنة (١٨٣٠) لتختلف (السيناريوهات) بعد ذلك ، حسب الحقب ، والحالات والأوضاع و حتى اليوم .. بل حتى (الان) !؟ .

فحفظك الله وانجاك وأمدك بنصر منه يا وطنا صامدا .. يعاني مثخنا

بجراحات شتّى ، اختلفت مصادرها وتنوعت أدواتها واتسعت دائرة المتاجرين بها ، والسماسرة في حلبتها ، والغانمين بها . كان الله في عونك وعون ابنائك المخلصين المحبين الأطهار : إيمانا عميقا ، ووفاء صادقا ، يستقر في الأفئدة والآمال قبل التموج على الألسنة والأقلام .

الجزائر ١٩٩٦/١٢/٥م

الجنرال (شارل ديغول) .. يعود إلى (الحياة) !

رأيته في آخر (صورة) له ، بقامته الطويلة جدا ، وهو يوسع خُطاه واثقا في أرجاء مزرعته بالريف الفرنسي ، صحبة زوجته مع كلبهما ، وقد اعتزل عمليا السياسة . مع بقية تفكير فيها . كان لحظتئذ ، في الصورة ، يقبض بيمناه على عصاه ، في حالة تفكير متصل ، فيماذا عساه كان يفكر حينئذ ؟ أفي مستقبل (فرنسا) ؟ أم في أمر (الجزائر) المتعملقة التواقة للمستقبل ؟ أفيما قدم لفرنسا وأعد لها من رجال يتابعون المهام ؟ أم فيما أحكم من (خطط) لدق عنق (الجزائر) في الأوحال ، وما هيأ من (صنائع) تحقق في بضع سنوات ما عجزت دونه (فرنسا) الرسمية وأجهزتها على امتداد قرن واثنتين وثلاثين سنة ؟

أحسب أنهما الأمران معا ، كما أحسب أن الجنرال (شارل ديغول) بدا لي خلال هذه العشرية (١٩٩٠- ١٩٩٩م) أكثر هناء وطمأنينة في قبره ، وقد مضى (الأنجال) و (الأحفاد) على خطاه ، كما لم تحد الصنائع قيد أنمله على وصاياه الخاصة بالجزائر آخر غصة في حلقه ، وهو يودع السياسة ، ثم الحياة . فهو رجل (فرنسا) الذي أصرّ على أن (يُمَلِّكها) خادما أمينة ، هي (الجزائر) التي كان يريدها خادما جميلة طيعة ، جديرة حتى بالتحية، في ولائها الفرنسي ، فقال عنها والثورة الجزائرية (١٩٥٤ -١٩٦٢) في عزّ شبابها ، يوم (٨حزيران ١٩٥٨م) : «تحيا الجزائر الفرنسية » بعد إصرار قوي قبلا بدا متحديا خلاله ، في خطابه بمدينة (وهران) في السادس من الشهر السابق الذكر ، حين قال « نعم ، فرنسا هنا ، وهي هنا إلى الأبد » !

قال ذلك ، وهذا إبان زيارته (التفقدية) عبر أنحاء من (الجزائر) في شرقها وغربها ، لقطع طريق الأمل على الجزائريين ؛ في إحراز نصر على الاحتلال الفرنسي الجاثم على أرض (الجزائر) الطاهرة .

(شارل ديغول) وطني فرنسي مخلص لبلده ما في ذلك شك ، لفرنسا أن تجله وتخلد ذكراه في معالمها المختلفة ، وبأكبر مطار فيها ، وأرقى محطات (الميترو) في (باريس) . استنجد به وطنه في الملمات ، فقاده للتحرير من المستعمرين الألمان ، كما في مواجهة (ثورة الجزائر) فأجاد الحكم في سياسة

بلاده داخليا وخارجيا ، كما أجاد أيضا صنع (العبيد الأرقاء) الخدم للسياسة الفرنسية في مستعمراتها ؛ بما فيها تلك التى انتهت إلى (الاستقلال) لكنه ضمن فيها (أرقاء) بين المواطنين ، مستترين غالبا ، معلنين وجودهم بحذر أحيانا ، فاعلين بقوة في كل الحالات؛ وهذا ما أنجزه بالنسبة للجزائر ، وقد (خلّف) صنائع موّهوا على الوطن والمواطن ، فكانوا القنابل الموقوتة التي لا تزال تصنع (المحنة الجزائرية) علنا ، فهي تعيد منذ مطلع الثمانينيات إنتاج أفكار (ديغول) فيعود (الجنرال) بذلك إلى (الحياة) يملأ الطرب جوانحة .

لقد نادى (الجنرال) من دون كلال بالجزائر الفرنسية : لغة وثقافة ، وانتماء ، كما عبر عن ذلك سنة (١٩٥٨) في خطاب له قائلا : « لا توجد في الجزائر كلها إلا فئة واحدة من السكان ، إنه لا يوجد إلا فرنسيون كاملو الحقوق » .

فلا تنس قارئي الكريم هذا التعبير « فئة واحدة » حينما كان أمر الوحدة يهم (فرنسا) الاستعمارية ، هذه (الفئة الواحدة) في شرع الاستعمار تصير هي نفسها فئات (عرقية) عندما انتهى إلى قناعة بجدية الجزائريين عملا لاستقلال (الجزائر) بجهاد أبنائها الذين فجروا ثورة عربية إسلامية عارمة ، مع ذلك حاول (الاستعمار) أن يرواغ ، فشرع (ديغول) يدعو إلى (سلم الشجعان) منذ ندوته الصحفية في الثالث والعشرين من أكتوبر (١٩٥٨م) قائلا في الوقت نفسه بسذاجة تامة « إن الذين فتحوا النار ، عليهم أن يوقفوا النار، وأن يعودوا بدون إهانة إلى عائلاتهم ».

ثم أدرك في (شهر ديسمبر ١٩٥٨) بفضل حنكته الهوة التى تفصل (فرنسا) النصرانية عن (الجزائر) الإسلامية ؛ فقال بمرونة واضحة « سنرى بروز الشخصية الجزائرية وطبيعة الأشياء التى تربطهما بفرنسا » مضيفا بعد ذلك (جايفي ١٩٥٩م): « هناك مكانة مفضلة مخصصة للجزائر ، بعد تهدئتها وتحويلها ، بحيث تنمّي بنفسها شخصيتها ، وتكون مشتركة اشتراكا متينا مع فرنسا » .

أما حين صقله (الحدث الجزائري) بألا شيء يربط (فرنسا) الأوروبية بالجزائر العربية : فقد جنح لضرب هذه الصلة الجزائرية بفضائها العربي ، فأرادها « جزائر جزائرية» تقوقعية . بعيدا عن مجالها العربي ، فقال «هناك

شخصية جزائرية .... أعتقد أنهم سيريدون في جميع الحالات أن تكون الجزائر جزائرية » .

« الجزائر جزائرية » شعار رفعه (الجنرال ديغول) في (الجزائر) فخدع به بعضا ، لحسن نية ، وانتبه إليه آخرون بوعي وطني ، فردوا عليه بهتافاتهم : «الجزائر إسلامية » .

حين خسر (ديغول) كل أسلحته في المناورة الميدانية وانتهى إلى قناعة باستقلال (الجزائر) عمل لفصل الصحراء الجزائرية عن سائر التراب الوطني، للاحتفاظ بمنابع (البترول) مع (منح) استقلال ذاتي لغيرها من التراب الوطني ، فكانت هزيمته النكراء ، فانتقل إلى خطوة أخرى من آخر المراحل ، بالموافقة على استقلال (الجزائر) ذاتيا كأعراق ، أرادها متنافرة خدمة لمصالح الاحتلال اللاحقة عبر رجاله ، فرأى أن هذا الاستقلال الذاتي ينبغي أن يكون على أساس (مجموعات عرقية) ذات لغات محلية مختلفة متدابرة ، يحكمها نظام (فيدرالي) قائلا في خطاب له عنها « تجد هذه المجموعات المختلفة : الفرنسية والعربية ، القبائلية ، والمزابية ... التى تتعايش في هذه البلد : ضمانات تتعلق بحياتها الخاصة ، وإطارا للتعاون فيما بينهما » .

وهذا بعد أن أخفق مخطط هرسان (Plan Hersant) سنة (١٩٥٧) لتقسم (الجزائر) إلي ثلاث (دويلات) تابعة له ، شرقية تسمى (جمهورية قسنطينة) ذات الحكم الذاتي ، غربية هي (جمهورية تلمسان) ذات الحكم الذاتي أيضا ، وبينهما على أكبر مساحة وأغناها ، من أقصى الشمال إلى أقصى الجنوب : ما يسمى بالإقليم الفرنسي لمنطقتي (الجزائر) و (وهران).

هكذا يلقي الجنرال (شارل ديغول) في الميدان بكل اسلحته ، فتتكسر جميعا ، ليحمل حقائبه ويعلن من (باريس) يوم (٣ جويليه / يوليو ١٩٦٢م) قائلا : إن رئيس الجمهورية الفرنسية يعلن أن فرنسا تعترف رسميا باستقلال الجزائر» .

انتهى (ديغول) من (الجزائر) نظريا (١٩٦٢م) متوعدا إيانا (بالعملي) الذي سوف يتجسد في نتائج تحقيق طموحه بعد ثلاثين سنة ، وها هو ذا وعيده يتحقق ، فخدمنا لغته وحضارته بالجزائر في سبع وثلاثين سنة أضعاف ما خدمتها (فرنسا) مئات المرات خلال قرن واثنتين وثلاثين سنة ،

بفضل رجاله (العبيد) الذين تركهم ورعاهم ، فتسللوا في غفلة من الوعي الوطني ، فحقق له هؤلاء ما أخفق فيه هو ، فأعادت أخيرا أجنحة سياسية (عميلة) في المعارضة نفسها إنتاج أفكار (ديغول) حتى في تمزيق الوطن على أساس عرقي ، جهوي ، لغوي ، بمنطق «الجهوية المليحة» .

وبهذا يعود الجنرال (شارل ديغول) إلى (الحياة) عربيدا في (الجزائر) عبر رجاله الذين أكملوا مهمة السلف بتفان وإخلاص ، تشكرهم (فرنسا) عليه ، وتُبقي على (الخزي) و(العار) نصيب العملاء والمرتزقة الفجار ! .

الدوحة ١٩٩٩/٢/٢٧م

بين حبّ (فرنسا) وبغضها .. فاصل !

لم أُول أهتماما كبيرا لسؤال أحدهم يوما عما يقرأه لي من (حبّ) في (فرنسا) تارة ، و(بغض) لها تارة أخرى حتى أعاده ثان خلال محاضرة ، قائلا: كيف تفسر كلامك في (حب فرنسا) يوما ، وبغضها يوما آخر ؟ وربما كان (الحب) و(البعض) في يوم واحد ، في مناسبة واحدة ؟!

هنا بدا لي شيء كثير من سوء فهم خطير ، ناتج عن سطحية (القراءة) وسطحية في (الاستماع) وقصورة فظيع في (الاستنتاج) الناجم - ربما - عن كسل ذهني حاد ، وأفق ضيق جدا ، فتمخض ذلك عن إحساس بتناقض ما بين (حب) في (فرنسا) و (بغض) لها ، بينما الفاصل واضح وان كان دقيقا لا يحتاج مع ذلك إلى جهد كبير ، في حضور ذهن صاح وأفق صاف .

فأنا أحب (فرنسا) الحضارة ، والتقاليد العريقة : سياسيا وثقافيا وفكريا. أحبها كبوتقة فعل وتفاعل : أدبي وثقافي . وحرية فكرية ، وحيوية اجتماعية ، ونشاط عام متدفق في كل ذلك ، أُقّدرها عُشّا لتفريخ النظريات الفكرية والأدبية ، وفضاء إبداعيا عاما قبل أن تسحب (أميريكا) طبعا البساط من تحتها ، فلا ينكر الإنجاز الحضاري الفرنسي إذن إلا أعشى ؛ فهي التى شرعت تصدر لنا منذ مطلع القرن الماضي الأنواع الأدبية الحديثة ، والنظريات الفكرية والأدبية والفلسفية مع بضائعها ، وآلاتها ، وكذلك دباباتها وطائراتها ، وغواصاتها ، نشتريها منها بعد أن كانت تضربنا بها ، ويبقي العيْبُ فينا كمستهلكين، نلتهم كل شيء طازج وفج مغمضي العيون والضمائر، من دون تمييز ، كحاطب ليل قعد به التخلف الذي من صنعه ؛ فأنهكه صقيع (سيبيريّ) في زمن قرّ امتدّ أثره حتى العظم ، من صنعنا لا من ظلمه

نعيب زماننا والعيب فينا وما لزماننا عيب سوانا

أحب (فرنسا) الحرية والتقاليد الحضارية والفكرية والسياسية ؛ فهناك ثوابت لا يمكن المساس بها في حياة الأمة الفرنسية ، هي الثوابت التى تجعل المؤسسات السياسية قارة فاعلة ، يعاقب فيها الذين خانوا المسؤولية كأمانة، وتتيح المطالبة بمعاقبة من يسمح حتى بغزو الكلمات الانكليزية للغة الفرنسية ... أحب (فرنسا) الحرية والعدالة والمساوة التى تحفظ حقوقك في (فرنسا)

ولا تصادر (حريتك) ما دمت تحترم حرية الآخرين، ولا تسطو على حقوقهم ، هي العدالة التى تجعلك - أنت الأجنبي - تقود باسم القانون فرنسيا إلى القضاء ثم السجن ، لانه آذاك أو اعتدى على حقوقك المادية أو المعنوية .

أحب (فرنسا) الثقافة والعلم التى تقذف إلى الأكشاك يوميا عشرات العناوين: صحفا وكتبا ، فتنطلق مع مطلع كل شمس إلى أيدى القراء (النهمين) ورفوف مكتبات القراءة الخاصة والعامة ، الشعبية والرسمية . أحب (فرنسا) ذات التقاليد السياسية التى تجعل حاكما لاحقا يحرص على إضافة إنجازات تكمل إنجازات سابقه، من دون إتلاف شيء مما أنجز هذا السابق لصالح (فرنسا) ومن دون التقليل من شأنه، فيمضي اللاحق قدما في تحقيق الاستراتيجية الفرنسية على المدى البعيد، هو المنطق الذي توعدنا به في (الجزائر) الجنرال (شارل ديغول) سنة (١٩٥٩) لتقسيمها وتفتيتنا ، والتزم الخطة بعده (جورج بوميدو) لان القضية قضية دولة ورؤية سياسية ، وليست قضية حكام يمضون . هذا هو منطق (رجال الدولة) وتقاليد الحكم العريقة ، هي التقاليد السياسية الحضارية نفسها التى جعلت (جيسكار ديستان) يمضي على نهج (بومبيدو) ثم يمضي (فرانسوا ميتران) على خطى (جيكسار) ولم يحد ذلك عن قيد أنمله (جاك شيراك) فالتقاليد الفرنسية الاستراتيجية أولى بأن تحترم . مهما ذهب سياسيون وعاد آخرون ، وتبدلت سياسات في جزئيات أو في كليات ، فالثوابت مقدسة ، ومنها ثوابت (فرنسا) في احترام لغتها والعمل على نشرها بالتي هي أحسن ، وعند الضرورة بالتى هى أعنف (بالدسائس) والعمل على أن يكون أتباعها دائمى التبعية عبيدا لها ، وعملها على وحدة لغتها وترابها ومائها ، حتي (كورسيكا) جزء لا يتجزأ من (فرنسا) وكذا (البروتان) وبعض (الباسكيين) وغيرهم لها ، فباسم هذه التقاليد يقمع ثوار (كورسيكا) ولا يتفوه (البروتانيون) بأن لغتهم وثقافتهم غير لغة (باريس) وثقافتها .

هكذا أحب (فرنسا) الحريصة على عزتها ووحدتها ، (فرنسا) الحضارة: الثقافة والفكر والتقاليد السياسية العريقة ، والعدل، والحرية، غير القابلة للتصدير : للمستضعفين .. و الضعفاء .. بأيديهم ، لا بإرادة (فرنسا) وحدها.

من هذا (الفاصل) الدقيق نفسه أبغض (فرنسا) التى لا تصدر لنا إلا

السلبيات ؛ فتلك التقاليد السياسية ، مثلها مثل (الحرية) و(المساواة) وحتى (الأخوة) هى صناعة فرنسية وطنية جميلة ، غير قابلة للتصدير . (فرنسا) تصر على وحدتها اللغوية والسياسية ، وترفض بالتى هي أعنف استقلال مناطق عنها : تختلف عنها : لغة وتاريخا وترابا كحال(كورسيكا) لكنها تعمل بنشاط قوي على تقويض وحدة الآخرين ، مثلنا في (الجزائر) وهي ساهرة على ضرب صفوف شعب واحد : جغرافيا ، وتاريخيا ، ترابيا ولغويا وعقديا منذ ما يقرب من أربعة عشر قرنا ، لتجعل منه شعوبا وليس مجرد (قبائل) أو (عشائر) عادية طبيعية، في الحياة الإنسانية ، أما بكّر (ديغول) بتقسيم (الجزائر) أو تأكيد نية الحكم الفرنسي في تقسيمها ، وهو يراها في (١٩٥٩م) أنها تتكون من أربعة شعوب : (الفرنسي) (العربي) (القبائلي) (الميزابي) ونسي (الشاوي) حسب منطقة الاستعماري ، فحّول المناطق القبلية (الجهوية) الطبيعية العادية إلى شعوب ، لها لغات مختلفة ، مضيفا من (عنده) شعبا مصطنعا يريده ، أي (الشعب الفرنسي الجزائرى) وهذا ليقترح - بعد اليأس من الاحتفاظ بالجزائر - نظاما (فيدراليا) ذا ولاء لفرنسا .

هنا .. موطن بغضي (فرنسا) بل حقدي عليها وعلى رجالها الذين يتابعون مهمتهم خلفا عن سلف ، في ضرب استقلال (الجزائر) ووحدة أبنائها ، هم الذين رعوا فكرة (الشعوب الجزائرية) و (اللغات الجزائرية) لصالح (فرنسا) و(الفرنسية) لغة رسمية ، بدل العربية ، هم الذين تبنّوا بمنهجية سياسية ثم أكاديمية (البربرية) كخادم حامية للفرنسية ، فتبنوا (البربرية) عرقيا ولغويا منذ السنوات الأولى في احتلال (الجزائر) ثم أنشأوا رسمياً في (باريس) نفسها (الأكاديمية البربرية) سنة (١٩٦٧) على رأسها (يهود) ثم (جزائريوان) متهودون إلى جانبهم !

كما فكر (ديغول) من أقطاب (سلف) : يفكر (شيراك) في (الخلف) - وأنا أكتب هذا في : ١٩٩٩/٦/٥م - أما سمعت قارئي الكريم هذا الرئيس (شيراك) في مهرجان (تتويج) خلال (المونديال) بفرنسا ، في صيف (١٩٩٨) حين أحرزت (فرنسا) على الكأس بفضل جهد خاص للاعب (جزائري بالبطاقة) في (الفريق الفرنسي) هذا اللاعب من منطقة (القبائل) في

الشمال الجزائري ، رفع عند التتويج (العلم الجزائرى) في صورة عميل للعلم (الفرنسي) أي أن انتصار (فرنسا) انتصار للجزائر ، فأراد ذلك اللاّعب أن يكون العلم الجزائرى الذي لوّنته دماء الشهداء وأحلام المؤمنين عميلا لفرنسا ، وهذا ما تريده (فرنسا) الاستعمارية ، أي الوجه الاخر البغيض ، فهنأ حينئذ الرئيس الفرنسي (شيراك) الاستعماري الفريق الفرنسي ، وخص بالذكر ذلك (الجزائري) فلم يذكره ... بجنسيته (الجزائرية) بل بنسبه (القبلي) العشائري إلى تلك المنطقة في الشمال ، فقال عنه حرفيا « هذا القبائلي » .

هو منطق (الاستعمار) وأسلوبه مع صنائعه العبيد ، منطق (الاستعمار) أسلوب مستمر منذ أكثر من قرن ونصف ، هو المنطق الذي يبدع اليوم الصراع اللغوي في (الجزائر) لتدمير هوية أمة .. وضرب إنجازتها التى حققها المجاهدون الميامين بالسلاح ، وبالفكر معا .

فكيف تريدني هنا يا صديقي أن أحب (فرنسا) التى تحرص على وحدتها المصطنعة لغويا في العصر الحديث فقط ، وتشكك في وحدتنا اللغوية التى تكرست تماما بكشل حاسم منذ أكثر من ثلاثة عشر قرنا ؟ كيف تريدني أن أحب (فرنسا) هنا التى تحرص على وحدتها مع بلدان أخرى تفصلها عنها قيم وأخلاق ومياه البحر وتشكك في وحدتنا ، وقد تداخلت عناصر التراب والماء والهواء والهوى ، فضلا عما سواها من قيم وأخلاق ودين .

هكذا أبغض (فرنسا) إلى درجة (الحقد) وهي تنغّص حياتنا وتربك مسارنا التنموي والإنساني ، فتضرب صفوفنا في العمق ، بأيدي عملائها في الداخل قبل الخارج ، بمنهج استعماري محكم ، لم يتوقف منذ أكثر من قرن ونصف ، بل ازداد حقدا وعنادا بشكل متجدد ، متطور دائما ، من الجنرال (شارل ديغول) في الأولين المعاصرين ، و انتهاء اليوم بالسيد (جاك شيراك) الرئيس اليوم في(باريس) الضابط بالأمس في (الجزائر) حيث عمل وعاش - أثناء ثورتها الجهادية المسلحة (١٩٥٤- ١٩٦٢) - جحيم المواجهة كعسكري فرنسي في مواجهة المجاهدين المسلمين العرب الجزائريين الميامين .

هكذا أبغض فرنسا الاستعمارية العدو اللدود أمس واليوم ، وهذا لا يلغي بالضرورة (فرنسا) الأخرى التى أحبها : (فرنسا) العمل والنشاط والحرية و (المساواة) و(الأخوة) بين مواطنيها ، تحت راية (العدالة) فضلا عن حبي لها

مناخا للابداع الفكري والثقافي ، وحرية الرأي ، وفضاء حضاريا وديمقراطيا ، تكرس بفعل ثوابت يحميها القانون بصرامته وصولجانه، ولا يجوز العبث بها ، ولا يفلت العابث فيها من سياط القصاص ، باسم العدالة والحق انصافا للأمة ، في فرض إرادتها في وحدتها السياسية واللغوية .

كم أحبك يا (فرنسا) ! وكم (أبغضك) ! فهل تحلين يوما معضلتي وتجيبين سائلي؟

الدوحة ، ١٩٩٩/٩/٢٧ م .

الهوامش :

١ - ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، المجلد الأول ، ص ٣٢٨ ، دار صادر للطباعة والنشر - دار بيروت للطباعة والنشر ، بيروت ،١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م .

٢ - أبو زكريا يحي بن خلدون ، بقية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد ، ج:١ ، ص ١٧٨:١٧٩ ، تقديم وتحقيق وتعليق د. عبد الحميد حاجيات ، إصدارات المكتبة الوطنية بالجزائر ، ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م

٣ - محمد علي مادون ، عروبة البربر الحقيقية المغمورة ، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ، المركز العربي للتعريب والترجمة والتأليف والنشر ، ط١ ، ص٢٠ ، دمشق ، ١٩٢٢ م .

٤ - انظر :

Encyclopedia Universalis, Corpus:3, P:486:491, France, 1985 .

٥ - انظر :

Encyclopedia D'L'Islam, Tome :1, P:1208:1223, G.-P., Maisonneuve, Paris 1975 .

٦ - محمد علي مادون ، المرجع نفسه ، ص١٠٧ .

٧ - المرجع نفسه ، ص:٩٩ .

٨ - المرجع نفسه ، ص:١١٢ .

٩ - عثمان سعدي ، عروبة الجزائر عبر التاريخ ، ص:٢١ ، الشركة الوطنية للنشر والوزيع ، الجزائر ١٩٨٢

١٠- أحمد توفيق المدني ، كتاب الجزائر ، ط٢ ، ص:٧ ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر ، ١٩٨٤ .

١١ - د. أحمد بن نعمان ، فرنسا والأطروحة البربرية في الجزائر ، ص:١٠٥ ، منشورات دحلب ، الجزائر ١٩٩١ م .

١٢ - حمدان بن عثمان خوجة الجزائري ، المرآة ، عربه وقدم له د. محمد بن عبد الكريم ، ص:٨٩ ، منشورات دار مكتبة الحياة ، بيروت ، ١٩٧٢ .

١٣ - المرجع نفسه ، ص : ٨٨ .

١٤ - المرجع نفسه ، الصفحة نفسها .

١٥ - عبد الكريم مطيع ، عرب وبربر ، مؤامرة لتنصير المغرب واحتلاله ، ص:١٨ ، نشر

لم تعرف (الجزائر) عبر تاريخها الطويل مشكلة ثقافياً يوماً .. ما ، حتى جاء الاحتلال الفرنسي (١٨٣٠ - ١٩٦٢ - ... م) ليجعلها حقيقة قائمة تربك مسيرة الحياة ، وتقعد بنهوض الوطن ، تكبله لينصرف الانشغال الوطني بهوامش وتوافه تصرفه عن التطلع لبناء وطن قوي متماسك ، ينهض فيه بالعمل المصيري الجاد : أبناؤه المخلصون المتحابون المتكاتفون العاملون جميعا في إطار القيم الوطنية والدينية المشتركة ، في فضاء حضاري متميز ، يخضع فيه الجميع لضوابط صارمة توفر الحرية والمساواة والإنصاف بين جميع أبنا الأمة الواحدة ، من دون أدنى ثغرة يستغلها المرتزقة والانتهازيون والعملاء .

لكن حين جاء الاحتلال الفرنسي انطلق جادا حازما في تنفيذ سياسة « فرّق تسد » لتسهل عليه السيطرة ، فبادر لضرب الرابطة بين العربية والإسلام ، لينتقل إلى إبداع فكرة (عرب) و (بربر) كنعرة عرقية تفتيتية ، وإبداع صراع بين (العربية) و (الأمازيغية) ليخلو الجو للغة الاحتلال الفرنسي التي سرعان ما ملكت العقول واستعبدت الألسنة ومسخت الأرواح .

في هذا المناخ نشأت أجيال (متفرنسة) رعتها (فرنسا) وسهرت على إعدادها لينفذ الرعيل الأول منها سياسته تحت رعايته المباشرة إبان وجوده المادي (١٨٣٠ - ١٩٦٢) وتتابع الأجيال اللاحقة المهمة في التمكين لإدارة الاحتلال بعد دحره ماديا ، وتوغله فكريا وسياسيا (١٩٦٢-....م)

فسهر في السر والعلن على إعداد رجاله في كل المواقع : ابتداء من منصب (الوزير) نفسه في حكومة (الاستقلال) !؟ وانتهاء بأبسط عون في إدارة تصر على أن تبقى فرنسية اللغة والروح حتى اليوم ، بل حتى اللحظة التي أسجل فيها هذه الخاتمة (١٩٩٩/١٢/١٢) .

وقد جاءت فرص كثيرة بعد الاستقلال تهيأ فيها الشعب الجزائري لقطع (الحبل السرّي) مع بقايا الاحتلال وأذنابه ، وفعل عملائه ، ولم نكن سياسيا في مستوى المرحلة ، فخضع (بومدين) نفسه (١٩٦٥ - ١٩٧٨) للابتزاز ، فتم احتواؤه ؛ ليبدأ الحصاد المرّ لمختلف الأشواك بعد حياته ، في (العشرية السوداء : ١٩٨٠ - ١٩٩٠) ثم

(العشرية الحمراء : ١٩٩٠ - ١٩٩٩) وقد نبتت من (الدمن) تيارات و(حزيبات) فجماعات ضغط : سياسية ومسلحة ، في غياب رؤية فكرية ثقافية أصيلة ، وحضور ضياع سياسي ، في محيط غاب فيه (الرجال) وحضر (الأشباه) فانكشف الغطاء عن فراغ سياسي رهيب ، وفقر ثقافي مدقع ، وتَصحُّرٍ روحي موحش ، ولكل ذلك خلفيات وعوامل ونتائج ، يدفع ثمنها الشعب الجزائري وحده ضحية الغدر والخيانه والعمالة التي بات يمارسها على أشلائه ؛ في نظام مهترئ : عملاء خونة من شتى المواقع : باتوا الرابحين ، وحدهم ، أما الخاسر الأكبر فهو الشعب والوطن ؛ كما اتضح ذلك - إن شاء الله - عبر صفحات الأقسام الثلاثة من هذا الجهد الذي لم يكن له من حافز غير حسرة على مسيرة وطن أربكها هؤلاء الجهلة في (الحكم) و (الإدارة) والعملاء والخونة في مختلف المواقع الذين هم أكثر ولاء لفرنسا بلد الحب والتوجيه والتعليم ، ووطن الزوجات والخليلات ، والمصالح الشخصية العاجلة والآجلة ؛ هي جحافل صنعت مأساتنا الوطنية ، عاملة مخلصة للسيد - مستعبدها - مستفيدة منه ومن الضحية في الوقت نفسه ، متلذذة في جميع الحالات ، متفرجة على معاناة حصادنا : لسياسة العبث التي أنجزت مشكلتنا الثقافية المفتعلة بكل ركائزها التفتيتية ، والعبثية ، مما يدرك تفاصليه القارئُ الكريم عبر أقسام هذه المحاولة الشخصية التي هي عربون حب للجزائر وولاء لها دون سواها ، والأمل قائم بإذن الله في انتصارها ، وهزيمة خصومها العملاء الأوغاد ، رسل الفتنة ، وغربان البين الذين لعنهم الله في الأولين ، وتؤمّن على ذلك الأمة في الآخرين .

في ٥ رمضان ١٤٢٠هـ - ١٢/١٢/١٩٩٩م

المحتويات

رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية
(٤٨/١/٢٠٠٠)

رقم التصنيف: ٩و٨١١
المؤلف ومن هو في حكمه: عبد الرزاق إبراهيم بيومي.
عنوان الكتاب: ديوان القصائد.
الموضوع الرئيسي: ١- الشعر العربي.
٢-

بيانات النشر:
* تم إعداد بيانات الفهرسة والتصنيف الأولية من قبل دائرة المكتبة الوطنية.

طبع في مطابع الأرز ٠٠٩٦٢٦٤٦٠٠٩١!٠٥/٣٦١٠٠!١